عاطف عبد الغني
أساطير التوراة
مركز الحضارة العربية



أساطير التوراة

عاطف عبد الغنى

غـــــلاف : جـودة خليفة

الطبعة العربية الأولى : ١٩٩٩

رقم الإيداع : ٩٨/٢٥١٨

الترقيم الدولى : I.S.B.N. 977-291-065-9



مركز الحضارة العربية ، مؤسسة ثقافية مستقلة ، تستهدف المشاركة في استنهاض وتأكيد الانتماء والوعي القومي العربي، في إطار المشروع الحضاري العربي المستقل .

تطلع مركز الحضارة العربية ، إلى لتعاون والتبادل الثقافي والعلمي مع مختلف المؤسسات الثقافية والعلمية مراكز البحث والدراسات ، والتفاعل ع كل الرؤى والاجتهادات المختلفة

سعى المركز من أجل تشجيع إنتاج فكرين والباحثين والكتاب العرب ، نشرها وتوزيعها .

حب المركز بأية اقتراحات أو مساهمات جابية تساعد على تحقيق أهدافه .

راء الواردة بالإصدارات تعبر عن آراء ببيها ، ولا تعبر بالضرورة عن آراء أو هات يتبناها مركز الحضارة العربية .

رئيس المركز

على عبد الحميد

مدير المركز

محمود عبد الحميد

الجمع والصف الإلكترونى

مركز الحضارة العربية

تنفيذ : صفاء الشريف

ن العلمين عمارات الأوقاف

ميدان الكيت كات

ليفاكس : ٣٤٤٨٣٦٨

أساطير التوراة

عاطف عبد الغنى





- مركز الحضارة العربية ، مؤسسة ثقافية مستقلة ، تستهدف المشاركة فى استنهاض وتأكيد الانتماء والوعى القومى العربى، فى إطار المشروع الحضارى العربى المستقل .
- يتطلع مركز الحضارة العربية ، إلى التعاون والتبادل الثقافى والعلمى مع مختلف المؤسسات الثقافية والعلمية ومراكز البحث والدراسات ، والتفاعل مع كل الرؤى والاجتهادات المختلفة
- يسعى المركز من أجل تشجيع إنتاج المفكرين والباحثين والكتاب العرب ، ونشرها وتوزيعها .
- يرحب المركز بأية اقتراحات أو مساهمات إيجابية تساعد على تحقيق أهدافه .
- الآراء الواردة بالإصدارات تعبر عن آراء كاتبيها ، ولا تعبر بالضرورة عن آراء أو اتجاهات يتبناها مركز الحضارة العربية .

◆

رئيس المركز

على عبد الحميد

مدير المركز

محمود عبد الحميد

الجمع والصف الإلكترونى
مركز الحضارة العربية
تنفيذ : صفاء الشريف

٤ ش العلمين عمارات الأوقاف
ميدان الكيت كات
تليفاكس : ٣٤٤٨٣٦٨

أساطير التوراة

عاطف عبد الغنى



الإفصاح عن النوايا

عادةً ما يستهل الكتّاب مؤلفاتهم بكلمة يقدمون بها أنفسهم أو أعـمالهم تحت عنوان (مقدمة) أو (تقديم) لكننى آثرت أن أتقدم لقارئى (أياً كانت عقيدته) بالإفصاح عن نيتى وأفتح له صدرى عما يحتويه ليعلم مقدماً لماذا تصديت لهذا المشروع ؟

.. فى البداية علىّ أن أعترف أننى حاولت قدر ما استطعت أن أنحى مرجعيتى الإسلامية لأننى لم أشـأ أن أجرى بحثاً فى مقـارنة الأديان ولكننى آثرت أن تكون مـحاولة عـقليـة لقراءة العـهـد القديم ، محاولة يحدوها ويسيجها الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله .

لقـد آمنت بأن الله أنـزل توراةً على مـوسى ، سلام الـله عليه ، فـرُحـت أبحث عنهـا فى ذلك السِفر الضخم الذى بـين أيدينـا اليوم ويسمى التـوراة أو العهد القديـم لعلى أجدها أو أجـد قبساً منها .

ومع القراءة الأولى لهذا العـهـد القديم وجدتنى أيضاً أبحث عن آدميتى وعن كـينونتى وكيانى بين خلق الله ، لقد سـوّانى الله على هذه الهيئـة ووهبنى الحياة ، وبالتأكـيد لم يفعل ذلك سبـحانه ليُـسَخـرنى بعد ذلك وقـوداً لمدفـأة يهودى فى ليـالِ الشتـاء أو طعامـاً لقططه وكـلابه ، ويوم يأتى اليهودى بشريعة تنكس ما عمّره الله وتقلب القوانينَ التى أرسى الله عليها قواعد الأرض فلابد أن نقف ونفكر ونسـأل أنفسنا هل يصح أن تكون هذه الشـريعة من عند الله !!! ويكون السِـفر الذى يضمها بين دفتيه وحياً من السماء ؟!

إن هذا النفى قـد شـمل كل خلق الله من غـير نسل إسـرائيل أياً كـانت ملة هذا الآخـر وعلينا جميعاً أن نبحث فى سلالتنا فإذا لم نكن من نسل إسـرائيل الخالص (كما يدّعى التشريع اليهودى) فنحن لسنا من شعب الله ولسنا من خاصته وحدقة عينه وعليها نستحق جميعاً الطرد من رحمة إله اليهود (حاشا لله أن يكون كما وصفوه) .

.. وهل سمع أحد عن جذر شجرة فضّل بعـض أوراقها فمدها بالغـذاء دون أوراق أخرى ؟!

لقد نبتت هذه الشجرة فى توراة اليهود وجعلوا أنفسهم ثمرتها الوحيدة اليانعة الناضجة .. لماذا ؟!

هذه واحدة .. أما الثانية :

إذا كان الإيمان يستوجب التصديق بالقلب فهو يستوجب أيضاً القبول بالعقل .

وإذا كان الله قد خلق الإنسان على صورته ونفخ فيه من روحه فقد جعله أهلاً للكمال يسعى إليه ليناله ويناوئه الشرير فيقعد له عن يمينه وعن شماله ومن خلفه ومن أمامه ومن أعلاه ومن أسفله ، وينخسه بالمناكب ، فإذا تقلب القلب فقد زاغ ، وإذا زاغ فقد طغى ، وإذا طغى فقد نسى الله ، وإذا نسى الله فقد تهيأ له الظلام نوراً ووسوس له الشيطان وهو يحسبه وحياً من السماء !

باختصار ليس مخلاً ، كانت هذه مشكلة بنى إسرائيل الذين صاروا - فيما بعد - يسمون - يهوداً ، لقد صنعوا مع الله عهداً أبدياً من طرف واحد ، جعلوا أنفسهم فيه يستأهلون ما ليس حقهم ، وفرزوا أنفسهم عن العالمين ، فهم شعب الله المختار وهم خرافه وهم خاصته وحدقة عينه !! .. كيف ولماذا ؟! .. لا كيف ولا ماذا ، هكذا بلا سبب ، وعليه فقد احتكر اليهود الإله وطلبوه يسكن وسطهم بل ادعوا بالفعل أنه يسكن وسطهم وينقلونه مع التابوت وخيمة الاجتماع ! فهل نستطيع أن نصف هذا بأنه نوع من مرض النفس ؟!

لا أعتقد ، بل أرفض تبسيط المسائل إلى هذا الحد المخل ، ولكن نستطيع أن نصف الحالة بأنها نوع من انحراف للعقيدة توارثته الأجيال دون أن تكلف نفسها عناء البحث والتمحيص خاصة مع حساسية المسألة لأنها تتعلق بأمر من أمور السماء والاعتقاد الراسخ ، فالكفار والمشركون أنفسهم دافعوا عن إلحادهم وإشراكهم بضراوة وحاربوا رسل الله لأنهم كانوا يعتقدون أنهم على حق وصواب ورسالات السماء هى التى على باطل !

ولو أن الله فوق طاقة العقل فشريعته التى طلب أن تسود بين الناس توافق المنطق السليم والفهم الصحيح ، وهذا الفهم الصحيح لشريعة الله لابد أن يقود العالم إلى الغاية الحقة للحياة عبر سبيل صحيح ... هى إذن معادلة مثل معادلات الكيمياء .

فإذا جاءت الشريعة بشئ من الفساد فلابد أن تقود العالم إلى الفساد والضلال ، وهذه الشريعة لايُجبر أحد على قبولها أمراً من السماء ، لكن كيف اكتشف ذلك الفساد فى الشريعة ؟! أن أنحى نفسى عن الهوى والأحكام المسبقة وأعرض الأمر على عقلى أفحصه من كل الوجوه فإذا قبله العقل فلابد أن يستقر فى القلب وإلا فهو باطل ، وهذا ليس اختراعاً منا ، أليس المسيح

هو القائل:

«امتحنوا كل شئ وتمسكوا بالحسن» (١)

أما إذا كـان الجميع يتحـدثون باسم الإله ، فقد عـرف الناس الله بالعقل ولم يره أحد جـهرة ، وعليه فـنحن نُحَكِّم العقل ليس إلا ، ولا يصـدّق أحد - أبداً - أن العـقل - أعظم هبة وهبـها الله للبشر - يقود إلى الفساد ، فالفساد يأتي من اتباع الهوى عن جهل أو قناعة .

والأمر من قبل ومن بعد ... إرادة الله ... فلتكن مشيئته .

عاطف عبد الغنى

---

(١) سالونيك الأولى ٥ : ٢١ .

الفصل الأول

التـــــــوراة

كثيرون الذين سمعوا عن التوراة وقليلون الذين قرأوها بنيَّة المعرفة وأكثر هؤلاء وأولئك لا يعرفون إلا أن التوراة العبرانية أو العهد القديم هى كتاب اليهود المقدس ، وهى النص المعتمد عند كافة الطوائف المسيحية مع اختلافها حول قبول أو رفض بعض الأسفار ، أما الأسفار المقبولة فتسمى الأسفار القانونية .

والتوراة اسم يطلق مجازاً على كل أسفار العهد القديم لكنه فى الحقيقة يختص بالأسفار الخمسة الأولى من الكتاب وهى على الترتيب :

التكوين والخروج واللاويين والعدد والتثنية أو تثنية الاشتراع .

وكلمة سِفر معناها كتاب وجمعها أسفار واصطلح على إطلاق الاسم على جزء مستقل من أجزاء العهد القديم وهذا الجزء يُجمع تحت عنوان يحمل دلالة حدث هام مثل التكوين (خلق السموات والأرض) أو الخروج (خروج بنى إسرائيل من مصر) أو يسمى على اسم قبيلة (سبط يهودى) مثل اللاويين أو شخص مثل أيوب ، أرميا ، عوبديا أو اسم غير محدد مثل المزامير، الجامعة ، أخبار الأيام ، الملوك إلى آخره .

كذلك العهد القديم أُطلق على هذا الجزء من الكتاب تمييزاً له عن العهد الجديد (الإنجيل) كتاب المسيحيين المقدس .

والنص العبرانى للعهد القديم الذى بين أيدينا اليوم يضم تسعة وثلاثين سفراً تنقسم إلى ثلاثة أقسام هى : التوراة والأنبياء والكتب ، وهذه الأقسام الثلاثة تسمى بالعبرية التناخ(TANKH) والاسم مشتق من الحروف الأولى للكلمات العبرية الثلاث (توراة - نبئيم - كتوبيم) كذلك يسمى هذا الجزء المعتمد عند اليهود باسم المقرا أى النص المقروء والمصورة أو المصورت نسبة إلى العلماء المصوريين الذين بحثوا فى الحروف الصوتية للغة العبرية . [1]

والنص النهائى للتوراة الماصورية انتهى وضعه فى القرن الثامن الميلادى وهو يختلف اختلافاً طفيفاً عن الترجمة اليونانية التى ترجمها حوالى سبعين شخصاً فسمى النص السبعينى وقد وضع

(١) د . حسن ظاظا (الفكر الدينى الإسرائيلى) .

هذا النص خلال القرن الثالث قبل الميلاد .

والأسفار الخمسة الأولى التى قلنا أنها تسمى التوراة تبدأ بحكاية خلق الكون فتسرد سلالة الإنسان منذ أبى البشر آدم مروراً بقصص نوح والطوفان وسيرة نبى الله إبراهيم (من وجهة نظر يهودية) ثم سيرة ذرية إبراهيم مع التركيز على اسحق ويعقوب الذى سمى فيما بعد إسرائيل وهجرة إسرائيل وراء ابنه يوسف إلى مصر مصطحباً أهله وينتهى سفر التكوين ليبدأ سفر الخروج بمحنة بنى إسرائيل فى مصر إلى أن يبعث فيهم موسى فيقودهم للخروج من مصر إلى برية سيناء حيث يتيهون فيها سنين عديدة إلى أن يدخلوا الأرض المقدسة بقيادة يشوع بن نون فتى موسى وقائد جيوشه .

أما سفر اللاويين فيركز على الشرائع الكهنوتية ويرسخ مكاناً للكهنة فى شعب إسرائيل ثم يليه سفر العدد لينظم بنى إسرائيل ويحصيهم حسب إرادة الإله ثم يسرد جانباً من سيرة موسى وتذمرات بنى إسرائيل عليه ، أما السفر الخامس ويطلق عليه تثنية الاشتراع لأنه يعيد نص الشريعة التى وردت فى اللاويين بصيغة أخرى فيجنح بشكل غير مباشر لإقرار الحكم الملكوتى فى إسرائيل ويستدل علماء الكتاب المقدس على الزمن الذى دون فيه السفر (حدود القرن الثامن قبل الميلاد) بلغته والتشريعات التى وردت فيه فيقولون إنها مأخوذة عن أمم أخرى ولاسيما الشومريين والأكاديين والمصريين . (١)

وعلى الترتيب يتألف قسم الأنبياء من أسفار يشوع والقضاة وصموئيل الأول والثانى والملوك الأول والثانى وأخبار الأيام الأول والثانى وأشعياء وأرميا وحزقيال وهوشع ويوئيل وعاموس ويونان وميخا وناحوم وحبقوق وصفنيا وحجاى وزكريا وملاخى .

ويتضمن هذا القسم باقى تاريخ العبريين بعد موت موسى وحتى السبى البابلى فيسرد تاريخ استيلاء العبرانيين على بعض أراضى فلسطين وحروبهم مع جيرانهم من سكانها الأصليين ثم يروى أحداث حكم القضاة الدينيين للشعب حتى تبلغ مملكة إسرائيل أقصى مجدها على عهد النبيين داود وسليمان ومن بعد سليمان تنفصل إلى مملكتين على عهد رحبعام ابنه ، ثم تمضى الإصحاحات تروى ما قام بين المملكتين من حروب ومناوشات تشى بالانفصال الاجتماعى والكراهية السياسية إلى أن تنهض مملكة آشور الفتية فى العراق فتستولى على مملكة الشمال (إسرائيل) وتسبى سكانها ثم تخلف أشور بابل وتكرر الفعل مع مملكة الجنوب (يهوذا) فتقضى

---

(١) د . حسن ظاظا (الفكر الدينى الإسرائيلى) .

على آخر كيان سياسى لليهود فى فلسطين وحتى عصرنا الحالى .

ويقسّم البعض أسفار الأنبياء تلك إلى أسفار الأنبياء الأول والأنبياء الآخر الذين كثر ظهورهم مع الأيام الأخيرة لإسرائيل فى فلسطين (أيام الكيان السياسى) حيث بلغت آثام وشرور بنى إسرائيل مداها واستتبع اضطراب أحوالهم الدينية اضطراب فى أحوالهم السياسية والاجتماعية إلى أن انتهى أمرهم جميعاً إلى السبى فى مدن العراق على يد آشور وبابل .

أما أسفار الكتب فتحوى كلمات الحكمة مثل المزامير والأمثال وأيوب ونشيد الأنشاد ومراثى أرميا والجامعة وأستير ودانيال وعزرا ونحميا .

ويغلب على تلك الأسفار الطابع الأدبى شعراً أو نثراً وتروى قصص وحِكَمْ تواترت عبر الأجيال أو ارتبطت بحوادث اجتماعية وسياسية ودينية .

ولكن ..

عن أية توراة سوف نتحدث ؟!

والسؤال ليس من قبل الاستنكار أو السخرية لكنه استفهام جاد كل الجدة حير كاتب هذه السطور مدة من الوقت قبل أن يصل إلى رأى .

فإيجاد لغة جيدة للتواصل مع الآخرين يستدعى أن يحدد الكاتب لنفسه أولاً القضية التى هو بصدد البحث فيها أو الحديث عنها ، وعندما سألت نفسى أمامك عن أية توراة سوف نتحدث ؟ إنما أردت أن أشركك معى منذ البداية فى تحديد الهدف ، على أن السؤال لابد أن يستتبعه سؤال آخر :

وهل هناك أكثر من توراة ؟!

الإجابة : نعم ، هناك أكثر من توراة ، فهناك التوراة السامرية والتوراة العبرية ، والأخيرة تحتوى أسفاراً مقبولة من اليهود العبرانيين الذين يفرزون أنفسهم عن اليهود السامريين ، وهذه الأسفار التى يطلق عليها الأسفار القانونية الأولى هى أسفار مقبولة من كل الطوائف المسيحية أما الأسفار القانونية الثانية فهى أقل حظاً فى القبول وتسمى هذه الأسفار (الأبوكريفا) ومعناها (المخفية) أطلق عليها هذا الاسم طائفة البروتستانت المسيحية التى رفضت هذه الأسفار باعتبارها مدسوسة على التوراة ولا ترتقى إلى مستوى الوحى الإلهى وتضم موضوعات غير ذات أهمية أو خرافات

لم يقبلها اليهود ولا أصحاب التيار الإصلاحى المسيحى (البروتستانت) . [١]

والمثير للدهشة أن المسيحيين الذين رفضوا هذه الأسفار يتعللون فى ذلك بأسباب واهية مثل أن هذه الأسفار لم يرد ذكرها عند المؤلف اليهودى الشهير (يوسيفوس) ولم يستشهد بها بعض الآباء الأوائل للكنيسة (!!)

وهكذا اعتمدوا على (مؤرخ) عار من القداسة لتقرير قضية إلهية هامة ألا وهى ألوهية نصوص مقدسة !

على أن الأمر زاد تعقيداً عندما اكتشفنا أسفاراً أخرى كثيرة يقال إن اليهود والهراطقة لفقوها ورفضتها كل الكنائس المسيحية ومن هذه الأسفار عزرا الثالث والرابع وأسفار المكابيين الثالث والرابع والخامس وغيرها . [٢]

وعلى هذا الأساس السابق يحق لنا أن نكرر السؤال : عن أيَّة توراة سوف نتحدث ؟!

لنعمق القضية فنعطيها شيئاً من العمق التاريخى .

عندنا التوراة السامرية .. وهى تنسب لليهود الذين سكنوا مملكة إسرائيل تميزاً لهم عن هؤلاء الذين سكنوا مملكة يهوّذا [٣] ، واتخذت مملكة إسرائيل مدينة نابلس (شكيم) عاصمة لها واعتقدت فى قدسية جبل جرزيم خلافاً لاعتقاد مملكة يهوذا التى قدست جبل صهيون ...

وبعد

فقد اشترى عمرى أحد ملوك إسرائيل جبلاً من شخص يدعى شامر وبنى عليه مدينة سميت على اسم صاحب الجبل ونطقت - فيما بعد - السامرة وإليها ينسب السامريون ، على أن سكان مملكة يهوذا ظلوا يسمّون العبرانيين ، واختصت كل طائفة منهما بتوراتها فصارت هناك توراة للسامريين وأخرى للعبرانيين .

وتظل المعضلة قائمة والسؤال الحائر لا إجابة محددة له إلى اليوم : متى تم هذا الانفصال بين التوراتين حتى صارا على خلاف كبير فى قضايا جوهرية ؟! وأيهما على حق ؟! وأيهما على باطل ؟!

---

(١) الكتاب المقدس (الأسفار القانونية الثانية) طبعة مكتبة المحبة .

(٢) المرجع السابق

(٣) حتى نهاية حكم سليمان كان اليهود يعيشون فى فلسطين تحت حكم واحد وفى عهد راحبعام بن سليمان انفصلت المملكة إلى مملكة إسرائيل فى الشمال ومملكة يهوذا فى الجنوب .

التاريخ لم يعط لنا حلاً شافياً للقضية الأولى ، لكن من المؤرخين من يستسهل هذا الحل فيفتى مثلاً بأن العبرانيين والسامريين اتفقا على تحريف التوراة في زمن الأسر البابلي لليهود الذى وقع سنة ٥٨٦ ق . م واستمر لمدة سبعين سنة تقريباً وأن عزرا (الكاتب) كتب لليهود التوراة وسلمها لهم بعد عودتهم من هذا السبي فلما سكن السامريون والعبرانيون مدنهم اختلفا وحدث عداء شديد بينهما وبسبب هذا العداء أو الاختلاف ... اختلفت التورتان !! (١)

ونحن لا نقبل بهذا الافتراض لسبب يضحده من أساسه وهو أنه يستحيل أن يكون السامريون قد استلموا توراة عزرا أو قبلوها من البداية (وبهذه السهولة) لأن السامريين لا يؤمنون إلا بالأسفار الخمسة الأولى من التوراة ، ولو حدث أنهم اختلفوا بعد عزرا لما كان الخلاف عميقاً إلى الدرجة التي يقبلون فيها خمسة أسفار من أصل تسعة وثلاثين سفراً تؤمن بقدسيتها التوراة العبرانية .

بل إن للقضية وجهاً آخر لابد أن يطرح وهو: هل كانت التوراة السامرية هي الأصل الذى اقتدى به عزرا وجعله أساساً لعمله فأضاف إليه ونقّح فيه حتى وصل إلى نص التوراة العبرانية الذى بين أيدينا ؟!

لماذا لا ؟! ولماذا نعم ؟!

إن الصعوبة في الوصول إلى إجابة للسؤال السابق يعود بالدرجة الأولى للغموض الذى أحاط بتاريخ مملكة إسرائيل خاصة بعد نفي سكانها إلى بلاد العراق على يد ملوك أشور (سبق هذا النفي البابلي لسكان مملكة يهوذا) والسرد التاريخي الذى ورد في التوراة لم يزودنا بأخبار كثيرة عن أحوال هذه المملكة .. لكن إعادة تركيب حوادث التاريخ قد تفيدنا بعض الشئ .

من هم السامريون ؟!

سبق أن قلنا إنهم ينتسبون إلى مدينة السامرة عاصمة مملكة إسرائيل التى قامت على أنقاضها مدينة نابلس ، ويزعم السامريون - الآن - أنهم البقية الباقية على اليهودية الصحيحة وأن الجبل الذى يقدسونه هو المكان الذى بنى عليه أباهم الأعلى (يعقوب) معبده المكرس للرب . (٢)

---

(١) أورد مثل هذا الرأى د أحمد حجازى في مقدمته لترجمة التوراة السامرية التى أنجزها الكاهن السامرى : أبو الحسن اسحق الصورى .

(٢) د . حسن ظاظا : الفكر الدينى الإسرائيلى .

ويرفض السامريون الأنبياء الذين أتوا فى إسرائيل بعد موسى ويرفضون الأسفار اليهودية المقدسة الأخرى (ما عدا الأسفار الخمسة الأولى من التوراة) أى أنهم يرفضون المشنا والتلمود والمدراش بل ويعتبرونها من أعمال الكفر .

ومن هذا الرفض نبنى الأساس الأول لافتراضنا وهو أن التوراة السامرية لم تُكتب أو تُجمع أثناءالسبى البابلى بل حدث هذا قبل هذا التاريخ بسنين طويلة ، لأن السامريين يرفضون كل الفكر الدينى اليهودى الذى تبلور أثناء السبى البابلى ، كذلك نرفض افتراض ان هناك تقارباً ما تم فى مدن العراق التى سبى إليها أولاً سكان مملكة إسرائيل ثم سكان مملكة يهوذا بعدهم بأكثر من مائة عام ، وبين الآخيرين تركز عمل عزرا كاتب التوراة العبرانية .

والاعتقاد الذى نعتبره أقرب للصواب هو أن الأسفار الخمسة الأولى قد جُمعت بمعرفة الكهنة فى تاريخ قريب قبل انفصال مملكة اليهود إلى مملكتى إسرائيل ويهوذا ، وبسبب العداء السياسى الاجتماعى الذى قام بين المملكتين - وكان مبدؤه فى عهد رحبعام بن سليمان - تم رفض النبيين سليمان وأبيه داود من قبل مملكة الشمال (إسرائيل) وبالتالى تم رفض تاريخهما الذى قبله عزرا - فيما بعد - لكن لم ينقيه من الأسطورة . واكتفى السامريون بالأسفار الخمسة الأولى من التوراة التى نسبت جميعها لموسى وتنتهى بسفر تشريعى هو سفر تثنية الاشتراع .

إن العداء بين يهود مملكتى الشمال والجنوب لا يمكن تجاهله بل تحكى التوراة العبرانية فصوله وهى تؤرخ لمملكة يهوذا ولذلك فليس مستغرباً أن تصف التوراة العبرانية - صراحة - وفى أكثر من موضع مملكة إسرائيل بأنها مؤسسة على الكفر ورفض الدين التوحيدى والأكثر رفضاً وتنكيلاً للأنبياء .

وعلى الرغم من أن جماعة من اليهود ظلوا يسكنون مدن السامرة بعد السبى الأشورى لبنى جلدتهم وتدمير مملكة إسرائيل إلا أن التوراة العبرانية تسكت عن ذكر أخبارهم ويكاد التاريخ ينقطع بهم عند السبى الآشورى وكل ما تذكره التوراة العبرانية عنهم فى سفر الملوك الثانى :

> «وجرى بنو إسرائيل (مملكة إسرائيل) على جميع خطايا يربعام التى صنعها ولم يحولوا عنها حتى نفى الرب إسرائيل من وجهه ، كما قال الرب على ألسنة جميع عبيده الأنبياء وجلا إسرائيل عن أرضهم إلى آشور إلى هذا اليوم ، وأتى ملك آشور بقوم من بابل وكوت وعوا وحماة وسفروا يئم وأسكنهم فى مدن السامرة واستوطنوا مدنها» .

فإذا قبلنا هذا النص فلابد أن نقبله بحذر تاريخى لأنه يريد أن يقول لنا : إن سكان السامرة بعد السبى الأشورى صاروا جوييم أى غرباء وبالتالى لا يتم الاعتراف بهم كيهود ولا بتوراتهم ويستمر النص فيتهمهم بصفات الكفر المتناهى والعصيان على الله .

أما السامريون (وهم الآن قلة تعد بالمئات) فينسبون أنفسهم إلى هارون أخى موسى ويعيشون فى عزلة عن باقى اليهود من كل الطوائف وعلى الرغم من أن هذه العزلة تكاد تودى بهم وتقطع نسبهم إلى الأبد فإنهم متمسكون بها تمسكهم بتوراتهم التى تختلف عن التوراة العبرانية فى أمور أهمها :

السامرية ترفض أسفار الأنبياء والكتب (أسفار الحكمة) ولا تقبل إلا الأسفار الخمسة الأولى التى ينسبونها إلى موسى وهى على الترتيب أسفار التكوين والخروج واللاويين والعدد والتثنية .

تختلف نظرة التوراة السامرية عن العبرانية بالنسبة لمسألة تجسيد الإله ، أول مظهر لهذا الاختلاف تجده فى العدد الخامس من الإصحاح الحادى عشر لسفر التكوين حيث تقول التوراة العبرانية : **«فنزل الرب لينظر المدينة والبرج اللذين كان بنو آدم يبنونهما»** بينما تقول التوراة السامرية **«فانحدر ملاك الله لنظر المدينة والبرج الذى بنى بنو آدم»** فإذا كانت الصورة كما وصفتها التوراة تستدعى تجسيد الإله فى العقل فإن التوراة السامرية استبدلت كل المواضع التى أتى فيها ذكر الإله على هذه الصورة بملاك الله ، فعندما تقول التوراة العبرانية **«ظهر الرب لإبرام»** نجد التوراة السامرية تقول : **«وتجلى ملاك الله لإبرام»** كذلك فى الرؤى المنامية للملوك الوثنيين أو غيرهم عندما تقبل التوراة العبرانية أن يستعلن الله لهؤلاء ترفض التوراة السامرية وتستبدل به ملاك الرب أو ملاك الله فإذا قالت الأولى : **«وأتى الله إلى لابان الآرامى فى حلم الليل»** فإن الأخيرة تقول : **«وجاء ملاك الله إلى لابان الآرامى فى حلم الليل»** وتبلغ التوراة العبرانية قمة التجسيد للإله عندما تنص فى سفر التكوين أن النبى يعقوب صارع الله فقدر عليه وكان الله فى ذلك على هيئة إنسان : **«وصارعه إنسان حتى طلوع الفجر ولما رأى انه لا يقدر عليه (على يعقوب) ضرب حق فخذه»**.

وتورد التوراة السامرية تلك القصة بتفصيلاتها التى تتفق تماماً مع تفصيلات مثيلتها العبرية إلا أن الأخيرة تجعل ملاك الله هو الذى يصارع يعقوب ، ومثل هذا فى ضيوف ابراهيم عليه السلام فبينما تنص السامرية على أن جميعهم من الملائكة تجعل العبرانية الله واحداً منهم يدعوه إبراهيم للأكل والراحة فيستجيب بل يلامس إبراهيم جسده ويغسل له رجليه (!!)

وهكذا ترفض التوراة السامرية كل ما من شأنه (أنسنة) الله أو تجسيمه (ظهوره على هيئة جسم) حتى فى مناسبة حديث الله لموسى فى الوادى المقدس حين تصف التوراة العبرانية فتقول إن موسى ستر عينيه لأنه خاف أن ينظر إلى الرب ، تورد السامرية نفس المشهد لكن تجعل الكلام لله والصورة لملاكه .

اسم الله أيضاً هو أحد الاختلافات الجوهرية بين التوراتين ففى سفر الخروج أيضاً عندما يسأل موسى الرب عن اسمه يجاوبه فى العبرانية : **«أهيه الذى أهيه»** ثم يقول له فى الأعداد التالية إن اسمه «يهوه» بينما نجد أن ترجمة ذلك فى التوراة السامرية هو : **«الأزلى الذى لايزال»** ثم **«الله»** وبالتالى يحل الله محل يهوه كاسم للرب .

على أن علماء الغرب الذين اضطلعوا ببحث ودراسة الكتاب المقدس يتعاملون دائماً مع التوراة العبرانية على أنها النص الوحيد المعتمد وعلى سبيل المثال يقول لوسيان جويتيه [(١)] عن يهوه هذا أنه أحد مصدرين قديمين لكتابة التوراة والذى يحمل منهما اسم يهوه علماً على رب العبريين الوطنى القديم ويرجع إلى القرن التاسع قبل الميلاد ورواته كانوا من الجنوب ممن كانوا يسمون مملكة يهوذا التى كانت عاصمتها القدس (أورشليم) .

على أن هناك مصادر أخرى تُنسب إليها كتابة أسفار التوراة ومنها سفر تثنية الاشتراع الذى قيل إنه أُدخل على صميم التوراة سنة ٦٢١ ق . م [(٢)] ضمن برنامج الإصلاح والتطوير الذى عمله الملك يوشياهو وإن كان السفر قد كُتب قبل هذا التاريخ فى عهد الملك منساجد يوشياهو هذا والملكان من ملوك يهوذا وحكما فى تاريخ لاحق لزمن تدمير مملكة إسرائيل وسبى شعبها إلى أشور .

وهذا ما يعتقده لوسيان جوتيه على أساس أنه فى عهد يوشياهو هذا حدث تطور دينى فى مملكة يهوذا مع كثرة الأنبياء ، لكن الرواية تحتاج إلى بعض الإضافات فعندما نكتشف أن هذا الإصلاح تزامن مع عثور الكاهن الأعظم حلقيا على توراة موسى وفيها كتاب الشريعة (أخبار الأيام الثانى ٢٤ - ١٨) فهنا إما أن تسقط نظرية جوتيه لأن كتاب الشريعة كان موجوداً بالفعل وسابق لعهد يوشياهو بكثير من السنين وإما أن تصدق النظرية وتسقط حكاية التوراة عن مسألة السفر الذى وجدوه فى بيت الرب وتكون القصة كلها مختلقة أو من الأساطير تمهيداً للتحول

---

(١) Lucieng awtien : intr aduction al' ancen Testoment .

(٢) قال بذلك أيضاً لوسيان جديته .

الدراماتيكى الذى أتى بعد ذلك بسنين قليلة عقاباً من الله على فساد مملكة يهوذا ومخالفتها للشريعة على صورة سبى أهلها وتدمير أورشليم .

على أننا نقترح نظرية ثالثة تفترض أن هذا السفر بالذات «تثنية الاشتراع» ربما قد أضيف فى التاريخ الذى قاله جوتيه بمعرفة كهنة يثق فيهم السامريون والدليل أن هذا السفر يتحدث عن عقاب إلهى بالسبى وفى هذا التاريخ لم يكن السبى البابلى قد وقع لكن الذى وقع هو السبى الأشورى كذا بركة جبل جزريم منصوص عليها فى تثنية ١١ : ٣٠ .

على أن هناك رأياً لآخرين تم نشره فى مجلة الكاهن التى يصدرها المعهد الاكليركى للأقباط الكاثوليك بالمعادى وهذا الرأى قد يعضد النظرية الثالثة التى افترضناها بالنسبة لسفر التثنية وانه قد كتب بمعرفة السامريين فى زمن ما بين حكمى منسا بن حزقياهو وحفيده يوشياهو (٦٩٨ – ٦١٠ ق . م) [١] . وكان بعض كهنة إسرائيل (مملكة الشمال) قد فروا إلى مملكة يهوذا فى الجنوب بعد سقوط مملكتهم سنة ٧٢١ ق . م ، واستقروا فى يهوذا وعكفوا هناك على تأليف سفر تثنية الاشتراع وضمه إلى الأسفار الأخرى التى استقروا عليها أو كادوا ، وهى أسفار (التكوين والخروج واللاويين والعدد) [٢] بل ويجزم الرأى السابق أن أصل سفر التثنية (فى شكله الأول) يبدأ بخطاب موسى النبى فى الإصحاح الخامس من السفر وينتهى بالبركات واللعنات فى الإصحاح التاسع والعشرين منه أما ما قبل ذلك وما بعده فقد تم تأليفه فى أيام يوشياهو .

ويضيف الرأى السابق أيضاً أن الكهنة اللاويين الذين هاجروا من مملكة الشمال بعد تدميرها وقاموا بتأليف السفر فى صورته الأخيرة فعلوا ذلك بواسطة المجموعات التشريعية التى صاحبتهم ويصف أصحاب النظرية هؤلاء الكهنة بأنهم كانوا نفعيين أنانيين غرضهم الأول الإشادة بمركز العبادة فى أورشليم (حيث يقيمون) ليجلبوا لأنفسهم المنفعة .

ولكى نبحث الفرضية الأخيرة لابد لنا أن نعود لإصحاحات السفر وننظر فى مكانة الكهنة فيه ومسألة مركزية العبادة .

وبعيداً عن جداول الإحصاء والأرقام العقيمة فنظرة سريعة للنص ستظهر لنا كيف تم التركيز على نصيب اللاوى (ومنهم الكهنة) وتكريس مركزية العبادة فى أورشليم مراراً وتكراراً ، وقد

---

(١) امتد حكم منسا من سنة ٦٩٨ إلى ٦٤٣ ق . م ثم تلاه آمون فأعقبه يوشياهو الذى حكم من سنة ٦٤١ إلى ٦١٠ ق . م .

(٢) هذه النظرية تعضد رأينا القائل بكتابة الأسفار الخمسة الأولى من التوراة قبل السبى البابلى .

ورد ذلك على سبيل المثال وليس الحصر فى المحطات التالية :

بعد موت هارون (أول الكهان) واستلام إلعازار ابنه عوضاً عنه (كما يقول السفر) وارتحال الشعب فى أرض التيه إلى يطبات، يقول السفر على لسان موسى فى إصحاحه العاشر :

«إن الرب أفرز سبط لاوى ليحملوا تابوت عهد الرب ولكى يقفوا أمام الرب ليخدموه ويباركوا باسمه إلى هذا اليوم . لأجل ذلك لم يكن للاوى قسم ولا نصيب مع إخوته . الرب هو نصيبه كما كلمه الرب إلهك» .

وعن مركزية العبادة فى أورشليم يقول السفر أيضاً على لسان موسى فى إصحاحه الثانى عشر:

«بل المكان الذى يختاره الرب إلهكم من جميع أسباطكم ليضع اسمه فيه سكناه تطلبون وإلى هناك تأتون وتقدمون إلى هناك محرقاتكم وذبائحكم وعشوركم ورفائع أيديكم ونوافلكم وأبكار بقركم وغنمكم وتأكلون هناك أمام الرب إلهكم وتفرحون بكل ما تمتد إليه أيديكم أنتم وبيوتكم كما باركم الرب إلهكم» .

ويربط السفر بين نصيب اللاوى ومركزية العبادة فيقول فى نفس الإصحاح السابق :

«وتفرحون أمام الرب إلهكم أنتم وبنوكم وبناتكم وعبيدكم وإماؤكم واللاوى الذى فى أبوابكم لأنه ليس له قسم ولا نصيب معكم» .

فإذا كان للاوى نصيب فى الفرحة فى النص السابق فإن نصاً لاحقاً ورد فى نفس الإصحاح يجعل له نصيباً فى الطعام (العدد ١٧ و ١٨) وكان النص أكثر صراحة عندما حدد مقدار هذا النصيب وأضاف إليه النذور والنوافل ورفائع اليد :

«لا يحل لك أن تأكل فى أبوابك عُشر حنطتك وخمرك وزيتك ولا أبكار بقرك وغنمك ولا شيئاً من نذورك التى تنذر ونوافلك ورفائع يدك بل أمام الرب إلهك تأكلها فى المكان الذى يختاره الرب إلهك أنت وابنك وابنتك وعبدك وأمتك واللاوى الذى فى أبوابك» .

.. أنظروا هذه التخريجة الكهنوتية العجيبة التى يستحيل إلا أن تكون من اختراع عقل بشرى مدرب ، يقول سفر التثنية فى إصحاحه الثالث عشر مخاطباً اليهودى (والمفروض أن الكلام لموسى) :

«وتأكل أمـام الرب إلهك فى المكان الذى يختاره ليـحل اسمـه فيـه عُشـر حنطتك وخـمـرك وزيتك وأبكار بقـرك وغنمك لكى تـتعلـم أن تتقـى الرب إلهك فى كل الأيام. ولكن إذا طال عليك الطريق حـتى لا تقـدر أن تحمـله إذا كان بـعيـد عليك المكـان الذى يختـاره الرب إلهك ليجعـل اسمـه فـيه إذ يباركك الرب إلهك فـبعه بفـضة وصـر الفضـة فى يدك واذهب إلى المكان الذى يـختـاره الرب إلهك وانفق الفضـة فى كل ما تشتـهى نفسك فى البقـر والغنم والخمر والمـسكر وكُلّ ما تطلب منك نفـسك . وكُلْ هناك أمـام الرب إلهك وافـرح أنت وبيـتك واللاوى الذى فى أبوابك لا تتركه لأنه ليس له قسم ولا نصيب معك» .

وأعد قراءة النص وانظر هل يمكن أن يصـدر عن الله أمر يدعو فيه عبده لتلبـية شهوات النفس فى بيت عبادته ؟!

والأهم من ذلك كله هو ألا ينسى نصـيب اللاوى الذى صار تاجـراً فيـما بعـد - يبيع الحـمام واليمام والمسكر فى بيت الله (باع الله بفضة) ويشهد على ذلك أيام يسوع المسيح وكلماته .

على أن الدعوة لبركة جبل جرزيم فى النص تتناقض مع مسألـة مركزية العبادة !! والحقيقة أن الأمر كله لا تناقض فيه فكاتبو السفر - كما أسلفنا - هـم المجـموعات التشريعية القادمة من مملكة الشمال (إسرائيل) وكانوا قد استقروا فى مملكة الجنوب يهوذا بعد تدمير مملكتهم وفى يهوذا حولوا القبلة إلى أورشليم وجعلوها مركزاً للعبادة حتى يجتمع إليهم اليهود .

على أن مسألة مـركزية العبادة لم تُعرف حـتى موت موسى (لم يدخل اليهـود الأرض المقدسة حتى موته) بينما الذى فعل ذلك الكهنة فى وقت متأخر .

ويتـواتر ذكـر العـبارات التى تـدعو إلى مكـان محـدد للعـبـادة فى سـفر التـثنيـة فى الأعـداد ١١، ١٢، ١٣، ١٨، من الإصـحاح الثـانى عشـر على أن ذلك يخالف نصـاً صريحـاً ورد فى سـفر الخروج يأمر فيه الرب موسى :

«مذبحاً من تراب توضع لى وتذبح عليه محرقاتك وذبائح سلامتك غنمك وبقرك فى كل الأماكن التى فيها أصنع لاسمى ذكراً آتى إليك وأباركك» (١) .

بل يزيد النص فيأمـر ألا يبنى المذبح من حجارة منحوتة أو مدنسـة ولا يضع عليه درج حتى لا تنكشف عورة الصاعد عليه .

---

(١) خروج ٢٠ : ٢٤ .

فلـماذا يناقض الرب نفسه فى سفر التثنية ويأمر بمركزية العـبادة فى أورشلـيم ؟!

***

ولم يكتف الكهـنة اللاويون بحـقوقـهم المـاديـة أمام الشـعب فـراحـوا يـبحثـون عن المكانـة السيـاسية مـقابل الحاكم عندمـا طلب الشعب قـادة دنيويين (ملـوك) يتملكون عـليه على أن هـذا النوع من الحـكـام لم يعـرف فى اليـهـودية إلا بعـد سنـين طويلة من مـوت موسـى الذى خلفـه القضـاة فى الحكم .

يقول نص التثنية فى إصحاحه السابع عشر :

«وعندما يجلس على كرسى مملكته يكتب لنفسه نـسخة من هذه الشريعة فى كتاب من عند الكهنة اللاويين فتكون مـعه ويقرأ فيـها كل أيام حياته لكى يتـعلم أن يتقى الرب إلهه ويحفظ جميع كلمات هذه الشريعة وهذه الفرائض يعمل بها» .

***

بقى أن نعود لحوادث التـوراة السامريـة ونبحـث أين انتهت حـوادث التاريخ المدونـة فى هـذه التوراة ، لقد انتهت بموت موسى بعد الوصية ليشوع بن نون ، وفى آخريـات هذه التوراة نقرأ :

«وكان عنـد انتهاء مـوسى من كتـابة خطوب التـوراة هذه فى مدرج حـتى كمـالها وصى موسى اللاويين حـاملى صندوق عهد الله قـولاً تسلموا مدرج الشـريعة هذا واجعلوه جانب صندوق عهد الله إلهكم فيكون هناك عليك شاهداً ... أنى علمت خلفك وعرفك القاسى . أنا بحالى حى معكم الـيوم مخالفين كنتم الله فكيف بعد وفاتى» . (١)

وتنتهى التـوراة السامرية وهى تقر : ولا يقوم نبى فـى إسرائيل مثل موسى ، بينمـا تبقى التوراة العبرانية الباب موارباً فتقول : ولـم يقم بعـد نبى فى إسرائيل مثل موسى ، و تستمر أسفارها تروى تاريخ اليهود حتى العودة من السبى البابلى .

وحتى زمن السبى البابلى كان اليهود شبه متفقين على الأسفار الخمسة الأولى من التوراة، وفى السبى لم يحدث اخـتلاط كبير بين أهل يهوذا المسـبيين حديثاً وأهل إسرائيل الذين تم سبـيهم قبل ذلك بسنين كثيرة ومازال هذا الشقاق قائم حتى إبان العودة من السبى نجد ذلك فى دعوة عزرا كاتب التوراة :

---

(١) التوراة السامرية تثنية ٣١ : ٢٤ - ٢٧ ت . أبو الحسن اسحق الصورى .

«فقام رءوس آباء يهوذا وبنيامين والكهنة واللاويون مع كل من نبه الله روحه ليصعدوا ليبنوا بيت الرب فى أورشليم» .[1]

ويهوذا وبنيامين هما السبطان اللذان كانا يسكنان مملكة يهوذا بالإضافة إلى الكهنة واللاويين الذين هربوا من إسرائيل وانضموا إلى تلك المملكة .

ومن ذلك نفهم أن عزرا أثناء السبى كانت له وجهة نظر فى التوراة فأعاد صياغة الأسفار الخمسة الأولى منها وأضاف لها ما أضاف فقبل العبرانيون كتاب التوراة كما رتبه عزرا فى نسخته الأخيرة بينما رفض ذلك السامريون واحتفظوا بنسختهم التى حوت الأسفار الخمسة الأولى قبل تدخل عزرا فيها وعاد من عاد منهم إلى فلسطين يحمل هذه النسخة أو يطوف بها البلاد إلى أن وصلت لنا فى صورتها الأخيرة .

والآن نستطيع أن نجيب على السؤال الذى طرحناه فى البداية فنقول :

إننا سوف نتحدث عن التوراة العبرانية ، توراة الأغلبية اليهودية والتى يؤمن بها العالم المسيحى فيسميها العهد القديم تميزاً لها عن العهد الجديد (الانجيل) وسوف نعتمد فى ذلك على الترجمة البروتستانتية لهذه التوراة رغم وجود بعض الفروق الطفيفة فى هذه الترجمة عن النص الأصلى (العبرى) بما يتوافق مع بعض المعتقدات المسيحية ، وعلى سبيل المثال فسفر التكوين ينص فى افتتاحيته المترجمة على : **«وروح الله يرف على وجه المياه»** .

بينما الترجمة الصحيحة عن النص العبرانى : **«ورياح الله هابّة على وجه الماء»** فالترجمة المسيحية تخدم هنا المعتقد المسيحى فى روح الله القدس .

على أننا لا نستطيع أن نغفل أن هناك ترجمة أخرى للتوراة هى الترجمة اليونانية وهى من أقدم الترجمات وفيها بعض الاختلافات عن الأصلين السامرى والعبرانى ولكن لأن غرضنا ليس المقارنة بين الترجمات ولكن البحث فى النص التوراتى العبرانى الذى وصلنا فسوف نتجاوز سريعاً هذه النقطة ■

---

(١) عزرا ١ : ٥ .

الفصل الثاني

(١) توراة موسى .. وتوراة عزرا

(٢) الوصايا العشر

(١) توراة موسى.. وتوراة عزرا

هناك ناموس وشريعة - لا شك - تركهما موسى نستطيع أن نقول إنهما يمثلان توراته ، وكلمات هذه التوراة الموسوية كانت أقل بكثير مما وصل إلينا الآن وعلى ذلك نستطيع أن نأخذ الدليل من النص الذى بين أيدينا حين يذكر أن موسى طلب من الشعب فى وصيته الآخيرة أنهم حين يعبرون نهر الأردن يشيدون حجارة كبيرة ويكلسونها بالشيد ويكتبون عليها جميع كلمات الناموس نقشاً جيداً (١) كما أن تابوت العهد لم يكن يحوى فى الأساس أكثر من لوحى الحجر الذى نقشت عليهما الوصايا العشر .

وربما اقتصرت توراة موسى على الوصايا العشر التى نقشت على لوحى حجر احتواهما تابوت العهد ونصوص الشريعة التى تخدم قضيتى التوحيد والإيمان .

أما عزرا صاحب التوراة العبرانية فى صورتها الأخيرة فهو رجل صاحب أيديولوچية سياسية دينية كان جل هدفها أن تجمع شتات بنى إسرائيل من النفى فى بلاد العراق ، تجمعهم نفسياً قبل أن تجمعهم عددياً وتقنعهم بالعودة إلى فلسطين - أرض الميعاد - ولكى يجعل عزرا لدعوته تلك أسباباً قوية فقد شرع يجمع للمسبين تاريخاً مقدساً يربطهم بأول الزمان وآخره فيبرز فيه المواعيد المقدسة بين الإله وإسرائيل وفى هذا التاريخ اختلط اللاهوت بالسياسة والحكمة بالأسطورة وفلسفات المدنيات التى تأثر بها اليهود فى تاريخهم .

كان عزرا يجمع الأسفار والمدونات التى يشتبه فى قدسيتها وتتفق مع فكره وتقبل هوى الجماعة اليهودية فينقح فيها ويحذف ويضيف بمقدار ، ولم يلق معارضة حيث كان أكثر الشعب المنفى قد ابتعد عن ديانته وأكثرهم لم يعد يتحدث العبرية بينما عزرا كان قد اشتهر بينهم بأنه كاتب ماهر فى شريعة موسى .

وعلى الأسس السابقة نستطيع أن نفسر ذلك الخليط غير المتناغم فى لغة الأسفار وفى

(١) سفر التثنية ٢٧ : ١ - ٨ .

محتواها ؛ وأما علم اللغة فنتركه لأهله ولننظر فى المحتوى ونحاول أن نناقشه متجردين من الهوى وعلى النص أن يثبت لنفسه القداسة التى يستأهلها أو ينفيها .

نحن أيضاً لن نتمسك بالتفاصيل الصغيـرة ولن تستهوينا جداول المقارنات للأسماء والتواريخ والمواقع الواردة فى الكتاب تلك التى يتمسك بها المهاجمـون ويجهد المدافعون أنفسهم فى البحث عن تأويل لها من منطلق أن النص مقـدس لا يأتيه الباطل من أى الجهات ، ولنبـدأ بحجر الأساس فى التوراة .. الوصايا العشر .

***

(٢) الوصايا العشر

أول ذكر للوصايا العشر تجده فى الإصحاح العشرين من سفر الخروج الذى ينص على :

«لا يكن لك آلهة أخرى أمامى . لا تصنع لك تمثالاً منحوتاً ولا صورة ما مما فى السماء من فوق وما فى الأرض من تحت وما فى الماء من تحت الأرض . لا تسجد لهن ولا تعبدهن لأنى أنا الرب إلهك إله غيور أفتقد ذنوب الآباء فى الأبناء فى الجيل الثالث والرابع من مبغضى وأصنع إحساناً إلى ألوف من محبى وحافظى وصاياى . لا تنطق باسم الرب إلهك باطلاً لأن الرب لا يبرئ من نطق باسمه باطلاً . أذكر يوم السبت لتقدسه ستة أيام تعمل وتصنع جميع عملك وأما اليوم السابع ففيه سبت للرب إلهك لا تصنع عملاً ما أنت وأبنك وأبنتك وعبدك وأمتك وبهيمتك ونزيلك الذى داخل أبوابك لأن فى ستة أيام صنع الرب السماء والأرض والبحر وكل ما فيها واستراح فى اليوم السابع. لذلك بارك الرب يوم السبت وقدسه. أكرم أباك وأمك لكى تطول أيامك على الأرض التى يعطيك الرب إلهك . لا تقتل. لا تزن . لا تسرق . لا تشهد على قريبك شهادة زور . لا تشته بيت قريبك . لا تشته امرأة قريبك ولا عبده ولا أمته ولا ثوره ولا حماره ولا شيئاً مما لقريبك» . (١)

احفظ السبت

ولأن سفر تثنية الاشتراع قد أعاد ذكر نصوص الشريعة فقد كان لابد أن يعيد نص الوصايا العشر وبالفعل وردت تلك الوصايا فى الإصحاح الخامس من هذا السفر بتطابق شبه تام فى كل الوصايا ما عدا الوصية التى تتعلق بتقديس اليوم السابع (السبت) والتى وردت فى نص التثنية على الصورة التالية :

«ستة أيام تشتغل وتعمل جميع أعمالك . وأما اليوم السابع فسبت للرب إلهك . لا تعمل فيه عملاً ما أنت وابنك وابنتك وعبدك وأمتك وثورك وحمارك وكل

(١) سفر الخروج الإصحاح ٢٠ : ٣ - ١٦ .

بهائمك ونزيلك الذى فى أبوابك لكى يستريح عبدك وأمتك مثلك . وأذكر أنك كنت عبداً فى أرض مصر فأخرجك إلهك من هناك بيد شديدة وذراع ممدودة لأجل ذلك أوصاك الرب إلهك أن تحفظ يوم السبت» .

وتندهش ، لماذا هذا الاختلاف فى الوصية المتعلقة بيوم السبت ؟!

لقد أثارت هذه الوصية جدلاً واسعاً لم ينته إلى اليوم وذلك بسبب تطبيق بعض اليهود المتعصبين لها تطبيقاً متشدداً يصل إلى حد أن بعضهم قالوا بأن الله حفظ يوم السبت فى السماء قبل أن يخلق العالم (!!) وإن الله ما اختار اليهود شعباً له إلا ليحفظوا السبت (!!)

ولابد أن نحتار بين نص الخروج ونص التثنية فيما يتعلق بالطقس السبتى ونتساءل لماذا أوصى الله بحفظ السبت ؟ هل لأنه كان يوم راحته بعد أن خلق الدنيا والخلق فى ستة أيام وعلى مثاله يسبت اليهود للتقديس والبركة ؟! أم أن تشريع السبت كان بسبب إخراج الله لليهود من مصر ولذلك أمرهم أن يحفظوا ذلك اليوم ؟!

إن هناك شروحاً أخرى لمسألة السبت فى إطار الأسطورة ، وفرويد العالم اليهودى يميل إلى أن يرى فى الأسطورة تعبيراً عن دوافع لا عقلانية معادية للمجتمع وليس تعبيراً عن حكمة أزمان ماضية ؟! (١)

والطقس السبتى يبدو مقنعاً كإجراء طبيعى اجتماعى صحى يهدف إلى الراحة الجسدية والذهنية التى يحتاج إليها البشر لمواصلة الحياة ، لكن ثمة أسئلة أخرى تفرض نفسها على القضية .. هل كان أمر هذا الطقس ضرورياً إلى الدرجة التى توجب ذكره ضمن وصايا التوراة العشر ؟! ثم ما وجه العلاقة بين هذه الوصية وبين استراحة الرب فى اليوم السابع بعد الخلق ؟! أو التحرر من عبودية مصر ؟!

أما تفسير الطقس السبتى فى إطار الأسطورة فيفترض أن السبت لما كان يوم عطلة عند البابليين وهو يوم خضوع لقوى زحل ، وزحل يرمز إلى الزمن طبقاً لتقليد ميتافيزيقى فلكى قديم (إله الزمن) وعلى هذا فزحل إله الموت ومن يوقف عمل الطبيعة يوماً كاملاً (بالتعطل عن عمل أى شئ) فهو يوقف الزمن ويعطله وبالتالى فإن سبت الكتاب المقدس يرمز إلى انتصار الإنسان على الزمن ويلغى الزمن فينزل زحل عن عرشه ولاسيما اليوم الذى كُرّس له . (٢)

---

(١) أريش فروم – الخطابات والأساطير والأحلام ت . د . صلاح حاتم .

(٢) المرجع السابق ص ١٨٥ .

فهل نستطيع أن نقبل هذا التفسير الأسطورى المنمق لوصية السبت التى طبقت - كما قلنا - بمبالغة قسرية شاذة لطقس كان فى الأصل معقولاً وسليماً أُريد به راحة الإنسان فتحول إلى شئ مزعج للإنسان نفسه .

إن اليهود أنفسهم يعترفون بتأثرهم بالبابليين والمصريين حتى فى أساطيرهم ، وقد يكون هذا الطقس قد تسرب إلى كتابهم المقدس من الحضارة الأولى (البابلية) خاصة وأنهم احتكوا بها سنين طويلة وعاشوا فى كنفها سنين أخرى .

لقد تغلغلت الأسطورة من اليهود وخاصة الرقم سبعة والسبوت حتى إنها دخلت فى صميم التشريعات التى قيل انها إلهية (فيما يتعلق بتحرير العبد العبرانى وراحة الأرض .. إلى أخره) وعلى الأساس السابق أيضاً فسّر الكتاب المقدس مسألة السبى البابلى الذى استمر حوالى سبعين عاماً ، فاعتُبر أن الأرض فى هذه المدة كانت تستوفى سبوتها وهذا مما يتفق مع اعتقادات الكهنة ويحاول أن يُرجع عذابات اليهود لقانون إلهى محكم ويرد هذا فى نهاية سفر أخبار الأيام الثانى الذى يروى فى عجالة كيفية سقوط مملكة يهوذا على يد الكلدانيين (البابليين) إلى أن يقول السفر:

> «وسبى الذين بقوا من السيف إلى بابل فكانوا له ولبنيه عبيداً إلى أن ملكت مملكة فارس . لإكمال كلام الرب بفم أرميا حتى استوفت الأرض سبوتها لأنها سبتت فى كل أيام خرابها لإكمال سبعين سنة» .

ونحن لن نقف طويلاً عند التحليل الميثولوجى للكتاب المقدس حتى لا نتوه عن رسالتنا . ولذلك نعود لباقى الوصايا التسع لنعد قراءتها من خلال النص التوراتى .

لا يكن لك آلهة أخرى أمامى ...

وهى وصية - لا شك - تدعو إلى التوحيد ونبذ الآلهة الأخرى المادية التى انتشرت فى عهد بعثة النبى الرسول موسى سلام الله عليه ، وتمضى الوصية تأمر بنبذ الآلهة المادية المصورة فى التماثيل المنحوتة أو أية صورة أخرى مما فى السماء أو على الأرض أو فى الماء تحت الأرض .. وتمنع الوصية صور العبادة والسجود لهذه الآلهة ثم توضح الجزاء والعقاب المتعلقين بتنفيذ أو ترك الوصية ، أيضاً تأمر الوصية بعدم نطق اسم الإله باطلاً ، وكل ما سبق من مفردات التوحيد الذى هو القضية الأولى والهدف الأول لرسالات السماء ودعوات أنبياء الله ، فهل كرست التوراة فى نصوصها تلك الوصية ؟! والسؤال واضح ، فنحن نسأل

عن النـص وليس البشر ، فـاليهود شعـب تاريخهم حافـل بأيام الكفر والارتداد حتى والنبى الذى بعث فيهم بالشريعة - موسى - بين ظهرانيهم يصنع على أعينهم المعجـزات .

إن الوصيـة لابد تنقلنا إلى صفـات واسم الإله الذى تحدثت عنه التـوراة وقراءة سريـعة للنص التوراتى سوف تدخلنا فى مشاكل عديدة أهمها :

- *هل اليهود قوماً موحدين ؟! وهل كتابهم المقدس خال من الشرك ؟!*

وخذ مثلاً هذا النص المنسوب لنبى الله سليمان يقول فيه :

«والبيت الذى أنا بانيه عظيم لأن إلهنا أعظم من جميع الآلهة» [1] .

وعندما تتساءل التوراة :

«من مثلك بين الآلهة يا رب» .

أو : **«أيها الرب إله إسرائيل لا إله مثلك فى السماء والأرض»** .[2]

إلى أن نصل لهـذا النص المثير للريبـة المنسـوب لنبى الله داود ومـذكور فى المزمـور ١١٠ من الترجمة البروتستانتية للكتاب المقدس ويقول :

«قال الرب لربى أجلس عن يمينى حتى أضع أعداءك موطئاً لقدميك» .

فمن يجلس عن يمين من ؟! ، والعبارة كما تشير الموسوعة اليهودية صعبة على الفهم ، على أن أحد المراجع يفترض أن الخطأ جاء من الترجـمة السبعينية [3] التى ترجمت النص العبرى الرسمى للتوراة إلى اليونانية خـلال القرن الثالث قبل الميلاد ومنها انتقـل الخطأ إلى اللغات الأخرى بحيث أصبح خطأ قطعياً لا عودة فيه . [4]

فهل نستطيع أن نتخذ هذا النص دليلاً على شرك العهد القديم ؟!

لنتروَّ قليلاً فى حكمنا على هـذا الأمر الخطير ونرجع الأمر لخطأ الترجمـة وصعوبة النص على الفهم ولننظر مسألة أخرى .

---

(١) أخبار الأيام الثانى ٢ : ٥ .

(٢) النص السابق ٦ : ١٤ .

(٣) سميت كذلك لأنه أنجزها حوالى سبعين شخصاً .

(٤) التوراة بين الوثنية والتوحيد - سهيل ديب .

ولا شك إله موسى إله توحيد لا علاقة له بإله بنى إسـرائيل العنصرى ، فالإله إله الخلق جميعاً والقول بغير ذلك يفـتح باب الاعتراف بالآلهة الأخرى الوثنية المادية والبشـرية (فرعون كان يدعى الألوهية لنفسه) ولم يصلنا فى التوراة نص محدد يخبرنا عن صفات الإله الذى دعا موسى لعبادته ولكن حـمل النص التوراتى صـفات للإله منثـورة بين السطور وفى ثنايا الحـوادث ؛ ومنها أيـضاً عرفنا أسماءه التى كان أول ظهورها فى سفر التكوين هو «إيل» والكلمة تعنى فى اللغـات السامية (الله) ويقال هى التسمية التى استخـدمها الموحدون الحقيقيون [1] ، فلما اعتقد البعض أن الله أو إيل لابد أن يساوى كل الآلهـة أطلقوا عليه اسم «ايلوهم» وتعنى (الآلهـة) على إننا نجـد أيضاً فى التوراة كلمـة «أدوناى» وتعنى السيد بلغـة الساميين أيضاً وقـيل إنها حلت محل يهـوه فى الكتاب المقدس حين كان الاسم الأخـير محرم نطقه علـى عامة الشعب ، والحقـيقة أن أدونـاى هو الاسم الذى أطلقـه الكنعانيون علـى إلههم «تموز» والذى حرفـه اليونانيـون عندما انتـقل إليهم فـجعلوه «أدونيس» . [2]

لكن هناك نصاً فى سفر الخروج جاء فى موضع تكليف موسى بالرسالة وسؤاله لربه عن اسمه الذى يبلّغ به رسالته فجاوبه الإله قائلاً :

«أهيه الذى أهيه . وقال هكذا تقول لبنى إسرائيل أهيه أرسلنى إليكم» .

على أن العدد الذى يليه مباشرة يأتى باسم جديد للإله عندما يقول - أيضاً - لموسى :

«وقال الله أيـضاً لموسى هكذا تقـول لبنى إسرائيل يهـوه إله آبائكم إله إبراهيم وإله إسحق وإله يعقوب أرسلنى إليكم . هذا اسمى إلى الأبد» .

وهذا ما نجـده فى التـرجمة البروتسـتانتية للتـوراة أمـا فى الترجمـة الكاثوليكيـة فنجـد شـيئـاً آخـر فالاسم فى العبـارة الأولى يتـم استبـداله بصـفـه فـيتحـول من **«أهيـه الـذى أهـيه»** إلـى **«أنا هـو الكائـن»** وتسـتكمل العبـارة على ذلك : **«وقــال كــذا قـل لبنـى إسـرائيـل الـكائــن أرسلنى إليكم»** .

ولا نستطيع أيضاً أن نغفل ترجمة التوراة السامرية التى تثبت اسم الله فى جميع تلك المواضع.

على أن الأمر لم يخلو من اجتهادات أخرى فى الترجمـات الفرنسية والإنجليزية للعهد القديم فيما يتعلق باسم الإله .

---

(١) المرجع السابق .
(٢) نفس المرجع السابق .

لكن من بين كل تلك الأسماء ظل اسم يهوه هو الاسم الأكثر تقديساً حتى أن اليهود حرّموا نطقه على العامة وجعلوا عقاباً صارماً على من يخالف ذلك وقيل إ ن السبب فى ذلك هو اختلاف الاسم حسب الطوائف والقبائل العبرانية الإسرائيلية مما دفع بالزعماء اليهود إلى منع إعطاء الجلالة أية تسمية ريثما يتم الإجماع على واحدة منها [١] .

لكننا لا نستبعد تأثير الكهنة فى هذا الأمر لقصر معرفته عليهم وجعله سراً يتاجرون به على العامة .

ويرجع الباحثون وخاصة (فلهاوزن) فى كتابه عن تاريخ إسرائيل لاسمى الرب يهوه وإيلوهيم أنهما مصدران من مصادر التوراة الأساسية الأربعة [٢] بمعنى أنهما عنوانان على العصر الذى كُتبت فيه أجزاء من التوراة ، فمثلاً المدرسة اليهوية التى يعود إليها الفضل فى تأليف أجزاء التوراة الأولى يسيطر فيها الإله يهوه على الأمور علماً على رب العبريين الوطنى القديم ولغة هذه المدرسة فى التأليف تتسم بالفجاجة والألفاظ المباشرة التى تصف الأفعال وصفاً صريحاً دونما تنميق من مثل :

«فكان أونان إذا دخل على امرأة أخيه أفسد على الأرض لئلا يجعل نسلاً لأخيه» . [٣]

أما أجزاء النص التوراتى التى يسود فيها اسم الإله «إيلوهيم» فهى أكثر عمقاً عندما تعتمد على التثنية والتورية لتوجيه رسالتها ، وعلى الإجمال فيهوه وإيلوهيم هما الإلهين اللذين يسيطرا على سفرى التكوين والخروج بشكل أخص . [٤]

على أن أمانة البحث تستلزم منا ألا نغفل الدفوع المسيحية بخصوص مصادر كتابة التوراة (تأليفها) وأحد المدافعين [٥] اعتبر أن الادعاء بذلك تهمة مع أن هذه (التهمة) قال بها من أطلقوا على أنفسهم دارسى الكتاب المقدس ونشرت على صفحات إحدى المطبوعات المسيحية [٦] ، وهكذا تم تداول القضية داخل أروقة البحث العلمى (المسيحى) ، ويورد أحد المدافعين الاتهام أولاً فيقول :

---

(١) قال بذلك سهيل ديب فى بحثه المشار إليه آنفاً .

(٢) هذه المصادر على التوالى : اليهودى والألوهيمى والتثنوى والكهنوتى .

(٣) تكوين ٣٨ : ١٥ - ١٦ .

(٤) التوراة بين الوثنية والتوحيد - سهيل ديب

(٥) المدافع هو واعظ الأقباط يس منصور .

(٦) الناشر مجلة صديق الكاهن التى يصدرها المعهد الإكليركى للأقباط والكاثوليك .

«أرادوا أدعياء الدراسات الحديثة أن ينسبوا أقوال الله لموسى إلى عدة مصادر لينفوا أن موسى هو كاتبها فادعوا أن الأسفار التى تذكر الله باسم يهوه فى مصدره والتى تذكره تعالى باسم إيلوهيم من مصدر آخر» .

وعلى هذا يرد الكاتب القبطى فيقول :

«إنه ليس أكذب من هذا القول فالله فى سفر التثنية يعبر عنه تعالى باسم «يهوه» واسم «إيلوهيم» على السواء فقوله : اسمع يا إسرائيل ، الرب إلهنا رب واحد هو حسب النص العبرى : «اسمع يا إسرائيل «يهوه» «إيلوهينا» يهوه أحد» .

انتهى دفاع الكاتب القبطى الذى لو نظر قليلاً بعقل مجرد لاكتشف التصرف المسيحى فى النص العبرانى فالترجمة حذفت «إيلوهينا» واستبدلته بـ «إلهنا» للتخفيف من المعضلة أو فى محاولة منها لمعالجة الترقيع الكهنوتى لاسم الإله (يهوه وإيلوهيم) اللذين كانا بالتأكيد قد وصلا للكهنة عند كتابة سفر التثنية فى زمن متأخر قليلاً بعد زمن كتابة سفرى التكوين والخروج ، وهنا أورد الكهنة الاسمين على انهما اسم واحد للإله .

على أن نفس الكاتب القبطى (مجتهداً) حاول أن يجد تخريجة أخرى للأمر فقال فى معرض دفاعه أيضاً ما نصه :

«ويهوه وإيلوهيم اسمان من أسماء الجلالة فيهوه الله بصيغة المفرد للدلالة على وحدانيته تعالى فى الجوهر وإليوهيم بصيغة الجمع للدلالة على تثليث الأقانيم فلا اختلاف» . (١)

وهنا أوجد الكاتب للقضية اليهودية حلاً مسيحياً فأخضع النص التوراتى (العبرانى) قسراً لمعتقده المسيحى فكان فى ذلك مثل الكهنة عندما حاولوا حل المشكلة فقالوا عن الله انه يهوه وإيلوهيم معاً .

***

ومن رحلة اسم الإله نعود مرة أخرى إلى صفاته التوراتية ملتصقين فى ذلك بالنص الذى بين أيدينا دونما التطرق إلى الفلسفات اليهودية التى تأثرت فى وقت متأخر بالنظرة الإسلامية لصفات الذات العلية وإنما الدخول أيضاً فى مقارنات من أى نوع .

فى الإصحاح الثالث العددين ٨ ، ٩ من سفر الخروج نقرأ الآتى :

(١) يس منصور فى كتابه (التوراة فوق الفكر الدينى) .

«وسمعا صوت الرب الإله ماشياً فى الجنة عند هبوب ريح النهار فاختبأ آدم وامرأته من وجه الرب الإله فى وسط شجر الجنة فنادى الرب الإله آدم وقال له أين أنت» .

وبعيداً عن أية إشكاليات للترجمة فالفقرة السابقة تصف مشهداً لا يحتمل التأويل ؛ فيه الرب الإله يمشى ولمشيه صوت ويختبئ آدم من وجهه فيبحث عنه خلف أشجار الجنة بل ويسأله عن مكان إختبائه (!!)

إن إشارات اللغة تنقل للعقل بلا مواربة صفات الإله فهو فى مكان ما من الجنة (حيز) ويمشى ولمشيه صوت فهو (جسم) ويحد بصره الشجر فيحد علمه (بصره وعلمه مقيدان) ... وبعد فالصورة أقرب ما تكون إلى إنسانين يتناوران فى ندية وتشابه (!!)

هذا أول وصف للإله فى التوراة وأول سقطة للنص لم يتم تسديدها فيما بعد لكن أضيف إليها ما يرسخها ويكرسها حتى لو تساءلت النصوص فى الأسفار الأخيرة أسئلة تحاول أن تنفى عن الله صفات الأنسنة والتجسيم .

وتتحرى مثل تلك المشاهد التوراتية ترسم صورة الإله المادية لبنى إسرائيل فى بحثهم الدائم عن هذا الإله المادى ؛ يمسكونه بأيديهم وتلمسه أبصارهم على مثال الشعوب التى جاوروها فتأثروا بوثنيتها :

«ثم صعد موسى وهارون وناداب وأبيهو وسبعون من شيوخ إسرائيل ورأوا إله إسرائيل وتحت رجليه شبه صنعة من العقيق الأزرق الشفاف وكذات السماء فى النقاوة ، ولكنه لم يمد يده إلى أشراف بنى إسرائيل فرأوا الله وأكلوا وشربوا» . (1)

وإليكم أيضاً هذه المجادلة التى أوردتها التوراة ؛ بين موسى والإله تصور الذات العلية وكأنها واحد من شيوخ إسرائيل أو واحد من الشعب :

«وقال الرب لموسى اذهب قد فسد شعبك الذى أصعدته من أرض مصر .... فالآن اتركنى ليحمى غضبى عليهم وأفنيهم ...... فتضرع موسى أمام الرب إلهه وقال : لماذا يا رب يحمى غضبك على شعبك الذى أخرجته من أرض مصر بقوة عظيمة ويد شديدة .

لماذا يتكلم المصريون قائلين أخرجهم بخبث ليقتلهم فى الجبال ويفنيهم عن وجه

---

(1) خروج ٢٤ : ٦ - ١١ .

الأرض ؛ ارجع عن حمو غضبك واندم على الشر بشعبك ..... فندم الرب على الشر الذى قال إنه يفعله بشعبه». [1]

وفى مناسبة أخرى تقول التوراة :

«فاغتاظ موسى جداً وقال للرب لا تلتفت إلى تقدمتهما» . [2]

إن النصوص تعكس المفهوم الأسطورى التوراتى عن شكل الاتصال بين موسى والرب بل تصف التوراة - فى نص صريح - هذا عندما تقول :

«ويكلم الرب موسى وجهاً لوجه كما يكلم الرجل صاحبه» [3].

على أن التوراة لا تنثنى توقعنا فى بلبلة حين تبدو متناقضة فيقول لنا نص تال للنص السابق (فى نفس السفر بل والإصحاح ذاته) حينما يحدث الرب موسى فيقول له :

«لا تقدر أن ترى وجهى لأن الإنسان لا يرانى ويعيش» . [4]

... لكن الأمر يتعلق بمجد الله وبجسمه أما الوجه فلا يصح أن يُرى وهذا أيضاً حسب كلام التوراة فهى القائلة على لسان الرب لموسى :

«وقال الرب هو ذا عندى مكان فتقف على الصخرة ويكون متى اجتاز مجدى أنى أضعك فى نقرة من الصخرة وأسترك بيدى حتى أجتاز ثم أرفع يدى فتنظر ورائى ؛ وأما وجهى فلا يرى» . [5]

فهل هذا الإله يختلف عن إله الآباء إبراهيم ويعقوب ؟!

فيكون مثلاً الآخر إيل والأول يهوه ؟!

ما علينا ، ولكن ليفسر لنا أحد مسألة رؤية نبى الله إبراهيم للإله (كله) بما فيه وجهه وباقى أعضائه ، والقصة التوراتية تقول لنا عن ذلك :

---

(١) خروج ٣٢ : ٩ - ١٤ .
(٢) سفر العدد ١٦ : ١٥ .
(٣) خروج ٣٣ : ١١ والتوراة السامرية تورد هذا النص هكذا : «ويخاطب الله موسى شفاها كما يخاطب الرجل صاحبه» .
(٤) الخروج ٣٣ : ٣٠ .
(٥) خروج ٣٣ : ٢١ - ٢٣ .

«وظهر له الرب عند بلوطات ممرا وهو جالس فى باب الخيمة وقت حر النهار فرفع عينيه ونظر (إبراهيم) وإذا ثلاثة رجال واقفون لديه ؛ فلما نظر ركض لاستقبالهم من باب الخيمة وسجد إلى الأرض وقال يا سيد ... إلى آخره» .

ومن بقية القصة التوراتية نعرف أن الثلاثة أحدهما الرب والآخرين من ملائكته بل أكثر من ذلك أن إبراهيم صنع لهم طعاماً فأكلوا .. والأكل يكون بالفم والفم فى الوجه ... هل نقول أكثر أو هل هناك شك فى أن إبراهيم رأى وجه الإله ؟! وهل هناك تأويل للمسألة غير ذلك ؟!

إن إبراهيم قد عاش بعد تلك الرؤية ولم يمت بل أنجب بعدها إسحق ومن إسحق جاء يعقوب الذى فاقت رؤيته للإله رؤية جده إبراهيم فقد لمسه بيديه فقبض عليه وصارعه فصمد له ولم يقدر الإله عليه (!!)

«فبقى يعقوب وحده ؛ وصارعه إنسان حتى طلوع الفجر ولما رأى أنه لا يقدر عليه ضرب حق فخذه فانخلع حق فخذ يعقوب فى مصارعته معه ، وقال أطلقنى لأنه قد طلع الفجر فقال لا اطلقك إن لم تباركنى ؛ فقال ما اسمك ؟ قال يعقوب ؛ فقال لا يدعى اسمك فى مابعد يعقوب بل إسرائيل لأنك جاهدت مع الله والناس وقدرت» . (١)

لقد حلت هوليوود المشكلة التى لم تستطع التوراة أن تحلها فمخرجوا الأفلام الدرامية التى تناولت سيرة أنبياء العهد القديم ؛ حرصوا فى مشهد ضيوف إبراهيم الثلاثة على أن يستخدموا المؤثر الضوئى فى إخفاء وجه واحد منهم بصفته الإله أما فى مشهد مصارعة الإله ليعقوب فقد ألبسوا الممثل الذى أدى دور (الإله) «ماسك» أسود من رأسه إلى أخمص قدميه فلم يظهر وجهه لكن هوليوود فى أفلامها مع التوراة أعطت صورة للإله تشبه تماماً صورتى وصورتك وصورة أى شخص تقابله فى الطريق أو تجالسه فى المقهى (!!)

***

وهذا ما جاء فى التوراة .. يعقوب يصارع الإله فلا يقدر عليه فقدرة يعقوب إذن تكافئ قدرة ذلك الإله بل وتزيد عليها .. !!

إن النص الذى يجسد الإله بشراً يسلب هذا الإله قدرته على خلقه الذين جبلهم من الأرض

---

(١) تكوين ٣٢ : ٢٢ - ٢٩ .

تراباً ، فأى عقل مريض صور هذا ؟! إن التوراة تكشف دون أن تدرى عن مصدرها الأسطورى التى استشفت منه هذه القصة عندما تقول لنا معقبة فى أعداد تالية :

«فدعا يعقوب اسم المكان فنيئيل قائلاً : لأنى نظرت الله وجهاً لوجه ونجيت نفسى، وأشرقت له الشمس إذ عبر فنوئيل وهو يخمع على فخذه ، لذلك لا يأكل بنو إسرائيل عرق النسا الذى على حق الفخذ إلى هذا اليوم . لأنه ضرب حق فخذ يعقوب على عرق النسا» .

وهكذا تجلت روح الأسطورة وقبل الكهنة تفسيرها لمسألتى تغيير اسم يعقوب إلى إسرائيل ومعناه (عبد الله) وكراهة بنى إسرائيل لأكل عرق النسا من الذبائح ؛ وفوق هذا وذاك فالنص يخدم غرضاً هاماً هو تقريب صورة الإله لعقول الشعب ثم الإعلاء من شأن آباء إسرائيل الأوائل (إبراهيم ويعقوب ثم موسى فيما بعد) وتصويرهم بهذا الالتصاق والقرب الأسطورى من الإله حتى جعلهم أصدقاءه وأنداده يميزهم ويخصهم كما ميز وخص شعب إسرائيل .

وفى هذا السياق لم يكن مستغرباً من التوراة أن توصم الإله بصفات بشرية سلبية من مثل التردد والندم والنسيان :

«فسمع الله أنينهم فتذكر الله ميثاقه مع إبراهيم وإسحق ويعقوب» . (١)

«فندم الرب على الشر الذى قال إنه يفعله بشعبه» . (٢)

وما ندمه إلا على فعل كان قد عزم عليه ثم تردد فعاد عنه ؛ وقصص تردد الإله كثيرة فى التوراة .

على أن هناك صفة أخرى ألصقها اليهود بالإله هى علامة وعنوان على إله اليهود التوراتى وتتناسب تماماً مع نفسية اليهود كرد فعل مضاد لإضطهادهم ومذلتهم على طول التاريخ . لكننا نندهش ونحن نرصد ذلك العنف الدموى وروح الانتقام الشريرة التى تسيطر على تاريخ إسرائيل فهل كان هذا بمعزل عن النص الذى سجل الحوادث بأمانة أم أن هذا العنف وريث للمعتقد الأصولى التوراتى الذى ينقل هذه الصفة للإله فيجعله إله بطش جبار ورب للجنود .

---

(١) خروج ٢ : ٢٤ .

(٢) خروج ٣٢ : ١٤ .

وربما ورد هذا الاسم (رب الجنود) فى كتاب حروب الرب وهو أحد المصادر التى أشارت لها التوراة كمرجع اعتمد عليه الكهنة فى جمعهم للتوراة . فقبلوه عنواناً على الإله فى مرحلة مدهم السياسى وانتصاراتهم الحربية ، فنجد هذا الإله يمد ظله فى الوصايا التى يضعونها فى فم موسى ويذكرها سفر التثنية على أنها من كلامه :

«متى آتى بك الرب إلهك إلى الأرض التى أنت داخل إليها لتمتلكها وطرد شعوباً كثيرة من أمامك ، الحيثيين والجرجاشيين والآموريين والكنعانيين والفرزيين والحويين واليبوسيين . سبعة شعوب أكثر وأعظم منك ودفعهم الرب إلهك أمامك وضربتهم فإنك تحرمهم لا تقطع لهم عهداً ولا تشفق عليهم» . (1)

والقضية هنا ليست قضية إيمان بمعنى أن القتل والتحريم ونزع مواضع الشفقة والرحمة من القلوب لم يكن كل ذلك لأجل تكريس الإيمان بالله أو لأن اليهود يستحقون أن يكونوا أداة الإله لتنفيذ مشيئته فى الأرض ؛ وقد نصت التوراة فى أكثر من موضع أنه شعب عنيد فى الكفر أسخط الرب كثيراً جداً فهل كان الإله يفعل ذلك بسبب إثم تلك الشعوب فأراد أن يستبدلهم بمؤمنين موحدين ؟! أو بسبب بر وإيمان بنى إسرائيل ؟! لا هذا ولا ذاك . إن التوراة تفاجئنا بالسبب حين تقول :

«لكى يفى بالكلام الذى أقسم الرب عليه لآبائك إبراهيم وإسحق ويعقوب» (2)

فعدم بر إسرائيل يساوى إثم هذه الشعوب .

لقد تحولت قضية الإيمان إلى قضية سياسية وملخصها : الإله يخلق هذه الشعوب ليفنيها إسرائيل ويسكن أرضها لأن الإله وعد آباء إسرائيل بذلك (!!) وإله إسرائيل فى ذلك إله عنيد لا يعود فى كلامه (فى هذه النقطة بالذات) حتى لو عصاه إسرائيل وأشرك به فالإله لا يعنيه بر البار ولا فساد المفسد ولأنه إله عنصرى فقد أفرز إسرائيل ابنه البكر . (3)

على أننا نترك أمر العنصرية قليلاً ونستكمل حديث رب الجنود . إن دراسة أسفار التوراة الأولى والأخيرة تعطى لنا مؤشراً على ظهور رب الجنود وزيادة جرعة الشر والانتقام والرغبة فى القتل والإبادة ، فسفر التثنية الذى كتب إبان ضعف تكوين اليهود السياسى بل وتدمير مملكة

---

(1) تثنية ٧ : ١ - ٣ .

(2) تثنية ٩ : ٥ .

(3) لهذا خلقت الشريعة اليهودية أسطورة الابن البكر فى العائلة .

الكهنة الذين دونوا السفر وأغلبهم بالمصادفة من هذه المملكة التى جرى على أهلها الهوان يسقطون رغبتهم الشخصية فى الانتقام على قصص التوراة حتى انهم يعيدون مشاهد سيطرتهم على أرض فلسطين بكثير من العنف المبالغ فيه :

«فاعلم اليوم أن الرب إلهك العابر أمامك نار آكلة . هو يبيدهم ويذلهم أمامك فتطردهم وتهلكهم سريعاً كما كلمك الرب» . (١)

وجعل الكهنة ذلك العنف فريضة ونافلة :

«متى أتى بك الرب إلهك إلى الأرض التى أنت داخل إليها لتمتلكها وطرد شعوباً كثيرة من أمامك .... ودفعهم الرب إلهك أمامك وضربتهم فإنك تحرمهم . لا تقطع لهم عهداً ولا تشفق عليهم ولا تصاهرهم» . (٢)

وفى سفر التثنية أيضاً نجد شريعة حرب رب الجنود فى شكل وصية من الرب يضعها على فم موسى وتقرر :

«حين تقترب من مدينة لكى تحاربها استدعها إلى الصلح فإن أجابتك إلى الصلح وفتحت لك فكل الشعب الموجود فيها يكون لك للتسخير ويُستعبدْ لك . وإن لم تسالمك بل عملت لك حرباً فحاصرها .. وإذا دفعها الرب إلهك إلى يدك فاضرب جميع ذكورها بحد السيف وأما النساء والأطفال والبهائم وكل ما فى المدينة . كل غنيمتها فتغنمها لنفسك وتأكل غنيمة أعدائك التى أعطاك الرب إلهك. هكذا تفعل بجميع المدن البعيدة منك جداً التى ليست من مدن هؤلاء الأمم هنا . وأما مدن هؤلاء الشعوب التى يعطيك الرب إلهك نصيباً فلا تستبق منها نسمة ما بل تحرمها تحريماً : الحيثيين والأموريين والكنعانيين والفرزيين والحويين واليبوسيين» .

إن وصية سفر التثنية السابقة لا شك تخالف وصية أخرى نقشها الله بإصبعه على لوح حجر تقول : لا تقتل ، وهى وصية مطلقة حرمت فعل القتل فى حد ذاته أى حرمت سلب الحياة من الروح التى خلقها الله إنساناً أو حيواناً أو طائراً أو زرعاً فنسختها شريعة التثنية حسب هوى الكهنة وبمعرفتهم . فإذا كان الله قد أوصى موسى أن يبلغ الناس ألا تقتل فمن الذى أوحى إليه

---

(١) تثنية ٩ : ٣ .

(٢) تثنية ٧ : ١ - ٣ .

بعد ذلك بأوامر القتل والاغتصاب والاستعباد والإبادة ؟!

وهى أفعال من شأنها فساد الكون ، كـأن رب الجنود قد جعل إسرائيل ألة لبذر الشر وتمنوا هم على الإله قساوة القلب وروح الانتقام .

وكـما ظهـر رب الجـنود هذا فى أيـام الغـزو الأولـى لفلسطين استـدعـاه عـزرا الكاتب فى الأيام الأخيرة فأخرجه من أدابير الأسطورة لينفـخ به فى صدور الأموات على أرض فـارس لكـى ينهضوا ويعـودوا إلى صهيون لذلك جاء على فم بنى قورح المغنـى وأرميا مثـل هذه العبارات :

«يارب يا إله الجنود اسمع صلاتى واصغ يا إله يعقـوب» . [1]

«..... هكذا قال رب الجنود إله إسرائيل» . [2]

***

ونعود لحديث العنصرية الذى يتواتر على صفحات التوراة بـلا سبب مباشر فى أحيان كثيرة أو مرتبط بمسألة العهد مع الإله :

«أما موسى فصـعد إلى الله فناداه الرب من الجبل قائلاً : هكذا تقول لبـيت يعقوب وتخبـر بنى إسرائيـل إن سمعـتم لصوتى وحـفظتم عهـدى تكونون لى خـاصة من جميع الشعوب فإن لى كل الأرض وأنتم تكونون لى مملكة كهنة وأمة مقدسة» . [3]

وترتفع تلك النبرة التميزية الإلهية أحياناً إلى الدرجة التى يصرح فيه الإله :

«وأعدك الرب اليـوم أن تكون له شعـباً خـاصاً وأن يجعلك مـستـعلياً على جـميع القـبائل الـتى عملهـا فى الثناء والاسم والبـهـاء وأن تكون شـعبـاً مـقدسـاً للرب إلهك» . [4]

إن نص التثنية بالتحديد هو الذى رسخ مفهوم العنصرية فى التوراة وحوله إلى عنصرية سياسية دينية تربط بين هذا الـتفضيل والوعـد بإرث الأرض الذى قال النص التـوراتى إن الإله منحه لآباء إسرائيل دونما سـبب عقلانى ، إنما لسـبب وجدانى صريـح هو تمييز الإله وفـرزه لإسرائيل من بين

(1) مزمور ٨٥ لإمام المغنيين لبنى قورح .
(2) أرميا : ٤٤ .
(3) سفر الخروج ١٩ : ١٣ - ٦ .
(4) تثنية ١٤ : ٢ .

خلقه فإذا أسقط إسرائيل الشرط الذى يخصه فى هذا التعاقد فإن الإله يعاقبه لكنه أبداً يندم على ذلك .

***

ويبدو أن ذكر الندم سوف يجرنا لسرد قصة الملك آخاب ملك إسرائيل (مملكة الشمال) والواردة فى سفر الملوك فى إصحاحه الحادى والعشرين ... وفى هذه القصة يقرر الرب للنبى إيليا التشبى أنه سوف ينتقم من آخاب هذا بسبب آثامه وشروره ويبعث رسالة بهذا المعنى لآخاب الظالم يضعها على فم إيليا وهى رسالة قاطعة لا تحتمل التأويل أو تحمل أية إشارة للعفو المبنى على علم الإله المطلق فى خلقه :

«فكان كلام الرب إلى إيليا التشبى قائلاً : قم انزل للقاء آخاب ملك إسرائيل الذى فى السامرة .... ثم كلمه قائلاً : هكذا قال الرب فى المكان الذى لحست فيه الكلاب دم نابوت تلحس الكلاب دمك أنت أيضاً» . [1]

لكن فجأة يعود الرب فى قراره فيقول لإيليا :

«هل رأيت كيف اتضع آخاب أمامى فمن أجل أنه قد اتضع أمامى لا أجلب الشر فى أيامه بل فى أيام ابنه أجلب الشر فى بيته» . [2]

إن إله الكهنة هذا إما ناقص علم ولذلك هو متسرع وإما أنه متردد إلى الحد الذى يقرر فيه الشىء ثم ينكث عنه فيدور ويناور ويعود من حيث بدأ وهو فى ذلك يحاول أن يسد ثغرات التاريخ والأحداث (حاشا لله أن يكون ذلك من صفات رب العالمين) .

وبعد .. فإن الإله العنصرى الذى تتحدث عنه التوراة رب إقليمى خاص بإسرائيل فى الزمان والمكان مبعوث فيها ولها ومن يطلبه فليذهب إليه هناك . وفى قصة نعمان رئيس جيش الآرميين دليل على ما ندعى ، والقصة وردت فى الإصحاح الخامس من سفر الملوك الثانى تحكى حكاية نعمان هذا الذى أصيب بالبرص [3] فدلته فتاة يهودية صغيرة (أَمَة فى بيته) أن يذهب للنبى الذى فى السامرة يطلب الشفاء ، وبعد قليل من الحكاية يصل القائد الآرامى لإليشع بناء على طلب الأخير (حتى يعلم هذا القائد أنه يوجد نبى فى إسرائيل ، ويوصى إليشع

---

(١) الملوك الأول الإصحاح ٢١ .

(٢) المصدر السابق نفس الإصحاح .

(٣) البرص من الأمراض الأسطورية فى اليهودية وسوف يرد توضيح ذلك لاحقاً .

المريض بالذهاب للاغتسال فى نهر الآردن سبع مرات ، وعندما يفعل الرجل يشفى لحمه ويعود (كلحم صبى صغير ويطهر) والقصة لم تنته عند هذا الحد فمازال لها مغزى توراتى سوف ندركه حالاً :

إن القائد الآرامى يعود للنبى ليعترف له :

«قد عرفت أنه ليس إله فى كل الأرض إلا فى إسرائيل» . [1]

وما سبق لابد أن ينقلنا إلى مناقشة ذلك المعتقد التوراتى الذى يقرر أن الإله يسكن مكاناً معيناً فى السماء ، ففى سفر الملوك الأول الإصحاح الثامن تتردد عبارة : **«السماء مكان سكناك»** أكثر من مرة وفيها يطلب صاحب الدعاء - الذى تقول التوراة إنه النبى سليمان - من الله أن يسمعه من مكانه فى السماء (مكان سكناه) على أن الاعتقاد السابق لا يتعارض فى الحقيقة مع اعتقاد التوراة؛ أيضاً فى أن الإله يحل فى بيته (بيت الرب وخيمة الاجتماع) فيسكن إلى حين وهو تطوير للاعتقاد الذى ساد فى أسفار التوراة الأولى ويجسد الله فيجعله ينزل إلى الأرض أحياناً لأجل مهمة محددة ينجزها ثم يعود إلى السماء (فى قصة مصارعة يعقوب طلب أن يعود قبل أن يشرق الصباح) ، وعلى لسان سليمان تقول التوراة :

«قال الرب إنه يسكن فى الضباب وأنا بنيت لك بيت سكنى مكاناً لسكناك إلى الأبد» . [2]

وتخبرنا التوراة أن داود هو القائل :

«قد أراح الرب إله إسرائيل شعبه فسكن فى أورشليم إلى الأبد» . [3]

وإلى داود أيضاً نسبت التوراة :

«يا أخوتى وشعبى كان فى قلبى أن أبنى بيت قرار لتابوت عهد الرب ولموطئ قدمى إلهنا». [4]

وقبل بناء هيكل أورشليم الذى أنجز فى عهد سليمان كان هناك البيت القديم الذى بناه موسى بمواصفات قالت التوراة إنها صادرة عن الإله فهى إذن مواصفات مقدسة . ولم تكتف النصوص

---

(١) وبقية القصة فيها كثير من الأسطورة وروح التأليف البشرى وتنتهى بأن يلصق النبى إليشع مرض نعمان على فتى من فتيانه إلى الأبد وتجدها فى الملوك الثانى الإصحاح الخامس .

(٢) أخبار الأيام الثانى : ٦ .

(٣) أخبار الأيام الأول ٢٣ : ٢٥ .

(٤) الإصحاح السابق العدد ٢٨ .

بهيكل البيت لكن تعدته فوصفت وحددت مقاييس ومعادن كل الأدوات المقدسة المكملة وكذا تابوت العهد وغطاءه والكروبين الذين عليه حيث يجتمع الله بموسى فيكلمه من على الغطاء من بين الكروبين إلى آخر هذا الأمر ..

وما بين تاريخ كتابة الأسفار الأولى سفرى التكوين والخروج ، والأسفار الأخيرة التى دونها عزرا مثل أخبار الأيام . كان قد حدث تطور فى الديانة اليهودية وبالتالى تطورت النظرة إلى الإله ، ولذلك فقد حاول عزرا أن ينثر بعض العبارات التى تنفى عن الإله الاحتواء فى مكان معين هو هيكل أورشليم ؛ فعلى لسان سليمان تقول التوراة :

«ومن يستطيع أن يبنى له بيتاً لأن السموات وسماء السموات لا تسعه ومن أنا حتى أبنى له بيتاً إلا للإيقاد أمامه» .

إن تردد التوراة فى هذه النقطة لا يخفى على أحد وتظهره هى عندما تضع سؤالاً فى فم سليمان يقول :

«هل يسكن الله حقاً مع الإنسان على الأرض» . [1]

والحقيقة أن للكهنة دوراً فى تلك البلبلة لصرف وجه الناس إلى التقدمات وإغراق التقربات للإيقاد للإله الذى يتعشق رائحة الشواء (تقدمات السرور) حتى إنهم جعلوا الإله يتدخل فيحدد مقادير وأنواع وطرق القرابين المقدمة له من الذبائح والأطعمة (!!)

وتتركنا نصوص التوراة وفى حلقنا سؤال نغص به : هل كان الإله يحل بذاته فى بيته أم بروحه ، أم أن بهاء الله هو الذى كان يحل فى البيت كما يقول الإصحاح الأخير من سفر الخروج . إنها مشكلة أخرى تشبه مشكلة رؤية الله التى صادفتنا مع إبراهيم ويعقوب وموسى والتى تتركنا التوراة فيها لاجتهاداتنا .

لكننا نستطيع أن نفسر الأمر بجلاء إذا اكتشفنا ما كان يجرى فى بيت الرب على يد الكهنة واللاويين ، وما يحدث كان شيئاً مثيراً للسخرية ويكفى أنه حوّل بيت الرب إلى بيت لشهوات الكهنة واللاويين بل والشعب ، حدث هذا قبل بعثة النبى عيسى بن مريم بسنين كثيرة حتى جاء يجاهدهم فى ذلك ، ولا تخجل التوراة أن تخبرنا بشئ من ذلك وهى تفند وظائف الكهنة واللاويين :

«وبعضهم على آنية الخدمة لأنهم كانوا يدخلونها بعدد ويخرجونها بعدد .

---

(١) أخبار الأيام الثانى ٦ : ١٨ .

ويعضـهم أؤتمنوا على الآنية وعلى كل أمتعة القدس وعلى الدقيـق والخمر واللبـان والأطياب والبعـض من بنى الكهنة كانوا يركّبون دهــون الأطياب ومتثيا واحد من اللاويين وهو بكر شلوم القائـم بالوظيفة على عـمـل المطبوخات والبعـض من بنى القهاتين من إخوتهـم على خبـز الوجوه ليهيـؤه فى كل سبت» . (١)

.. وبعد فهل تسـتغرب بعد أن أنزل الكهنة واللاويين الإله من عـليائه إلى الأرض ؛ أن نجد فى التـوراة من البشـر العاديين من يحـادث الإله بسـوء أدب ؛ من مثل إيثـان الأزراحى المنسوب إليـه المزمور التاسع والثمانين ويقول فيه للإله :

«لكنك رفضت ورذلت . غضبت على مسيـحك . نقضت عهد عبدك . نجست تاجـه فى التراب . هدمت كل جـدرانه . جعـلت حصـونه خراباً . فـرّحت جميـع أعدائه . أيضاً رددت حد سيفه ولم تنصره فى القتال . أبطلت بهاءه وألقيت كرسيه إلى الأرض . قصّرت أيام شبابه . غطيته بـالخزى . سلاه . حتى متى يا رب تختبئ كل الاختباء» . (٢)

- لا تقتل.. لا تزن.. لا تسرق

ومن القـتل الجمـاعى (الإبادة والتـحريم) الذى أقـرته التوراة لبنى إسـرائيل فـجعلتـه دسـتـوراً لحروبهم مع الآخرين ، إلى حد القتل الذى يطبق على الإنسان جزاء لجرم ارتكبه .

والمفروض أن هناك - دائمـاً - تشريعاً يحمل حكمـة أخلاقية جعـلها الخالق سبـباً قوياً لسلب الروح من المخلوق فـيكون الأمر بإذنه حـماية للحـياة من الفـساد والشـر . ولابد لهذا السـبب أن يتناسب مع تلك العقوبة الغليظة .

لكن مـاذا لو انقلب هذا السبب الأخـلاقى إلى سبب لا أخـلاقى فى جوهره ؟! أو إلى سـبب ملفق ؟!

هل يكون الله هو الآمر فى هذه الحالة ؟!

والأصل فى العقوبة الردع بمعنى التخويف من إتيـان الجرم لكن إن جاء تشريع وحمل فى ذاته

---

(١) أخبار الأيام الأول ٩ : ٢٨ .

(٢) مزمور ٨٩ : ٣٨ - ٤٦ .

سبباً لنسخه بمعنى أنه أوجد ثغرة يفلت منها المجرم فهل يستوفى هـذا التشريع الغرض الذى شُرّع من أجله ؟!

وإن قال البعض إن فى ذلك مجالاً للرحمة فنحن نقول إن الرحمة تكمن فى تطبيق الحد وليس فى الإفلات منه لأن تطبيقه على المجرم سيجعل ألف واحد غيره يفكرون كثيراً قبل الإقدام على جريمتهم ولو أيقن هؤلاء أن فى التشريع ما يتيح لهم الإفلات - بجريمتهم - من العقاب فلن يترددوا كثيراً .

أما تشريع التوراة فيما يتعلق بعقوبة القتل فنجدها فى الإصحاح الحادى والعشرين من سفر الخروج تنص على الآتى :

«من ضرب إنساناً فمات يقتل قتلاً . ولكن الذى لم يتعمد بل أوقع الله فى يده فأنا أجعل لك مكاناً يهرب إليه [1] ، وإذا بغى إنساناً على صاحبه ليقتله بغدر فمن عند مذبحى تأخذه للموت ، ومن ضرب «أباه أو أمه» يقتل قتلاً ، ومن سرق إنساناً وباعه أو وُجد فى يده يقتل قتلاً ، ومن شتم «أباه أو أمه» يقتل قتلاً ، وإذا تخاصم رجلان فضرب أحدهما الآخر بحجر أو بلكمة ولم يقتل بل سقط فى الفراش فإن قام وتمشى خارجاً على عكازه يكون الضارب بريئاً ، إلا أن يعوض عطلته وينفق على شفائه ».

والشريعة السابقة تكاد تكون متسقة مع المبدأ التشريعى (اليهودى أيضاً) العين بالعين والسن بالسن ، لكن النص لا يمضى إلى نهايته متمسكاً بتلك الشريعة فهو ينحرف فى الأعداد التالية حين ينص على :

«وإذا ضرب إنسان عبده أو أمته بالعصا فمات تحت يده ينتقم منه لكن إن بقى يوماً أو يومين لا ينتقم منه لأنه ماله» .

.. كيف ؟!

لقد تحولت الشريعة تحولاً تاماً عندما تعاملت مع الغريب (غير اليهودى) ولو قال قائل إن العبد يحتمل أن يكون غريباً أو يهودياً فمردود عليه بأنه على الرغم من أن الشريعة اليهودية لم تنه عن استعباد اليهودى لليهودى فإنها جعلت نظاماً لتحريره وهو مرور ست سنوات على بقائه فى

---

(١) هذا المكان يسمى مدن الملجأ وإليها يلجأ القاتل على سبيل الخطأ والنصوص التوارتية حددت تلك المدن تبعاً لتقسيم الأرض بين الأسباط الاثنى عشر .

عبوديته بل وحثت التوراة على اعتبار العبد العبرانى أخاً لسيده الذى يملكه وعليه أن يعامله على هذا وأوصى الإله فى التوراة بإطلاق العبيد العبرانيين أحراراً [1].

وعلى هذا فقد تعاملت الشريعة مع هذا العبد (الغريب) على أنه شيء مادى لسيده حق التصرف فيه كيف يشاء كأى متاع من أمتعته حتى مسألة الانتقام من السيد فى حالة ضربه لعبده ضرباً يفضى به إلى الموت جعلتها التوراة مفتوحة متروكة لتقدير الأسياد فالعبيد لا يقررون شيئاً لأنفسهم وبالتالى فهى عرضة للصدفة والتجاهل ؛ فإذا بقى هذا العبد على قيد الحياة ولو لساعات قليلة بعد الضرب فقد أُهدر دمه تماماً لأن النص نسخ العقوبة ودمرت الشريعة أساساً أخلاقياً للتعامل بين البشر .

ونجد الشريعة تصر على هذا المبدأ الهمجى عندما تقرر باقى العقوبات التى تتعلق بأذى إنسان فتقرر أولاً (بالنسبة للحر) .

«وإن حصلت أذية تعطى نفساً بنفس وعيناً بعين وسناً بسن ويداً بيد ورجلاً برجل وكياً بكى وجرحاً بجرح ورضا برض» .

ثم يأتى العدد التالى فيقرر على العبد والأمة ما يلى :

«وإذا ضرب إنسان عين عبده أو عين أمته فأتلفها يطلقه حراً عوضاً عن عينيه وإن أسقط سن عبده أو سن أمته يطلقه حراً عوضاً عن سنه» .

وعلى هذا لا نستغرب سيرة اليهود (المقدسة) المليئة بحكايات التسخير البشعة لأسراهم وعبيدهم من غير العبرانيين هذا إذا أفلتوا من الموت والتمثيل بجثثهم والسيرة المقدسة تحكى لنا الكثير من تلك المشاهد الدموية :

«فقال يشوع افتحوا فم المغارة وأخرجوا إلىّ هؤلاء الخمسة الملوك ... وكان لما أخرجوا أولئك الملوك .. أن يشوع دعا كل رجال إسرائيل وقال لقواد رجال الحرب الذين ساروا معه تقدموا وضعوا أرجلكم على أعناق هؤلاء الملوك . فتقدموا ووضعوا أرجلهم على أعناقهم .. وضربهم يشوع بعد ذلك ونقلهم وعلقهم على خمس خشب وبقوا معلقين على الخشب حتى المساء» . «وضربوا الكنعانيين والفرزيين فهرب أدونى بازق فتبعوه وأمسكوه وقطعوا «أباهم يديه ورجليه».

---

(1) انظر أرميا ٣٤ : : ٨ - ٩ .

«فقال جدعون (أحد قضاة إسرائيل) لذلك عندما يدفع الرب زبح وصلمناع بيدى أدوس لحمهم مع أشواك البرية بالنوارج» .

«وأما أمصيا (أحد ملوك يهوذا) فتشدد واقتاد شعبه وذهب إلى وادى الملح وضرب من بنى ساعير عشرة آلاف وعشرة آلاف أحياء سباهم بنو يهوذا وأتوا بهم إلى رأس سالع وطرحوهم على رأس سالع فتكسروا أجمعين» .

ولعل ما سبق فيه الكفاية وإن كان قليل من كثير امتلأت به صفحات التوراة ..

ومن القتل ننتقل إلى حديث الزنا .

..لا تــــزن

ولقد وردت الشريعة الأولى فى سفر الخروج تنهى عن فعل الزنا لكنها لم تناقش تفاصيل تلك الجريمة ولا عقابها مثلما فعلت مع باقى الجرائم التى ورد تحريمها ضمن الوصايا العشر ، وتدارك الكهنة ذلك الأمر فأوردوه فيما بعد فى نص التثنية وبالتحديد فى إصحاحه الثانى والعشرين وبكثير من التفاصيل أهمها رجم الزانى والزانية بالحجارة إذا كانا محصنين (متزوجين) والزواج من الفتاة المزنى بها مع تعويض أهلها بالمال إذا كانت غير مخطوبة ولا يحق للرجل فى هذه الحالة طلاق تلك المرأة مدى حياته وينتهى الإصحاح بتحريم زوجة الأب وكشف ذيله .

وإذا كانت تلك هى العقوبات التى وردت فى التوراة فإن هناك عقوبات أخرى أخذ بها بنو إسرائيل قبل شريعة موسى ومنها حرق الزانى والزانية وهى عقوبات مشددة كما نرى .. لكن هل أخذ إسرائيل بهذه العقوبات ؟ إن التوراة تخبرنا فى أكثر من موضع عن تجاوز بنى إسرائيل عن هذه الشريعة بل وآبائهم الأولين ، وأخبرتنا التوراة عن قصص زناهم دونما هدف أخلاقى واضح إلا ادعاء صدق حديثها بل مجدت التوراة إحدى الزانيات فكادت تضعها فى مصاف القديسات لمجرد أنها ساعدت جواسيس إسرائيل فخبأتهم ونالت المكافأة لكنها ظلت موصوفة بصفتها «راحاب الزانية» التى لم تفارقها إلى الأبد فكان كل مجدها أنها ساعدت إسرائيل وبسبب الخوف خانت أهلها .

ثم ماذا عن القديستين استير ويهوديت ؟!

لقد أفردت لهما التوراة سفرين على اسميهما تحكيان كيف استخدمتا الجمال والغواية بالجسد فى إنقاذ شعب اليهود (لا يخجل سفر يهوديت من التصريح بذلك) والصفحات التالية سوف

نورد تفاصيل ذلك .

لكن ما يستوقفنا كثيراً هو اتهام التوراة لأنبياء إسرائيل وآبائها الأولين باقتراف جريمة الزنا والوقوع فيها مع المحارم فى كثير من الأحيان ، فهذا نبى الله لوط ، ادعت عليه التوراة أن ابنتيه زنتا به ، وهذا يهوذا بن يعقوب أحد الأسباط الأثنى عشر قالت التوراة إنه زنى بكنته (زوجة ابنه) ، والنبى داود قالت عنه التوراة أيضاً إنه زنى بزوجة أحد جنوده (يوريا الحثى) ، واتهمت ابنه بالزنى مع أخته غير الشقيقة ؛ والعجيب فى القصة الأخيرة أن نصوص التوراة وصفت من حرض ابن داود - فسهل له فعل الزنا - بالحكمة :

«وكان لأمنون صاحب اسمه يوناداب بن شمعى أخى داود وكان يوناداب رجلاً حكيماً جداً فقال له لماذا يا ابن الملك أنت ضعيف هكذا من صباح إلى صباح أما تخبرنى ، فقال له أمنون إنى أحب أختى ثامار أخت أبشالوم أخى ، فقال يوناداب أضطجع على سريرك وتمارض وإذا جاء أبوك ليراك فقل له دع ثامار أختى فتأتى وتطعمنى خبزاً وتعمل أمامى الطعام لأرى فآكل من يدها».(١)

وهكذا رسم الصديق (الحكيم جداً) خطة لصديقه لينفرد باخته ويفترسها ، ومهما كان الاحتجاج بأن النص ليس فى لغته الأصلية وربما يكون للترجمة دخل فى وصف هذا الصديق (راسم خطة الاغتصاب) بالحكمة ففى كل الحالات لا يمكن أن يكون الوصف غير حسن وإلا ما استخدمت الترجمة لفظ الحكمة مرادفاً له .

ومن القصة نفهم أنه لم يكن فى هذا الوقت يحرم اليهود زواج الأخ من الأخت غير الشقيقة حيث جاء على لسان ثامار لأخيها (غير الشقيق) : **«والآن كلم الملك فإنه لا يمنعنى منك»** على الرغم من أن الشريعة التى نزلت على موسى تحرم ذلك وهى سابقة على زمن داود .

«عورة أختك بنت أبيك أو بنت أمك المولودة فى البيت أو المولودة خارجاً لا تكشف عورتها»... (!!) (٢)

ونعود لسيرة يهوذا فنقرأ قصة وقوعه فى خطيئة الزنا كما وردت فى سفر التكوين ، تقول :

«فنظرها يهوذا وحسبها زانية لأنها كانت قد غطت وجهها فمال إليها على الطريق وقال هاتى أدخل عليك ، لأنه لم يعلم أنها كنته ، فقالت ماذا تعطينى لكى تدخل

---

(١) صموئيل الثانى ١٣ : ٣ .

(٢) لاويين ١٨ : ٧ .

عليّ ؟ فقال إنى أرسل جدى معزى من الغنم فقالت هل تعطنى رهناً حتى ترسله ، فقال ما الرهن الذى أعطيك ، فقالت خاتمك وعصابتك وعصاك التى فى يدك ، فأعطاها ودخل عليها فحبلت منه ثم قامت ومضت وخلعت عنها برقعها ولبست ثياب ترملها» .

وتمضى القصة فى أحداثها فتروى لنا أن يهوذا أرسل يبحث عن المرأة التى زنا بها ليعطيها أجرها ويأخذ رهنه فلم يجدها ، وبعد حين أخبروه أن كنته (زوجة ابنه) زنت فحبلت من زناها فكان رد يهوذا على ذلك أن أخرجوها فتحرق بالنار ، وما كادوا يفعلون حتى أرسلت المرأة إلى حميها الرهن الذى تحتفظ به ومعه رسالة : **«من الرجل الذى هذه له أنا حبلى»** ، ولما تحقق يهوذا من أن الرهن له أدرك أنه الفاعل فقال : **«هى أبر منى»** (!!) .

ومن الزنا ولدت كنة يهوذا فارص وزارح ومن الاثنين جاء النسل الذى ينسب إليه نبى الله داود (!!)

وهناك ملاحظة شكلية فى قصتى كنته يهوذا وابنة داود وهى أن كلتيهما تدعى (ثامار) فهل هذه مجرد مصادفة أم أنه من فعل الأسطورة (ما علينا فى هذه) لكننا سوف نضطر أيضاً فى قصة زنا يهوذا أن يعود إلى التشريع التوراتى الذى يقول :

«لايدخل ابن زنا فى جماعة الرب حتى الجيل العاشر لا يدخل منه أحد فى جماعة الرب».(1)

فهل تم تطبيق الشريعة على ذرية يهوذا ؟! لم يحدث بالطبع وتعاملت التوراة مع تلك الذرية على أساس أنها من جماعة الرب ومنها جاء داود (من الجيل الثامن) لذرية فارص ابن الزنا .(!!)

ومن بين الأسباط الأثنى عشر لم يكن يهوذا الوحيد الزانى بين أخوته لكن كان هناك آخر زنا أيضاً بأحدى محارمه (حليلة أبيه) وعن ذلك يخبرنا سفر التكوين :

«وحدث إذ كان إسرائيل ساكناً فى تلك الأرض أن رأوبين ذهب واضطجع مع بلهة سرية أبيه. وسمع إسرائيل» .

وللتذكير فإسرائيل هو يعقوب النبى ولنا أن نسأل ماذا فعل نبى الله حيال هذه الفعلة الشنعاء التى أتاها أحد أبنائه ؟! لا شىء .. لقد سكت يعقوب وسكت النص فلم يعقب وهنا لنا أن نسأل بلا ملل ولا كلل :

---

(1) ٢٣ : ٢ - ٣ .

ما هو المغزى الأخلاقى الذى تشير له هذه القصص التوراتية ؟!

أهى دليل عملى للأجيال اليهودية يقدمها لهم آباؤهم الأولون .

لقد ألقت التوراة كرة الخبث فى وجوهنا ثم سكتت .

إنها التوراة نفسها التى لم تتورع عن أن تصف أبى الأنبياء إبراهيم سلام الله عليه بأنه ديوث (حاشا لله أن يكون كذلك) يتاجر بزوجته بل قالت إنه فعلها أكثر من مرة ليس هو فقط بل ابنه النبى إسحق سلام الله عليهما ... يقول لنا سفر التكوين :

إن إبراهيم الذى كان اسمه فى ذلك الوقت إيرام قد انحدر إلى مصر ليتغرب لأن الجوع فى الأرض كان شديداً ، وتمضى القصة التوراتية تخبرنا أنه لما قرب أن يدخل مصر (إبرام) قال لساراى (سارة) امرأته : إنى قد علمت أنك امرأة حسنة المنظر فيكون إذا رآك المصريون أنهم يقولون هذه امرأته فيقتلوننى ويستبقونك ، قولى إنك أختى ليكون لى خيراً بسببك وتحيا نفسى من أجلك» . (١)

وأمام الجملة الأخيرة نتوقف قليلاً ونعيد القراءة ولو عددناها ألف مرة فليس للكلام إلا معنى واحداً : الرجل يبيع زوجته درءاً للشر وجلباً للمنفعة فى غير ثقة منه فى أن هناك إله هو الذى ينفع ويضر ، هو القاضى ولا راد لقضائه .

أو ليس هذا أكثر اتساقاً مع نفسية نبى ؟! أو هل يصح أن يضع الله فى قلب هذا النبى وفى فمه - بعد ذلك - كلام وحيه ويأتمنه على تبليغ رسالته ؟!

إن ما يدعونا لليقين فى أن الحكاية كلها ملفقة أو هى وليدة الأسطورة أنها تكررت بنفس تفاصيلها - تقريباً - مرتين فوق الأولى ، فتدعى التوراة أن نبى الله إبراهيم قد فعلها مرة أخرى مع ملك أخر هو إبيمالك ملك جرار :

«وقال إبراهيم عن سارة امرأته هى أختى فأرسل إبيمالك ملك جرار وأخذ سارة» . (٢)

والمرة الثالثة التى تكرر فيها مثل هذا السيناريو التأليفى الردىء كان فى قصة النبى إسحق ابن النبى إبراهيم سلام الله عليهما :

«وسأله أهل المكان عن امرأته فقال هى أختى لأنه خاف أن يقول امرأتى لعل أهل

---

(١) القصة مذكورة فى تكوين : ١٢ .

(٢) تكوين ٢٠ : ٢ .

المكان يقتلوننى من أجل رفقة لأنهـا كانت حسنة المنظر ، وحدث إذ طالت له الأيام هناك أن أبيـمالك ملك الفلسطينـيين أشرف من الكـوة ونـظر وإذا إسـحق يلاعب رفـقة امـرأته . فـدعا إبيـمـالـك إسحــق وقــال إنما هى امـرأتك فكيف قلت هى أختى؟ فـقـال له إسـحق لأنى قلـت لعلى أمـوت بسببـها ؛ فقـال إبيمـالك ما هذا الذى صنعت بنا . لولا قليـل لاضـطجع أحد الشـعب مع امرأتـك فـجلبـت علينا ذنباً».(١)

وفى هـذه القصـة الأخـيرة نلاحـظ أن التفاصـيل تغـيرت قليلاً فاستبدل الراوى الملك الطامع فى زوجـة إبراهيـم بالشـعب الطامـع فى زوجـة إسـحـق ! وعلى هذا فـلم تدخـل رفقـة قـصر الملـك ولم يشتهيها الآخير لنفسه إنما كان خوفـه من أن يقترف واحـد من الشعب جريمة الزنـا مـع حليلة إسحق...

والملحـوظة التى لا تخـفى على نظر أحد أن إبيـمـالك بطل قصـة إبراهيم قـد عـاش كل هـذا العـمر لتـشاء الصـدف أن يتكرر الأمـر برمتـه مع إسحق ابن إبراهيـم بعد سنوات عـديـدة وهى مصادفة درامية فجة !!

ولعل السيرة الشعبية التى نقلت التوراة من مـدوناتها لم تقبل تلك القصص على أنها من قبيل الطعن فى سيرة النبـيين (إبراهيم وإسحق) بل على العكس قد تكون هذه القـصص قد قُبلت على أنها تعلى من شأن هذين النبيين وتضيف على سيرتيـهما مزيداً من المعجزات ، ففى الحكاية الأولى ضرب الرب فرعون وبيـته ضربات عظيمة بسبب سـاراى (سارة) امرأة إبراهيم على الرغم من أن فرعون لم يكن يعلـم أن المرأة زوجـة أحد ! ، وفى المرة الثانية جاء الله إلى إبـيمالك فى حلم الليل يخبره أنه مـيت من أجل المرأة التى أخذها فهى متزوجـة ببعل .. ثم تمضى الحكاية التى لا يمكن أن يتخيل تفاصيلها عقل سليم تقول :

«ولكن لم يكن إبيمالك قد اقترب إليها ، فقال : يا سيد أأمه بارة تقتل ، ألم يقل هو إنها أختى وهى أيضاً نفسها قالت هو أخى ، بسلامة قلبى ونقاوة يدى فعلت . فقال الله له فى الحلم أنا أيضاً علمت انـك بسلامة قلبك فعلت هذا وأنا أيضـاً أمسكتك عن أن تخطئ إلىّ لذلك لم أدعك تمسها فالآن رد امـرأة الرجل فأنه نبى فيصلى من أجلك فتحيا وإن كنت لست تردها فاعلم أنك موتـا تموت أنت وكل من لك» . (٢)

---

(١) تكوين ٢٦ : ٧ : ١٠ .

(٢) تكوين ٢٠ : ٤ – ٧ .

ويذعن إبيمالك سريعاً للأمر فيرد سارة لزوجها النبى إبراهيم ويعاتبه فى خوف شديد بأنه كاد يجلب عليه وعلى مملكته خطيئة عظيمة حتى أن إبيمالك يصف ما فعله إبراهيم بأنه «أعمالاً لا تعمل عملت بى» ثم يكافئ إبراهيم بمنحه غنماً وبقراً وعبيداً وإماء وألفاً من الفضة ويفتح له أبواب ملكه يسكن فيها كيف شاء .

والقارئ الفاحص لا تفوته سقطتان فى هذه القصة ، الأولى هى : اتصال الله المباشر فى الحلم بهذا الملك الوثنى (لم تقل لنا التوراة أنه من المؤمنين برب إبراهيم) .

وعلى الأولى تترتب نتيجة أخرى فهذا الملك الوثنى قد أذعن لإله إبراهيم وأطاعه وهو موقن تمام اليقين أن كلام هذا الإله محقق لا محالة وبلغت خشيته من هذا الإله وخوفه من أن يقترف ذنباً يغضبه بأنه وصف فعل نبى الله بأنه (أعمالاً لا تعمل) فلابد إذن لهذا الملك أن يكون مؤمناً بهذا الإله بل من الموحدين !

على أن الخيال الشعبى لم ينس أن يضيف لهذه القصة بعض التفاصيل (اللاذعة) ليثبت بها المعجزة لإبراهيم نبى الله وعن هذا تقول التوراة : **«فصلى إبراهيم إلى الله فشفى الله إبيمالك وامرأته وجواريه فولدن . لأن الرب كان قد أغلق كل رحم لبيت إبيمالك بسبب سارة امرأة إبراهيم»** . (١)

والإضافة الأخيرة للقصة معناها أن هناك زمناً طويلاً قد مضى منذ اكتشاف حقيقة سارة (زوجة لإبراهيم) إلى أن تم اكتشاف عقم آل بيت إبيمالك ، وهو ما لم تشر إليه التوراة إطلاقاً إلا فى هذه الفقرة ، ثم ان إبيمالك لم يخطئ إلى سارة لأن الله عصمه من الخطأ إذن فلا مشكلة فى الحكاية كلها وأخيراً فقد بدا الأمر كأنه عملية تبادل للمنفعة .. النبى إبراهيم يأخذ العطية المادية من الملك مقابل أن يمنحه البركة ويصلى من أجله !

أما فى قصة إسحق فقد تغيرت بعض تفاصيل السيناريو وكان لابد أن تتغير فالملك (إبيمالك) يكتشف بالصدفة عندما يتجسس على النبى إسحق أن رفقة زوجته فيتبرع هو هذه المرة ويطلق تحذيره بأن من يمس هذه المرأة موتا يموت !!

إن تشابه التفاصيل إلى حد التطابق تقريباً يثير الشبهة فى هذه القصص التوراتية ثم إن إلصاق التهم بالأنبياء ليس دليل صدق التوراة وصدق مصدرها (الذى تدعى أنه الوحى) لأن أى كتاب سماوى لابد أن يهدف من قصصه إلى مغزى أخلاقى على أن التوراة لم تقدم لنا

---

(١) تكوين ٢٠ : ١٧ - ١٨ .

بهـذه القصص مثالاً بشـرياً نحتز به بل قدمت أنبياء الله عارين من العصـمة وعلى النقيض قدمت الوثنيين (فرعون وإبيمالك) .

ومن بعـد تستبعـد التوراة من نسل إبراهيـم ، إسمـاعيل وتصطفى إسـحق ومن نسل الآخيـر تصطفى يعـقوب وتفـضله على أخيـه عيـسو بالخـديعة والخـتل وليس بالاستـحقـاق أو بمعـاييـر تفضيل إلهية .

وفي قصة راحـاب لا تخجل التوراة أن تصف المرأة بأقذع تهمـة وهي الزنا وتقرن هذه بذكرها - دائماً - في التوراة ، ومع هذه الزانية يعقد جواسيس إسرائيل اتفاقية بمقتضاها تخون المرأة قومها على أن يمنحها بنو إسرائيل حياتها في حال نصـرتهم ، ولما يتحقق النصر يحرّم المنتصر أهل المدينة وكل مظهر لـلحياة فـيها بحـد السيف لكن يبـقون على راحـاب وأهل بيتهـا كمـا وعدوها وتظل التوراة تصـفها بالزنا كـأنها ظلت تمارس حرفـتها في إسـرائيل ؛ وكان جديراً بهـا وقد سكنت في وسط شعب الرب وعاينت معجزاته أن تتوب وتؤمن :

«واستحى يشوع راحاب الزانية وبيت أبيها وكل مالها وسكنت في وسط إسرائيل» .

ونسأل في هذه مـاذا يكون حكم التوراة في راحـاب لوتبدلت المواقع وكانـت هي من إسرائيل فخانتها لصالح أعدائها ؟!

كل المطلوب من المؤمنين بالتوراة في صورتها الحاليـة أن يعيدوا تفكيك بعض المواقف ويعيدوا تركيبـها فإذا وجدوها حـقيقة ثابتة فـهي لا شك حقيقة ربانـيـة ؛ فعندمـا يوصي اللـه : لا تـزن .. فقد حـرم فعل الزنا على عباده ولا يمكن أن تتـحول زانية إلى قديسـة إلا إذا تابت وآمنت وعملت من الصالحات مـا تستحق عليه ذلك ، وفي حـالة راحاب فقد وصـمتها التوراة بالـزنا حتى بعد أن دخلت إسرائيل وسكنت وسطها !

أيضاً لا يسـتطيع العقل أن يقبل بسهـولة حكاية زنا نبي الله داود فهي بلا شك مدسـوسة على سيرة هذا النـبي العظيم ، والقصة مكتوبة بعـد عصر صاحبـها بزمن طويل وكاتبهـا لا شك يحمل حقداً عـلى بيت داود وعلى مملكته أو قل على سبطه الذي ينتـمي له (سبط يهوذا) وكاتب الـقصة ينتمي غـالباً إلى مملكة الشمال (إسـرائيل) في إبان الانفصال ، ومـراجعة سريعـة لظروف ووقائع العداوة والبغضاء بين المملكتين يجعلنا لا نستبعد هذا الرأي . أما قراءة متأنية للنص فلابد أن تحول هذا الاعتقاد إلى حـقيقة ، وهنا نتوقف عند فقرة في التـوراة يقول فيه الراوي إن الرب أرسل ناثان يؤنب داود على فعل الزنا بزوجـة أحد جنوده ودفعـه بهذا الجندي إلى الصفـوف الأمامية للقـتال

حتى يتخلص منه بالموت ، ويمضى ناثان ينفـذ إرادة الرب فيستدرج داود بقصـة خيالية عن رجلين فى المدينة أحدهمـا غنى (يقصد به داود) والآخـر فقير (يقـصد به الجندى زوج المرأة) الأول يملك كل شىء بينمـا الآخير لا يملك إلا نعـجـة يتيـمة يطمـع فيـها هذا الغـنى ويغـتصبـها منه ، وتثـير الحكاية نفس داود فـيـحكم فى ثورته بـالموت على الغنى الطمـاع ، ومن فـمـه يأخـذ ناثان الحكم ويقـول له :

«أنت هو الرجل هكـذا قال الـرب إله إسرائـيل أنا مـسـحتك مـلكاً على إسـرائيل وأنقذتك من يد شاول وأعطيـتك بيت سيدك ونساء سيـدك فى حضنك وأعطيتك بيت إسرائيل ويهوذا» . [1]

وعند الجـملة الأخيرة نـتوقف (**بيت إسرائـيل ويهوذا**) ولم يكن على عـهد داود قد انقـسمت مملكة إسرائيل إلى (إسـرائيل ويهوذا) لم يحدث هذا إلا فى عـهد حفيـد داود ولو كان النبى ناثان يقصد بالرمزين أسباط إسرائيل جميعـهم فكان يستطيع أن يصرح بذلك ، لكن أليس مثيراً للشبهة أن يذكر النبى ناثان بالتحديد اسمى المملكتين المنفصلتين (**إسرائيل ويهوذا**) قبل انفصالهما الفعلى بحوالى ثلاثة أرباع قرن من الزمان !!

وفى عبارة (**أعطيتك بيت إسرائيل ويهوذا**) ألا نشتم رائحة حـقد نابع من صراع على السلطة يعتبر الحكم عطية وليس تولية أو مسئولية ؟!

وبعد .. فالحكم الذى حكمه داود على نفسه وهو الموت لم يطبق :

«فقال ناثان لداود الرب أيضاً قد نقل عنـك خطيئتك لا تموت غير أنه من أجل أنك قد جعلت بهـذا الأمر أعداء الرب يشمتـون فالأبن المولود لك يموت ..... وضرب الولد الذى ولدته امرأة أوريا لداود فقتل» . [2]

ولإننا دائماً نبـحث عن العبـرة الأخلاقيـة فلنا أن نسأل لماذا لم يطبق حـد الزنا على داود حتى يثبّت الله شريعـته فى الأرض ؟! أو لماذا لم يطلب داود (الحكيم) تطبيق الحد عليه ؟! ومـا مغزى القصة التى رواها ناثان النبى ؟! أكانت لتوضيح الخطأ لداود - فقط - ؟!

إن التوراة لا تـنثنى توقعنا فى بلبـلات عديدة فـداود هذا الذى تصمـه بتهـمة الزنا نسـتطيع أن نخرج من التوراة نفسها ألف نصاً يمجده وينفى عنه مثل هذه التهمة .

---

(١) صموئيل الثانى ١٢ : ٧ - ٨ .

(٢) صموئيل الثانى ١٢ .

داود الحكيم تثبت التوراة على لسانه فى أحد المزامير :

«يكافئنى الرب حسب برى ، حسب طهارة يدى يرد علىّ لأنى حفظت طرق الرب ولم أعصى إلهى ، لأن جميع أحكامه أمامى وفرائضه لا أحيد عنها وأكون كاملاً لديه والحفظ من اثمى فيرد الرب علىّ كبرى وكطهارتى أمام عينيه» .

ونستطيع أن نرجع للمزامير وننقيها لنخرج منها بدر الحكمة الخالصة التى نطق بها داود .

ونتساءل أيهما نصدق قصة التوراة عن زنا نبى من أنبياء الله ؟! أم أقوال الحكمة التى وردت أيضاً فى التوراة عن الرجل كنبع صافٍ فياض للاستقامة والطهر ؟!

إن قول الزور غالباً ما يحمل آفة فساده ودليل كذبه .

ومن داود إلى سليمان النبى ابنه الذى تعرضت سيرته هو الآخر للتشويش والافتراء والتناقض حتى فى السفر الواحد ، فيخبرنا مثلاً سفر الملوك الأول فى إصحاحه العاشر :

«فتعاظم الملك سليمان على كل ملوك الأرض فى الغنى والحكمة . وكانت كل الأرض ملتمسة وجه سليمان لتسمع حكمته التى جعلها الله فى قلبه» .

وفى الإصحاح التالى مباشرة تفاجئنا التوراة عن هذا الحكيم فتقول :

«وأحب الملك سليمان نساء غريبة مع بنت فرعون موآبيات وعمونيات وآدوميات وصيدونيات وحيثيات من الأمم الذين قال عنهم الرب لبنى إسرائيل لا تدخلون إليهم ولا يدخلون إليكم لأنهم يميلون قلوبكم وراء آلهتهم فالتصق سليمان بهؤلاء بالمحبة وكانت له سبعمائة من النساء السيدات وثلاثمائة من السرارى فأمالت نساءه قلبه وكان فى زمان شيخوخة سليمان أن نساءه أملن قلبه وراء آلهة أخرى ولم يكن قلبه كاملاً مع الرب إلهه كقلب داود أبيه» .

ولنا أن نعود إلى سيرة سليمان فى سفر أخبار الأيام الأول ؛ الإصحاح الثانى والعشرين حيث يقرر الرب عن سليمان :

«هو يبنى بيتاً لا سمى وهو يكون لى أبناً وأنا له أباً وأثبت كرسى ملكه على إسرائيل إلى الأبد» .

فكيف يعود الله فى قراره فيخالف الأبن مشيئة الأب ؟!

إن سفر الملوك ينسب للرب كلاماً عن سليمان يقول فيه :

«فقال الرب لسليمان من أجل أن ذلك ولم تحفظ عهدى وفرائضى التى أوصيتك بها فإنى أمزق المملكة عنك تمزيقاً وأعطيها لعبدك» !!

أليست النصوص متناقضة ؟! إن الإله الذى أدعى عليه كتبة التوراة ما لم يقله يبدو متناقضاً من سفر إلى سفر ومن إصحاح إلى إصحاح ، فالنص يضيف بعد العدد السابق مباشرة :

«إلا إنى لا أفعل ذلك فى أيامك من أجل داود أبيك بل من يد ابنك أمزقها على أنى لا أمزق منك المملكة كلها بل أعطى سبطاً واحداً لابنك لأجل داود عبدى ولأجل أورشليم التى أخترتها».

إن النص نفسه الذى يسلب سليمان شيئاً يعيد لداود أشياء سُلبت منه ، داود المفترى عليه كسليمان الحكيم ، وكما فتشنا فى مزامير داود نفتش فى أمثال سليمان عن در الحكمة وفيوضات الإيمان وهو القائل :

«بدء الحكمة مخافه الرب ومعرفة القدوس فهم» . (١)

وهو القائل أيضاً :

«إذا دخلت الحكمة قلبك ولذت المعرفة لنفسك ، فالعقل يحفظك والفهم ينصرك لإنقاذك من طريق الشر ومن الإنسان المتكلم بالأكاذيب ، التاركين سبل الاستقامة للسلوك فى مسالك الظلمة . الفرحين بفعل السوء ، المبتهجين بأكاذيب الشر ، الذين طرقهم معوجة وهم ملتوون فى سبلهم». (٢)

أما مسألة غرام سليمان بالنساء الأجنبيات فى آخريات أيامه إلى الدرجة التى أملن فيها قلبه فانحرف عن عبادة الله وعاد إلى الشرك كما تقول التوراة فالادعاء لا يستقيم أبداً ومنطق سليمان فى هذه القضية بالذات وإليكم الدليل من التوراة نفسها .

تقول الأمثال فى سفرها الثانى أيضاً الأعداد من ١٦ إلى ٢٠ :

«لإنقاذك من المرأة الأجنبية من الغريبة المتملقة بكلامها ؛ التاركة أليف صباها والناسية عهد إلهها ، لأن بيتها يسوخ إلى الموت وسبلها إلى الأخيلة ، كل من دخل

---

(١) أمثال ٩ : ١٠ .

(٢) أمثال : ٢ : ١٠ – ١٥ .

إليهـا لا يؤوب ولا يبلغون سـبل الحياة ، حـتى تسلك فى طريق الصـالحين وتحفظ سبل الصديقين» .

وسليمان هو الموصى أيضاً فى نفس السفر السابق :

«أشرب مـياها من جـبك وميـاه جارية من بئـرك . لا تفض ينابيعـك إلى الخارج . سواقى مياه فى الشوارع . لتكـن لك وحـدك وليس لأجانب معك . ليكن ينبوعك مبـاركاً وأفرح بامـرأة شـبابك .... فلم تفتن يا ابنى بأجنبيـة وتحتـضن غريبـة لأن طـرق الإنسـان أمـام عينى الرب وهـو يـزن كل سبلـه». [1] .

إذا كان هذا فهم سليمـان لقضية المرأة الأجنبية وكان يحـذر منها مراراً وتكراراً فكيف يقع هو نفسه فى الخطأ ؟! وكيف يستدرج الحكيم بشص الجهل ؟!

إن سيرة سليمان قد تعرضت لا شك للتشويه والمبـالغة حتى ليستطيع القارئ للتوراة أن يضبط ذلك فى خبرين ورد أحدهما فى سفر أخبار الأيام الثانى (٩ : ٥) ويقول :

«وكان لسليمان أربعة آلاف مذود لخيل المراكب» .

بينما يقول الخبر الثانى الذى ورد فى سفر الملوك الأول (٤ : ٢٦) :

«وكان لسليمان أربعون ألف مذود لخيل مراكبه» .

ولا يستطيع أحد أن يفسـر هذه المبالغة بإرجاعهـا لخطأ فى الترجمة عن النص العبـرى فاليهود كانوا لا يعرفون الصفر فى أعدادهم فى ذلك الوقت ولذلك كانوا يكتبون الأعداد بالكلمات .

إن سيرة سليمان كما وردت فى سفر الملوك الأول منقولة عن كتاب (سفر) اسمه أمور سليمان ويخبرنا سـفر أخبار الأيام الثـانى أن بقية أمور سليمـان الأولى والأخيرة مكتوبة فى كـتب (أخبار ناثان النبى ونبوة أخيا الشلونى ورؤى يعدو الرائى على يربعام بن نباط .

... وبعـد فسـفـر أخبـار الأيـام الثانـى لم يخـبرنـا شيـئاً عن إشراك سليـمـان فى أخريـات أيامه .. فـهل المبالغة والتضـارب فى سيرة هذا النبى بسـبب تعدد المصادر التى نقلت عنهـا التوراة وتدّخُل السـياسـة فى تشويه الحـقيـقة مع عـدم إغـفـال أو على الأقل افتـراض وجـود أعـداء فى مملكـة إسـرائيل لأسـرة داود وسليـمـان . كل هذه الأمـور كـانت دخلت فى خلـق سيـرة غيـر حقيقـية لداود وسليمان ؟!

---

(١) أمثال ٥ : ١٥ - ٢١ .

على أن هناك نقطة فى غاية الأهمية والخطورة تفسر قبول كتبة التوراة لمثل هذه النصوص بل وضمها للكتاب المقدس على أنها من أعمال الوحى . هذه النقطة تتعلق بمفهوم النبوة فى إسرائيل بمعنى نظرة اليهود أو بنى إسرائيل لأنبيائهم وشرح ذلك سوف يرد لاحقاً .

لكننا على الأقل فيما يخص المصادر التى نُقل عنها سيرة داود لا نستطيع أن نتجاهل نصاً ورد فى ختام سفر أخبار الأيام الأول ينص على أن :

«أمور داود الملك الأولى والأخيرة هى مكتوبة فى سفر أخبار صموئيل الرائى وأخبار ناثان النبى وأخبار جاد الرائى» . (١)

إذن فهذه هى المصادر الثلاثة التى ذكرت التوراة أنها سجلت أخبار داود (الملك) وتعاملت معه على هذا الأساس أنه ملك وليس نبياً ، هذه المصادر الثلاثة كانت تروى فى الأصل أخبار هؤلاء الثلاثة الذين شاركوا فى صنع الأحداث إبان عهد القضاة والملوك ، وصموئيل وجاد وناثان ليسوا هم الرواة فى هذه الأسفار الثلاثة بل الرواة الذين كتبوا أخبارهم مجهولون وبالتالى فنحن غير مطالبين بأن نقبل رواية عن مصدر مجهول وننسبها إلى الوحى الإلهى .

بقى من حديث الغواية والزنا فى التوراة الكثير لكننا سنكتفى الآن بالإشارة إلى شخصيتين نسائيتين أخرتين . يقول المصدِّقون بالعهد القديم إنهما أثرتا تأثيراً كبيراً فى مسار تاريخ بنى إسرائيل ؛ والمقصودتان هما أستير ويهوديت ؛ وكانتا فتاتين يهوديتين بارعتى الجمال ؛ استخدمتا جمالهما هذا فى إنقاذ بنى إسرائيل فقلبت التوراة سفرين على اسميهما ؛ نصف أحدهما (أستير) من الأسفار المقبولة (القانونية الأولى) بينما اعتبر نصفه الآخر وكل سفر يهوديت من الأسفار القانونية الثانية . والغريب فى الأمر أن الجزء القانونى الأول من سفر أستير أى المتفق على قبوله من اليهود العبرانيين وكل الطوائف المسيحية لم يُذكر فيه اسم الله ولا مرة واحدة ولهذا ظل السفر موضع نقاش بين الطوائف المسيحية إلى أن تنازل البروتستانت وقبلوا عشرة إصحاحات فقط وضموها للأسفار القانونية الأولى !! ونحن لن نناقش السفر لكننا باختصار نشير إلى أنه يعد تذكاراً لخلاص اليهود من مذبحة أعدها لهم وزير فارسى اسمه هامان وبعد نجاتهم منها بفضل أستير الجميلة التى دفع بها ابن عمها إلى قصر الملك (لمثل هذه الظروف) تحول اليهود إلى إبادة أعدائهم ولا يخجل السفر من أن يذكر أخبار الانتقام الوحشى الرهيب بكثير من التفاصيل :

---

(١) أخبار الأيام الأول ٢٩ : ٢٩ .

«فضرب اليهود جميع أعدائهم ضربة سيف وإهلاك وفعلوا بمبغضيهم كما شاءوا».

«واجتمع سائر اليهود الذين فى أقاليم الملك ونهضوا لأنفسهم واستراحوا من أعدائهم وقتلوا خمسة وسبعين ألفاً» !!

أما القديسة يهوديت فذكرها سوف يأتى فى الحديث عن الأسفار القانونية الثانية .

ملاحظة ختامية : لفظ الزنا اعتبر فى بعض النصوص مرادفاً للفظ الكفر أو الشرك ففى معرض التحذير من إخراج تقدمة لمولك إله العمونيين تقول التوراة:

«واقطعه وجميع الفاجرين وراءه بالزنا» (١)

وتقول أيضاً :

«والنفس التى تلتفت إلى الجان والتوابع فتزنى وراءهم وجهك ضد تلك النفس». (٢)

ومن القتل والزنا إلى وصية أخرى من الوصايا العشر ..

.. لاتسرق

على الحجر المنقوش بأصبع الله جاءت الوصية وعلى لسان موسى تم تبليغها .. فعلى من يفرضها الله ؟! ومن يبلغه موسى ؟! ويوصيه بألا يسرق مَنْ ؟!

إن الحكم فى الوصية مطلق مثل الأحكام الأخرى . لكن دستور اليهود التوراتى لا يأبى إلا بذر الفساد فى الأرض . أما الأحكام التى تتعلق بالسرقة فنجدها فى الإصحاح الثانى والعشرين من سفر الخروج بتفاصيل كثيرة ملخصها أن السارق يعوض المسروق عن سرقته لكننا لا نستطيع أن نفهم المغزى من نص يقول :

«إن وجد السارق وهو ينقب فضرب ومات فليس له دم ولكن إن أشرقت عليه الشمس فله دم» . (٣)

فماذا يفرق هنا بقاء المضروب المصاب عدة ساعات إضافية على قيد الحياة ؟!

وتمضى الأعداد فى نفس السفر توضح أحكام وعقوبات جريمة السرقة وتنص على

---

(١) لاويين ٢٠ : ٥ .

(٢) لاويين ٢٠ : ٦ .

(٣) الخروج ٢٢ : ٢ .

العناية بالغريب حين تُذكر اليهودى بأنه كان غريباً فى أرض مصر . كذلك تحرم النصوص الربا بل وتزيد فتأمر بالإحسان عندما تطالب المرتهن برد الرهن إن كان ثوباً عندما يأتى المساء على الراهن فلعل هذا الثوب غطاء لصاحبه . كذلك تأمر الأعداد برفض الرشوة (لأن الرشوة تعمى المبصرين) وكل هذا كلام حسن مقبول إلى أن تأتى شريعة التثنية فتقيد إطلاق الحكم وتجعل تحريم السرقة مقصوراً على اليهودى لليهودى بينما تطلقه فعلاً مباحاً حلالاً لأملاك الغريب :

«لا تقرض أخاك بربا . ربا فضة أو ربا طعام أو ربا شيء مما يقرض بربا . للأجنبى تقرض بربا» . [1]

إذن فهذا هو حكم التوراة التى نسخت به شريعة الله فانتفت الحكمة من التشريع لأن تطبيقه على هذه الصورة سوف يخلق فوضى وفساداً . فأى منطق سليم لابد أن يعقل الأمور كالآتى :

إذا نظرنا لما يملكه الغريب واستحللناه لأنفسنا فلا نلومنه إذا استحل ما نملكه لنفسه .

وشيوع مثل هذا الأمر لن يولد إلا البغضاء والشقاق .

وأيضاً السرقات الكبيرة التى تخص إسرائيل فقد غضت التوراة عنها الطرف بل حكت عن يعقوب الذى هو إسرائيل أنه سرق الرب فى قصة ساذجة انخدع على أثرها الرب فثبت له البركة التى لأخيه بعد أن سرق أيضاً من الآخير بكوريته :

«وحدث لما شاخ إسحق وكلت عيناه عن النظر أنه دعا عيسو ابنه الأكبر وقال له : يا ابنى . فقال : هانذا . فقال : إننى قد شخت ولست أعرف يوم وفاتى فالآن خذ عدتك جعبتك وقوسك واخرج إلى البرية وتصيد لى صيداً واصنع لى أطعمة كما أحب وآتنى بها لآكل حتى تباركك نفسى قبل أن أموت» . [2]

وسمعت رفقة زوجة إسحق وأم عيسو ويعقوب بالأمر وكنا قد عرفنا من التوراة أن هذه الأم تفضل يعقوب على عيسو (هكذا دونما سبب) فلما ذهب الأخير فى رحلة صيده ينفذ أمر أبيه طبخت الأم طبيخاً وألبست يعقوب الأملس جلود جدى الماعز حتى يبدو جسده الأملس كأنه مشعر (مثل ملمس جلد أخيه عيسو) وأعطت الأم يعقوب الأطعمة والخبز وأدخلته على أبيه كليل البصر يطلب منه البركة التى لأخيه . وعلى الرغم من أن يعقوب ميز صوت ابنه وكاد يعرفه أو

---

(١) التثنية ٢٣ : ٢٠ .

(٢) تكوين ٢٧ : ١ - ٤ .

على الأقل استراب فيه فقد بلع الطعم وحسب أن يعقوب هو عيسو بسبب ملمس الجسد فباركه :

«فليعطك الله من ندى السماء ومن دسم الأرض وكثرة حنطة وخمر . ليستعبد لك شعوب وتسجد لك قبائل . كن سيداً لإخوتك وليسجد لك بنو أمك . ليكن لاعنوك ملعونين ومباركوك مباركين» . (١)

ويبدو أن يعقوب أسرع فسجل البركة في الشهر العقارى (معذرة فالأمر لا يحتمل إلا ذلك) حتى إن عيسو حينما عاد فاكتشف هو وأبيه الخدعة التى اشترك فى تدبيرها الأخ والأم فطلب من أبيه أن يصحح الأوضاع أو على الأقل يباركه هو أيضاً فما كان جواب الأب إلا أن قال :

«قد جاء أخوك بمكر وأخذ بركتك» . (٢)

فيسأله عيسو ببراءة :

«أما أبقيت لى بركة» ؟

فيعقب إسحق :

«إنى قد جعلته سيداً لك ودفعت إليه جميع إخوته عبيداً وعضدته بحنطة وخمر فماذا أصنع إليك يا إبنى» .

فيقول عيسو لأبيه :

«ألك بركة واحدة فقط يا أبى . باركنى أنا أيضاً يا أبى» .

فيجيبه إسحق :

«هو ذا بلا دسم الأرض يكون مسكنك . وبلا ندى الماء من فوق وبسيفك تعيش ولأخيك تستعبد» . (٣)

أتعنى بركة إسحق لعنة لعيسو ؟!

هكذا تفهمنا التوراة وهى تحسب أنها ترفع يعقوب درجات .. يعقوب الذى طمع فى الدنيا فاشترى بكورية أخيه بينما كان عيسو أكثر حكمة ففهم أنها دنيا زائلة لا خير فيها فالآخرة خير وأبقى لكن أبت العقلية اليهودية إلا أن تفهم غير ذلك فتمسكت بتلابيب الدنيا إلى حد السرقة

---

(١) تكوين ٢٧ : ٢٨ - ٢٩ .

(٢) تكوين ٢٧ : ٣٥ .

(٣) كل القصة مذكورة فى الإصحاح ٢٧ من سفر التكوين .

والخديعة وما هو إلا حديث مفترى :

«فقال يعقوب بعنى اليوم بكوريتك . فقال عيسو أنا ماضٍ إلى الموت فلماذا لى بكورية . فقال يعقوب احلف لى اليوم ، فحلف له فباع بكوريته ليعقوب فأعطى يعقوب عيسو خبزاً وطبيخ عدس فأكل وشرب وقام ومضى فاحتقر عيسو البكورية» . [١]

وإذاً كانت التوراة قد تصرفت فى قصة الذبيح فاستبدلت إسماعيل بإسحق فإن الكتبة لم يملكوا إلا هذه القصص الأسطورية التى تصور النبى يعقوب سارقاً متاجراً وهم يحسبون أنهم بذلك يحسنون صنعاً ويهيئون الأمر لإسرائيل ليستحق - حتى لو كان على أسس زائفة - الوعد الإلهى وميراث الأرض .

ومع حكايات التوراة لا ينسدل أبداً ستار الدهشة فها هى ذى تخبرنا عن النبى يعقوب (الذى سيصير فيما بعد إسرائيل) أنه احتال على حميه بعد اتفاقهما على أُجرة ينالها الأول مقابل خدمته للأخير وحسب رواية التوراة : يخطط يعقوب لذلك بأن يعين بنفسه الأجرة من الغنم كل شاة رقطاء وبلقاء وكل شاة سوداء بين الخرفان وبلقاء ورقطاء بين «المعزى» ، ثم يأخذ يعقوب قضباناً خضراً من لبنى ولوز ودلب ويقشر فيها خطوطاً كاشطاً عن البياض الذى على القضبان ويوقف هذه القضبان التى قشرها فى الأجران فى مساقى الماء حيث كانت الغنم تجىء لتشرب .

وتوحمت الغنم عند القضبان فولدت مخططات ورقطاء وبلقاء وكان يعقوب يختار الغنم القوى ليفعل به ذلك ويستبعد الضعيف تاركه لخاله !! وبالاحتيال أصاب يعقوب ثروة !!

هكذا القصة فى التوراة .. ونحن نستطيع أن نلجأ للعلم ليدحض مثل هذا الكلام ويكشف عن سذاجة المؤلف والحكاية التى قبلها العقل اليهودى لأنها تتسق مع مفاهيمه وبالتالى فهو يريد أن يصدقها ، فمثل هذه القصص ليست غريبة على التوراة وزاوية البناء فيها تعطى لليهودى إشارة خضراء لاستخدام أساليب الاحتيال وصولاً للغاية المادية والفوز بها ، لايعنى المرء فى ذلك الأمر أن يتبع ما يستوجبه كريم الخلق أو تعاليم السماء .

ونظرة إله إسرائيل فى مثل هذه الأمور نظرة محايدة فى الغالب لا يتدخل مادامت نهاية المشوار تعد مغنماً لإسرائيل بل تحتال التوراة أحياناً على الإله نفسه فتدعى أن يعقوب نسب حيلة خداعه لحميه وخاله إلى (الله) فتضفى عليها حالة من القداسة .. وها هو يعقوب يحدث زوجتيه

---

(١) ٢٥ : ٣١ - ٣٤ .

(الأختين) فيقول لهما :

«ولكن إله أبي كان معي وأنتما تعلمان أن بكل قوتي خدمت أبيكما وأما أبوكما فغدر بي وغير أجرتي عشر مرات لكن الله لم يسمح له أن يصنع بي شراً . إن قال هكذا الرقط تكون أجرتك ولدت الغنم رقطاً وإن قال هكذا المخططة تكون أجرتك ولدت كل الغنم مخططة وقد سلب الله مواشي أبيكما وأعطاني» (1) .

والنص السابق يحاول أن يرد الأمر لمشيئة الله أو على الأقل يوهمنا بذلك وينفي عن يعقوب اختياره أو السعي إليه !!

ومن تلك إلى سرقة أخرى نسبتها التوراة للرب ولموسى (حاشا لله وتنزه نبيه عن ذلك) ، وتقول القصة التوراتية إنه حين خروج بني إسرائيل من مصر أن أمر الله موسى :

« تكلم في مسامع الشعب أن يطلب كل رجل من صاحبه وكل امرأة من صاحبتها أمتعة فضة وأمتعة ذهب . وأعطى الرب نعمة للشعب في عيون المصريين ... وفعل بنو إسرائيل بحسب قول موسى طلبوا من المصريين أمتعة فضة وأمتعة ذهب وثياباً . وأعطى الرب نعمة للشعب في عيون المصريين حتى أعاروهم فسلبوا المصريين» .

ما الحكمة في سلب المصريين أمتعتهم ؟!

أيكون الانتقام ؟!

لم يكن عامة الشعب المصري طرفاً في المعركة الدائرة بين فرعون وبني إسرائيل فلماذا الانتقام ؟!

أيكون السلب للسلب ؟!

لماذا تتركنا التوراة – دائماً – فريسة للبحث عن مبررات أخلاقية ؟!

.. لا أدري ؟!

إن ما سبق يتناقض مع ما ورد في قصة عخان بن كرمي بن زبدي بن زارح الذي من سبط يهوذا الذي سرق من إسرائيل

«فحمي غضب الرب على بني إسرائيل» . (2)

---

(1) تكوين ٣١ : ٤ – ٩ .

(2) القصة وردت في سفر يشوع الإصحاح السابع .

السرقات الأولى باركها الرب والسرقة الأخيرة حمى عليها غضبه لأنها وقعت فى إسرائيل!!

إنه بالتأكيد ليس رب إبراهيم وإسحق ويعقوب وموسى بل رب الكهنة كاتبى التوراة .

- اكرم أباك وأمك

وتمضى الوصايا تحض على إكرام الأب والأم وتقرن ذلك بطول العمر (طول الأيام) على الأرض التى يعطيها الرب الإله لبنى إسرائيل ، وهذه الوصية بالتحديد لا نجد لها ظلاً فى التوراة إلا فيما ندر تأتى على شكل وصايا فى أسفار الحكمة .

- لا تشته

أما حديث الاشتهاء فنلاحظ أيضاً تقيده داخل المجتمع اليهودى :

«لا تشته بيت قريبك . لا تشته امرأة قريبك ولا عبده ولا أمته ولا ثوره ولا حماره ولا شيئاً مما لقريبك» .

فإذا قصر النص تحريم هذا الاشتهاء على ما للقريب فقط فقد أطلق اليد فيما يملكه الغريب وهذا مما يخالف شريعة الله فى الأرض ، وعلى ذلك فقد أخبرتنا حوادث التوراة فى حواشيها عن تأصيل صفة الجشع فى بنى إسرائيل وتخطيها أيضاً لحدود الشريعة . فلم يعد اليهودى يفرّق بين الغريب والقريب وها هو النبى أرميا يصف حال اليهود إبان السبى فيقول :

«من صغيرهم إلى كبيرهم كل واحد مولع بالربح ومن النبى إلى الكاهن كل واحد يعمل بالكذب» . (١)

ويقول أيضاً النبى أشعياء :

«التفتوا جميعاً إلى طرقهم كل واحد إلى الربح» (٢) .

ولابد من سائل : إذا كنا نُشكك فى كثير من نصوص التوراة فلماذا نقبل النصوص الأخيرة ونستشهد بها ؟!

إن الأمر يتعلق باعتقاد سيطر على كاتبى التوراة إبان السبى وبالذات عزرا الذى

---

(١) أرميا ٦ : ١٣ .

(٢) أشعياء ٥٦ : ١١ .

تمكن منه هذا الاعتقاد فجعله يقبل كل النصوص التى تجلد الذات اليهودية وبالذات نصوص الأنبياء المتأخرين الذين سبقوه بقليل أو عاصروه ، وكانت هذه النصوص فى أغلبها تقرر حقيقة واقعة وتصور هذا اللون من الفساد الاجتماعى الذى أودى بمملكتى اليهود وشعبيها وساقهما إلى السبى .

***

إن الوصايا العشر فى صورتها الخالصة وتشريعاتها المطلقة دون تقيد ودون تمييز لليهودى هى الأقرب إلى حقيقة الرسالة السماوية التى أرسل الله بها نبيه موسى يدعو الناس إلى التوحيد الخالص ويعلمهم مكارم الأخلاق ، وهى أيضاً جوهر الرسالات السماوية والناموس الإلهى الذى ما نقضه عيسى بن مريم وما بُعث لينقضه فلما انحرفت الرسالة بُعث محمد صلى الله عليه وسلم فنزل عليه القرآن يحمل تلك الوصايا :

بسم الله الرحمن الرحيم

«قل تعالوا أتل ما حرّم ربكم عليكم ألا تشركوا به شيئاً وبالوالدين إحساناً ولا تقتلوا أولادكم من إملاق نحن نرزقكم وإياهم ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن ولا تقتلوا النفس التى حرّم الله إلا بالحق ذلكم وصّاكم به لعلكم تعقلون ﴿١٥١﴾ ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتى هى أحسن حتى يبلغ أشده واوفوا الكيل والميزان بالقسط لا نكلف نفساً إلا وسعها وإذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى وبعهد الله أوفوا ذلكم وصّاكم به لعلكم تذكّرون ﴿١٥٢﴾ » . [1] صدق الله العظيم

هى تقريباً نص الوصايا العشر ولأنها من كلام الله الذى لم يطرأ عليه تحريف ولا تبديل فهى لم تصادر خلق الله لصالح بنى إسرائيل بل دعت للعدل والمساواة حتى لو كان ذا قربى فالعدل الإلهى لا ينتخب ولا يختار .. كلنا لآدم وآدم من تراب ■

---

(١) سورة الأنعام الآيات (١٥١ : ١٥٢) .



الفصل الثالث

الأسطورة والدراما فى التوراة



رسالات السماء والحضارات (فرعون وموسى)

أخبرتنا سيرة التاريخ أن رسالات السماء كانت على الدوام تتنزل على رجل لا يملك من القوة المادية إلا النذر اليسير الذى بالكاد يتيح له أن يبدأ فى نشر دعوته وسط قوم ضعاف مغلوبين على أمرهم مقابل مدنيات غاشمة وثنية مشركة مارقة عن أمر الله بلغت من أسباب القوة المادية ما جعلها تحسب أنها تستطيع أن تملك أسباب قوتها وجبروتها فتعبد ذاتها ورمز قوتها وكلما أوغلت فى ذلك ابتعدت عن أسباب التوحيد الخالص والمعرفة الحقة للإله .

ونستطيع أن نرصد ذلك فى رحلة الرسالات السماوية الثلاث الكبرى ، فرسالة موسى رفضتها حضارة مصر القديمة ورمزها الأعلى فرعون ، وتعاليم عيسى بن مريم تصادمت مع الإمبراطورية الرومانية التى كانت قد بلغت - آنذاك - أوج قوتها ، والإسلام بدا كأنه لن يستطيع اختراق حدود الجزيرة العربية التى تخامتها مدنيات الفرس والروم بجيوشها وعتادها .

وبحساب العقول المجردة فلا مجال للمقارنة بين تلك المدنيات وأصحاب الرسالات وأتباعهم المغلوبين لا محالة .

وللدهشة فكانت العجلة تدور دائماً فى عكس اتجاهها فتصير الغلبة فى النهاية لهؤلاء المستضعفين وتتنامى انتصاراتهم بشكل مطرد مع ثبات إيمانهم ومع ضعف هذا الإيمان أو زعزعته يعود المؤشر هابطاً .

وفى حكاية موسى نبى الله ، لا أحد يستطيع أن ينكر معجزات هذا النبى الرسول التى صنعها فى صراعه ضد فرعون ، لكن التوراة تنحرف بهذه المعجزات فتنحو منحى الأسطورة .

وأول انحراف وأظهره هو العنصرية التى تدّعيها التوراة على موسى فنراه فى إصحاحات سفر الخروج يحادث فرعون فيقول له :

«الرب إله العبرانيين أرسلنى» أو «أطلق شعبى ليعبدنى فى البرية» .

فهل كان رب موسى هو إله للعبرانيين فقط ؟!

الحقيقة أن الأمر هنا يتعلق بالأرض الموعودة فالعنصرية هى المطية التى ركبها اليهود لتثبت

أحقيتهم فى تلك الأرض .

«وأتخذكم لىّ شعباً وأكون لكم إلهاً ...... وأدخلكم إلى الأرض التى رفعت يدى أن أعطيها لإبراهيم وإسحق ويعقوب وأعطيكم إياها ميراثاً» . (١)

ثم هذا الادعاء الكاذب على الإله بأنه لا يستطيع التمييز بين بنى إسرائيل والمصريين إلا بعلامة وهو فى الحقيقة سلب لقدرة الإله فى المعرفة أو هو خلق سبب لأسطورة الفصح ، يقول النص التوراتى :

«فدعا موسى جميع شيوخ إسرائيل وقال لهم اسحبوا وخذوا لكم غنماً بحسب عشائركم واذبحوا الفصح ، وخذوا باقة زوفاً واغمسوها فى الدم الذى فى الطست وأنتم لا يخرج أحد منكم من باب بيته حتى الصباح . فإن الرب يجتاز ليضرب المصريين فحين يرى الدم على العتبة العليا والقائمتين يعبر الرب عن الباب ولا يدع المهلك يدخل بيوتكم ليضرب فتحفظون هذا الأمر فريضة لك ولأولادك إلى الأبد».(٢)

ولقد سبقت هذه الضربة وتلتها ضربات للمصريين لكن الإله لم يطلب من بنى إسرائيل مساعدة إلا فى هذه الضربة بالتحديد فهلا أخبرتنا التوراة عن السبب ؟!

وعلى أثر هذه الأسطورة تدّعى التوراة - أيضاً - أن الإله طلب من موسى تقديس كل بكر (كل فاتح رحم) من بنى إسرائيل ..

«وكلم الرب موسى قائلاً . قدس لى كل بكر كل فاتح رحم من بنى إسرائيل ومن البهائم أنه لى» . (٣)

ثم يتم نسخ هذا الحكم فى أعداد تالية فيأمر بأن يفدى بكر الحمار بشاة أو بكسر عنق الحمار البكر !! وكذلك يفدى بكر الإنسان بذبيحة .

إن أسطورة الأبن البكر لا ترتبط فى إسرائيل بحادث قتل الإله لأبكار المصريين والدليل هو ما روته التوراة عن حادث وقع فى زمن أقدم من زمن الخروج حين صارع يعقوب أخيه عيسو على بكوريته ، وبالتالى فمكانة الابن البكر (المقدسة) لم تصنعها حادثة الخروج ولكن كانت قد

---

(١) الخروج ٦ : ٧ - ٨ .
(٢) خروج ١٢ : ٢١ - ٢٩ .
(٣) الخروج ١٣ : ١ .

صنعتها السيرة الشعبية الجمعية ورسختها على مرور السنين ليكتسب الابن البكر مكانة متميزة فى العائلة ويترتب له حقوق إضافية فى الميراث فيحصل على نصيب اثنين وليس واحد (تثنية ٢١ : ١٧) والخلافة فى المُلك (أخبار الأيام الثانى ٢١ : ٣ - ٤) والاختصاص ببركة الأب (قصة بركة إسحق ويعقوب) كذلك تقول التوراة بأن الله اختار اللاويين ليخدموه نيابة عن سائر أبكار اليهود (العدد ٣ : ١١ - ١٣) .

***

ومن أعمال الأسطورة أيضاً فى صراع النبى موسى سلام الله عليه ضد فرعون هو المبالغة فى فصول الصراع :

«وكان موسى وهارون يفعلان كل هذه العجائب أمام فرعون ولكن شدّد الرب قلب فرعون فلم يطلق بنى إسرائيل من أرضه» . (١)

أما السبب الذى شدّد الرب من أجله قلب فرعون فكان كما تقول التوراة : **«لكى تكثر عجائبه فى أرض مصر»** !! وهذا الادعاء لابد يستتبعه سؤال :

أكانت معجزات نبى الله موسى موجهة فى الأساس لفرعون أم لليهود (ليثبت إيمانهم) أم كان عرضاً يُقدم بلا هدف ؟!

والسؤال بصيغة أخرى : لماذا أراد الله أن تكثر عجائبه فى أرض مصر ؟!

إننا نستطيع أن نفسر هذه الجملة لو عرفنا نظرة التوراة لمصر أو كما يطلق المؤرخون عليها (مصر التوراتية) وتجربة بنى إسرائيل فى مصر التى اعتبرت تجربة مذلة وعبودية وصارت على هذا المثال عنصراً أصيلاً من عناصر تجارب التشتت والهوان لليهود عبر تاريخهم الدينى .

***

نشتم أيضاً رائحة الأسطورة فى واقعة وردت فى سفر الخروج تتعلق بطعام بنى إسرائيل السماوى (المنّ) ويوم السبت ، وتقول الواقعة : إن بنى إسرائيل - من تلقاء أنفسهم - التقطوا فى اليو م السادس (قبل يوم السبت) من المنّ خبزاً مضاعفاً يكفيهم ليومين فلما جاء رؤساء الجماعة يخبرون موسى عن هذا الأمر جاوبهم بأن الرب هو الذى أمر بهذا لأن الغد عطلة فهو سبت مقدس للرب ، وطلب منهم أن يحتفظوا بما يفيض عندهم لليوم السابع الذى سينقطع فيه المنّ .

---

(١) الخروج ١١ : ١٠ .

ثم تأتى التوراة بعد قليل لتخبرنا بقصة (دون مناسبة) مؤداها أن جماعة من الشعب خرجت فى اليوم السابع تلتقط المنّ فلما لم تجده قال الرب لموسى مؤنباً :

«إلى متى تأبون أن تحفظوا وصاياى وشرائعى . أنظروا إن الرب أعطاكم السبت لذلك هو يعطيكم فى اليوم السادس خبز يومين ..... فاستراح الشعب فى اليوم السابع» .

إن أمر هذه القصة يعيدنا - أيضاً - مباشرة لاسترجاع ما قلناه عن أسطورة يوم السبت المقدس.

***

من الأمور التى تدخلت فيها الأسطورة فجعلتها فى التوراة غير واضحة بل مشوشة مسألة رؤية نبى الله موسى للإله وطريقة اتصاله به .

وفى ذلك نرصد ما ورد فى التوراة التى تقول مثلاً فى أحد أعدادها على لسان الله موجهاً كلماته إلى موسى :

«قال لا تقدر أن ترى وجهى لأن الإنسان لا يرانى ويعيش» . (١)

فكيف كان يحدث فعل الرؤية ؟! (رؤية موسى للإله)

تصف التوراة ذلك فى عدد تال للعدد السابق فتقول :

«قال الرب هو ذا عندى مكان فتقف على الصخرة ويكون متى أجتاز مجدى أنى أضعك فى نقرة من الصخرة وأسترك بيدى حتى أجتاز ، ثم أرفع يدى فتنظر ورائى وأما وجهى فلا ترى» .(٢)

إن هذه النصوص توقعنا فى حيرة لا نملك إزاءها إلا أن نتساءل ؟! هل رأى موسى الله (من الخلف ولم ينظره من الأمام) ؟!

وتزداد حيرتنا عندما تقرر لنا النصوص التوراتية فى أعداد أخرى أن موسى كان يتصل بالإله اتصالاً مباشراً :

«ويكلم الرب موسى وجهاً لوجه كما يكلم الرجل صاحبه» .

---

(١) الخروج ٣٣ : ٢٠ .

(٢) الخروج ٣٣ : ٢١ - ٢٣ .

فهل نكتفى بهذا النص الأخير فى هذه القضية ونطلب له تفسيراً من المتأولين وما أكثرهم ؟!

الكهنة واللاويون Emer

لاوى هو أحد أبناء يعقوب فهو سبط من الأسباط الأثنى عشر الذين مثلوا رؤوس جماعة بنى إسرائيل ، وعندما هاجر يعقوب إلى مصر كان لاوى وأخوته من المهاجرين معه ومن بيت لاوى فى مصر جاء النبى موسى وأخوه هارون وأختهما مريم .

«وفى مصر تناسل لاوى فولد جرشون وقهات ومرارى . ومن بنى قهات جاء عمرام الذى تزوج يوكابد عمته [1] فولدت له ناداب وأبيهو وألعازار وايثامار . وألعازار كان له ابن اسمه فينحاس» . [2]

وفى الإصحاح الثامن والعشرين من سفر الخروج نجد أول نص صريح فى رسالة يطلب فيها إله إسرائيل من موسى أن يقرب إليه هارون أخيه وبنيه ناداب وأبيهو وألعازار وإيثامار للكهانة ، ويملى الإله أيضاً على موسى طقوس هذا فيأمره أن يضع لهم ثياباً مقدسة من أجل (المجد والبهاء) ويحدد الإله فى أعداد كثيرة مواصفات هذه الملابس التى لابد أن تشتمل رداء وجبة وقميصاً وعمامة ومنطقة .. إلى آخره

يأمر الإله أيضاً بوجوب ارتداء الكهنة لهذه الملابس عند دخولهم خيمة الاجتماع أو مع اقترابهم من المذبح للخدمة **(لئلا يحملوا إثماً ويموتوا)** ويكون هذا الأمر فريضة أبدية لهارون ونسله» . [3]

أملى الإله أيضاً على موسى طقوس تقديس الكهنة التى تستغرق هى الأخرى أعداداً كثيرة تكاد تبلغ إصحاحاً كاملاً من إصحاحات سفر الخروج وتشمل فيما تشمل عملية المسح المقدس وتأسيساً على هذه الطقوس صار هارون أخو موسى أول رئيس للكهنة وصار أبناؤه كهنة ، وعندما مات هارون خلفه فى الرئاسة ابنه العازار الذى بقيت رئاسة الكهنوت فى بيته إلى أيام الكاهن عالى فتكلم الرب عليه بسبب فساد أبنيه اللذين كانا كاهنين لكنهما كانا فاسقين ووصل حد انحرافهما أنهما كانا يضاجعان النساء المجتمعات فى باب خيمة الاجتماع وبسبب هذا نقل الرب رسالة إلى عالى الكاهن جاء فيها :

---

(١) خروج ٢ : ٢٢ .

(٢) كانت الشريعة اليهودية فى ذلك الوقت لا تحرم الزواج من العمة .

(٣) ٢٨ : ٤٣ .

«ها هو ذا تأتى أيام أقطع فيها ذراعك وذراع بيت أبيك حتى لا يكون شيخ فى بيتك وترى ضيق المسكن ... وجميع ذرية بيتك يموتون شباناً» .

على أن سلالة الكهانة ظلت فى بيت عالى الذى ينتمى إلى العازار بن هارون إلى أن جاء النبى سليمان فعزل رئيس الكهنة (أبياثار) الذى ينتمى إلى هذا البيت وعيّن بدلاً منه صادوق الذى ينتمى إلى بيت إيثامار بن هارون أيضاً .

«وطرد سليمان أبياثار عن أن يكون كاهناً للرب لإتمام كلام الرب الذى تكلم به على بيت عالى» . (1)

هكذا تقول لنا التوراة : إن سليمان كان بهذا القرار يتمم كلام الرب على أن التوراة تخبرنا أيضاً أن سليمان فعل ذلك ليس من أجل الرب ولكن من أجل الإطاحة بمن وقفوا ضده وحاولوا تعيين أخيه (أدونيا) خلفاً فى الحكم لأبيهما داود ، فبعد أن يسرد سفر الملوك فى إصحاحيه الأولين أخبار تخلص سليمان من الذين وقفوا مع أخيه أدونيا وحاولوا تنصيبه ملكاً ينتهى الإصحاح الثانى بعبارة **«وتثبت الملك بيد سليمان»** .

وفيما بعد صار منصب الكهانة فى إسرائيل مطمعاً يشترى بالمال لأنه منصب يجلب الثروة والسلطان والجاه . (2)

وإذا كانت التوراة تذكر أن اختيار بيت هارون للكهانة جاء بتكليف إلهى فإن هناك قصة فى التوراة تكرس هذا التكليف الذى تذمر عليه نفر من إسرائيل وحاجوا موسى فى ذلك وعند ذلك التجأ موسى للإله ، ولما كان بنو إسرائيل لا يؤمنون إلا ببرهان مادى فقد كلم الرب موسى أن يقدم كل سبط عصا منقوشاً عليها اسمه ، وعلى عصا لاوى يكتب اسم هارون وأن هذه العصى فى خيمة الاجتماع أمام الشهادة والرجل الذى يختاره الرب سوف تفرخ عصاه .

وفعل موسى ما أمره الرب وفى الغد كان أن أفرخت عصا هارون فازدهرت وأنضجت لوزاً فكان هذا علامة من الرب على تفضيل هارون على جميع بنى إسرائيل فصار هذا بمثابة تعيين من الإله وبمقتضاه أصبح كل ذكر من ذرية هارون كاهناً للرب .

إن حديث الكهنة فى التوراة الذى يشمل هذا الذخم الطقسى الذى يلازمهم فى هيئتهم ووظائفهم يرسخ مكانتهم حتى ليصيروا فى مواضع كثيرة واسطة بين الإله والشعب ، أما كثرة

---

(1) الملك الأول ٢ : ٢٧ .

(2) المجتمع اليهودى (زكى شنودة) .

حقوقهم التى تنص عليها التوراة بالإضافة إلى الحقوق المعنوية التى أشرنا لها سالفاً والتى على صورتها تلك فاقت حقوق الملوك والحكام فى أحيان كثيرة ، كل هذا يجعلنا نبحث الأمر من وجهة نظر أخرى أو من زاوية تبحث فى منشأ تلك الوظيفة الدينية وعلى هذا فلابد أن نسأل بجدية : هل كانت الكهانة أمراً سماوياً لازم الرسالة التى نزلت على موسى ؟! ثم هل كانت هذه الوظيفة معروفة بين بنى إسرائيل قبل موسى ؟! وأخيراً هل كانت شريعة الله المنزلة على موسى تستلتزم تلك الخدمة الدينية لتثبيتها وتثبيت الإيمان فى قلوب أتباعها ؟!

إن التوراة تخبرنا فى سفرها الثانى (سفر الخروج) عن كاهن مدين حمو موسى وتخبرنا عن تقديمه للذبائح وهو أول ذكر لهذه الذبائح منذ اضطلاع موسى بأمر الرسالة (تبعاً لإصحاحات التوراة) وخروجه مع الشعب ؛ وأول صدام له مع سكان متقدمين فى شبه جزيرة سيناء (عماليق).

«فأخذ يثرون حمو موسى محرقة وذبائح لله وجاء هارون وجميع شيوخ إسرائيل ليأكلوا طعاماً مع حمى موسى أمام الله» . (١)

حمو موسى هذا الشيخ الورع الذى تصفه التوراة بأنه كاهن هو الذى نصح موسى بتنظيم أمور القضاء فى الشعب ثم اختفت سيرة هذا الكاهن من حديث التوراة ولم يعد يذكر !!

ولم تخبرنا النصوص أو تظهر إشارة عن ديانة هذا الكاهن .. فهل كان نبياً ؟! هل كان رجلاً مؤمناً على دين إبراهيم وآباء إسرائيل إسحق ويعقوب ؟! هل آمن برسالة موسى واتبعه ؟! لم تخبرنا التوراة لكنها قالت لنا أنه كاهن مديان وحسب .

.. ولم يكن بنو إسرائيل على عهد آبائهم الأولين يعرفون الكهانة فلم يصادفنا ذلك فى سيرة إبراهيم أو سيرة أبنائه وأحفاده وكان رؤساء الشعب هم الذين يقدمون الأضحية لله عن الجماعة ، وفى عهد موسى لم يكن الأمر يحتاج إلى وسيط بين الشعب والإله مع وجود موسى سلام الله عليه بينما هارون كان وسيطاً بين موسى وفرعون فيتلقى موسى كلمات الله ويتحدث عنه هارون بسبب بلاغته .

ثم تأتى التوراة تخبرنا أن الإله هو الذى أمر بالكهانة وعبر مدخل عنصرى يرد الأمر فى التوراة على هذا الشكل :

«وأنتم تكونون لى مملكة كهنة وأمة مقدسة» .

---

(١) خروج ١٨ : ١٢ .

ثم يترى ذكر لفظ كهنة وكهانة بعد ذلك إلى أن يأتى نص صريح يأمر فيه الإله موسى :

«وقرب إليك هارون أخاك وبنيه معه من بين بنى إسرائيل ليكهن لى .... واصنع ثياباً مقدسة لهارون .. إلى آخره» ، إلى أن يتم تفصيل طقوس التكهن وصناعة المذبح الذى يُقدم عليه التقدمات مع بيان خطواتها كذا الأعطار والبخور .

وفى هذا نحن لا نستطيع أن نفصل قصة الكهانة عن قصة ارتداد بنى إسرائيل الأول بعد خروجهم من مصر وإجبارهم لهارون (الكاهن) لقيادة هذا الارتداد بصناعة العجل الذهبى حتى يعبده الشعب ويحدث هذا بينما موسى غائب فى لقائه مع الله .

ومع سفر اللاويين تبدأ النصوص تكريس مكانة الكهنة وإقرار الطقوس الشكلية التى ادعت التوراة أن موسى كان وسيطاً فى توصيلها من الإله لهارون (كبير الكهنة) هذه الطقوس التى يوردها السفر (اللاويين) بتفصيلات كثيرة وبالذات التقدمات والذبائح .

ويبدو أن الأمر كله مدسوس على سيرة موسى وهارون وأن هذه الطقوس الشكلية التى هى فى حقيقتها حقوق مادية للكهنة دخلت الديانة اليهودية بعد موسى وهارون اعتقاداً من رجال الدين اليهودى بأنهم ينظمون ديانة اليهود .

وأوضح دليل على ذلك نأخذه من التوراة نفسها وهو خاص بمسألة التقدمات والأضحية التى تستغرق مساحة كبيرة فى الشكل التنظيمى للطقوس الكهنية ويكشف لنا ذلك النبى أرميا فى معرض توبيخه لليهود فيصرح :

> **«هكذا قال رب الجنود إله إسرائيل . ضموا محروقاتكم إلى ذبائحكم وكلوا لحماً لأنى لم أكلم آباءكم . ولا أوصيتهم يوم أخرجتهم من أرض مصر من جهة محرقة وذبيحة . بل إنما أوصيتهم بهذا الأمر قائلاً : اسمعوا صوتى فأكون لكم إلهاً وأنتم تكونون لى شعباً وسيروا فى كل الطريق الذى أوصيكم به ليحسن إليكم»**. [1]

والنص صريح وهو أكبر دليل على أن شعب إسرائيل انحرف بوصية الله وحولها إلى طقوس شكلية خالية من حقيقة الإيمان وما كان عزرا جامع التوراة يستطيع أن يغير كثيراً فيما تركه النبى أرميا الذى كانت حياته قريبة من زمن جمع التوراة وربما ضم سفره بعد عزرا بقليل مثل كثير من الأسفار ثم أن كلمات أرميا وغيره من الأنبياء الأخر قبلها بنو إسرائيل على صورتها فى زمن جلد الذات للبحث عن الخلاص .

---

(١) أرميا ٧ : ٢١ - ٢٣ .

وحتى لا نتوه عن قضيتنا الأساسية فسوف نعود لأعمال الكهانة ومع عودتنا هذه سوف نضطر للرجوع إلى التراث المصرى القديم ونحن نذّكر بالزمن الذى عاشه بنو إسرائيل فى مصر ونشير أيضاً إلى أن الرابطة بمصر لم تنقطع بعد خروج بنى إسرائيل منها واستيطانهم فلسطين . وتخبرنا التوراة أن الأواصر زادت فى عهد ازدهار مملكة إسرائيل إلى الدرجة التى صاهر فيها النبى سليمان فرعون مصر وسواء أكانت هذه القصة حقيقية أو مجرد ادعاء مبنى على الأسطورة فإن دلالاتها تشير إلى استمرار الاتصال بمصر ومن ثم حضارتها وأن التأثير المصرى ظل قائماً على بنى إسرائيل ذلك الشعب الرعوى العارى من مظاهر التحضر فى ذلك الزمن .

إن لفظ كاهن فى المدنية المصرية القديمة [١] كان يطلق على القائمين على خدمة المعبد أو الإله ، والمعبد محرّم على الجماهير فهو مكان للطهارة وعلى الكهنة التزام الحفاظ على هذه الطهارة ينسحب هذا الالتزام لجسدهم ذاته فكانوا يلتزمون بالختان [٢] وبطقوس معينة فى الملبس ، كذلك كان لزاماً على الكاهن أن يتلقى العلوم اللاهوتية للقيام بواجباته .

كانت هناك أيضاً أسر محددة تتوارث الخدمة الكهنوتية فلما طال الفساد ذلك النوع من الخدمة صارت المناصب الكهنوتية سلعة تباع وتُشترى . [٣]

والتزم التنظيم الكهنوتى المصرى شكلاً فكان ينقسم إلى أربعة أقسام : الأول منصب كبير الكهنة (الكاهن الأول) وكان لهذا الكاهن فى بعض الأحيان دوراً سياسياً هاماً حتى إنه انتحل لنفسه أحياناً مركز الملك ، ويلى الكاهن الأول كبير الكهنة ثم يأتى بعد ذلك الكهنة الصغار ومنهم تخرج طائفة الأخصائيين التى تشمل كتبة بيت الحياة والحكماء والمرتلين والكهنة الفلكيين ثم الطائفة الرابعة التى تشمل موظفى المعابد الموسيقيين وعازفى القيثار والناى ونافخى البوق .

ومقارنة سريعة بين التنظيم الكهنوتى المصرى ومثيله اليهودى سوف تعطينا بلا شك دليلاً على أن هذا النظام السابق نُقل - تقريباً - بكامله إلى النظام الكهنوتى فى إسرائيل ، مع الوضع فى الحسبان أن الحضارة المصرية وتنظيماتها الدينية سابقة ومستقرة بزمن كبير .

لقد قلنا إن مكانة الكهنة فى إسرائيل قد استقرت ورسخت بعد غياب موسى وهارون عن

---

(١) معجم الحضارة المصرية القديمة .

(٢) عرف المصريون شريعة الختان قبل الشعوب العبرانية .

(٣) نفس السيناريو حدث فى إسرائيل .

مسرح الأحداث بينما يقول لنا سفر العدد فى إصحاحه الثامن عشر فى رسالة من الإله لهارون :

«وأما أنت وبنوك معك فتحفظون كهنوتكم مع ما للمذبح وما هو داخل الحجاب وتخدمون خدمة عطية أعطيت كهنوتكم» . (١)

فهل كانت حقاً الرسالة من الإله ؟!

إن نظرة على حقوق الكهنة المادية والدينية التى رتبتها التوراة لهم قد تكون كفيلة بالإجابة عن السؤال .

فى نفس السفر (العدد) ونفس الإصحاح (الثامن عشر) يعين (الرب) حقوق الكهنة لهارون فيقول له :

«قد أعطيتك حراسة رفائعى مع جميع أقداس بنى إسرائيل لك أعطيتها حق المسحة ولبنيك فريضة دهرية هذا يكون لك من قدس الأقداس من النار كل قرابينهم مع كل تقدماتهم وكل ذبائح خطاياهم وكل ذبائح آثامهم التى يردونها لى فى قدس أقداس لك ولبنيك . فى قدس الأقداس تأكلها .... الرفيعة من عطاياهم مع ترديدات بنى إسرائيل .... كل دسم الزيت المسطار والحنطة . أبكارهن التى يعطونها للرب لك أعطيتها ..... أبكار كل ما فى أرضهم التى يقدمونها للرب لك تكون . كل محرّم فى إسرائيل يكون لك .... كل فاتح رحم من كل جسد يقدمونه للرب من الناس (٢) ومن البهائم يكون لك .... جميع رفائع الأقداس التى يرفعها بنو إسرائيل للرب أعطيتها لك ولبنيك وبناتك (٣) معك حقاً دهرياً» .

كان أيضاً للكهنة نصيب فى غنائم الحرب وفى كل ذبيحة يتم ذبحها لأى سبب للكاهن فيها الساق والفكين والكرش !

وهكذا كان نصيب الرب فى إسرائيل يذهب فى الحقيقة إلى الكهنة .

وفى مقابل هذه الحقوق نص التشريع فى نفس السفر على حرمان بنى هارون من نصيبهم فى أرض إسرائيل .

---

(١) ١٨ : ٧ .

(٢) نصت الشريعة اليهودية على استبدال بكر الانسان بشاة .

(٣) ذكر البنات جاء فقط مع الرفائع التى للرب .. لماذا ؟!

«وقال الرب لهارون لا تنال نصيباً فى أرضهم ولا يكون لك قسم فى وسطهم أنا قسمك ونصيبك فى وسط بنى إسرائيل» .

ولا نملك إلا الدهشة عندما نعرف فى أسفار لاحقة أن الإله قد نسخ هذا الحكم فعين نصيباً من الأرض لبنى هارون (مدن ومسارح) وهذا ما تضمنه سفر يشوع فى إصحاحه الحادى والعشرين :

«وأعطوا لبنى هارون الكاهن مدينة ملجأ القاتل حبرون مع مسارحها ولبنة ومسارحها ويتير ومسرحها واشتموع ومسرحها وحولون ومسرحها ودبير ومسرحها وعين ومسرحها ويطة ومسرحها وعين شمس ومسرحها .... جبعون ومسرحها وجبع ومسرحها عناثوث ومسرحها وعلمون ومسرحها ..... جميع مدن بنى هارون الكهنة ثلاث عشرة مدينة ومسرحها» . (١)

إن سفر يشوع الذى تضمن هذه الامتيازات الأخيرة للكهنة وبمقتضاها تم تعيين مساحات من الأرض (موحى بها) كما تقول التوراة ، هذا السفر من الأسفار التى لا يعترف بها السامريون ومعنى هذا أنه أضيف فى فترة متأخرة للتوراة ربما على عهد عزرا وهذا معناه أيضاً أنه كتب فى فترة لاحقة على موت النبى موسى وهذا بالطبع منطقى لأنه يروى أحداث ما بعد موت موسى ، ومن ذلك نفهم انه عندما طمع الكهنة فى حقوق مادية جديدة تتمثل فى تعيين مدن لهم ، تقول رواية التوراة أن رؤساء آباء اللاويين تقدموا إلى العازار الكاهن ويشوع بن نون القائد ورؤساء آباء أسباط بنى إسرائيل وكلموهم فى شيلوة فى أرض كنعان قائلين :

«قد أمر الرب على يد موسى أن نعطى مدناً للسكن مع مسارحها لبهائمنا !»

انتهت رواية التوراة ولم تعقب فى الأمر وبدأت بعدها مباشرة رواية تقسيم الأرض بين عشائر اللاويين بالقرعة !

ونفتح قوسين ونضع فيهما الآتى :

«ألم يقل الرب من قبل لهارون الذى هو رأس وأب من آباء سبط لاوى : لا تنال نصيباً فى أرضهم ولا يكون لك قسم فى وسطهم أنا قسمك ونصيبك» !!

إن هذا التناقض يثير الريبة يفتح باب الظنون الذى يتوارى خلفه الكهنة واللاويين .

على أن أخطر الحقوق التى رتبها الكهنة لأنفسهم هو حق الوساطة بين بنى إسرائيل والإله

---

(١) المسرح هو مرعى طبيعى لتربية المواشى (من مصدر سرح يسرح).

والتى أسموها البركة أو المباركة :

«وكلم الرب موسى قائلاً : كلم هارون وبنيه قائلاً هكذا تباركون بنى إسرائيل قائلين لهم يباركك الرب ويحرسك .. يضئ الرب وجهه عليك ويرحمك .. يرفع الرب وجهه عليك ويمنحك سلاماً فيجعلون اسمى على بنى إسرائل وأنا أباركهم».(١)

إن هذه الكلمات السابقة لابد أن تنبه الذاكرة لقصة سرقة يعقوب لبركة أبيه إسحق تلك القصة التى رسخت فى التراث الدينى الأسطورى لبنى إسرائيل مفهوم قصر البركة على أشخاص معينين يكون هؤلاء الأشخاص واسطة وهمزة وصل بينهم وبين السماء وعلى السماء أن تقبل بركتهم بلا نقض ولا إبرام .

وكما رتبت التوراة تلك الحقوق للكهنة رتبت أيضاً عليهم واجبات أغلبها يتعلق بطقوس التطهر وهى طقوس قريبة من تلك التى عرفتها معابد المصريين القدماء وهى فى أغلبها تحفظ الكهنة من التنجس والدنس وذهاب العقل بالمسكر وذلك فى حال دخول المقدس للخدمة الدينية وتحت هذا البند السابق تدخل طقوس الاغتسال الدائم والمسح بالدهن المقدس المركب من أفخر الأطياب.

أيضاً كان من أهم أعمال الكهنة الوجوبية تقديم القرابين والذبائح اليومية والأسبوعية والشهرية والسنوية والخدمة فى الأحتفالات الدينية والعناية بالآنية المقدسة والنار المقدسة وكل ما هو مقدس فى خيمة الاجتماع أو المعبد (فيما بعد) كذا حمل تابوت العهد وتولى بعض شئون القضاء واستشارة الرب بواسطة الأوريم والتميم ،(٢) وتفسير الشريعة للشعب .

تلك - تقريباً - كانت الأعمال والواجبات التى فرضها الإله على الكهنة (كما وردت فى التوراة) وجُعلت وقفاً عليهم لا ينازعهم فيها أحد أو يشاركهم والذى يخالف ذلك من الشعب فالموت عقوبته . أما إذا كان الخطأ من الكاهن فى تأدية وظيفته فالعقاب يكون إلهياً (معنى هذا أن الرب هو وحده الذى يملك حق عقابهم) ومثال ذلك موت اثنين من أبناء هارون الأربعة (ناداب وأبيهو) لأنهما قدما ناراً غريبة أمام الرب لم يأمرهما بها . (٣)

إن تلك المكانة التى اكتسبها الكهنة فى الديانة اليهودية دعمتها تلك الطقوس الشكلية

---

(١) العدد ٦ : ٢٢ - ٢٦ .

(٢) الأوريم والتميم (زهر) يستخدم مثل لعبة القمار لاختيار أمر من الأمور .

(٣) القصة وردت فى سفر اللاويين ١٠ : ١ - ٢ .

الأسطورية التى عنيت بالشكل على حساب الروح وجوهر التدين الحقيقى ، فإذا كانت أسفار التوراة الأولى وبالتحديد من السفر الثانى (الخروج) قد مهدت لاستتباب مؤسسة الكهانة الدينية بكل طقوسها السابقة التى أشرنا لها فإن أسفار الأنبياء الأخر قد كشفتهم وعرتهم من ورقة التوت المقدسة التى غطوا بها عوراتهم .

ولعل القرب الزمنى مع أزمة الشعب اليهودى وبحثه عن الخلاص هو الذى جعل عزرا ومن معه يقبلون هذه الأسفار الأخيرة لهؤلاء الأنبياء بكل ما تحتوى عليه من تقريع وتوبيخ ولوم لأعمال الكهانة ، فمثلاً يقول النبى أشعياء فى سفره :

«اسمعوا كلام الرب يا قضاة سدوم . أصغوا إلى شريعة إلهنا يا شعب عمورة» .

إن النبى أشعياء يشبّه كهنة إسرائيل وشعبها فى فسادهما بشعبى سدوم وعمورة ثم يضيف مستنكراً :

«لماذا لى كثرة ذبائحكم يقول الرب اتخمت من محرقات كباش وشحم مسمنات وبدم عجول وخرفان وتيوس ما أسر . حينما تأتون لتظهروا أمامى من طلب هذا من أيديكم أن تدوسوا دورى». (١)

وهذا النبى داود يقول فى مزموره الحادى والخمسين :

«نجنى من الدماء يا الله . إله خلاصى فيسبح لسانى برك يا رب افتح شفتى فيخبر فمى بتسبيحك لأنك لا تسر بذبيحة وإلا فكنت أقدمها . بمحرقة لا ترضى. ذبائح الله هى روح منكسرة» . (٢)

يقول أيضاً النبى ميخا :

بم أتقدم إلى الرب وأنحنى للإله العلى . هل أتقدم بمحرقات بعجول أبناء سنة. هل يسر الرب بألوف الكباشى وبربوات أنهار زيت هل أعطى بكرى عن معصيتى ثمر جسدى عن خطية نفسى قد أخبرك أيها الأنسان ما هو صالح وماذا يطلبه منك الرب إلا أن تصنع الحق وتحب الرحمة وتسلك متواضعاً مع إلهك».(٣)

ولعل هذه النصوص السابقة توضح لنا أن التقدمات وطقوسها تلك التى عنى بها الكهنة

---

(١) أشعياء ١ : ١٠ - ١٢ .
(٢) المزامير ٥١ : ١٤ - ١٧ .
(٣) ميخا ٦ : ٦ - ٨ .

وعنيت بها التـوراة أشد العناية لم تكن شـريعة إلهية ولم يـأمر بها الله لذلك فـهى لا تسره ولكنه يطلب التقوى الحقيقية من الناس .

اللاويــون UNER

... واكتـمل التنظيم الكهنوتى الاسرائيلى بـتنظيم اللاويين الذين هم باقى سبط لاوى من غـير نسل هارون .

وهؤلاء اللاويون كـانوا يعـدون فـى منـزلة وسط بين الكهنـة وباقـى الشـعب ، وكـمـا تقـول التـوراة فى إحدى رواياتـها : إن الفرز والتميـيز الدينى للاويـين قـد ارتبـط بحادث جاء ذكره فى سفـر الخـروج فقد عاد النـبى موسى من رحلتـه التى بقى فيها زمـناً فى حضرة الله ولم يكد يصل إلى مـحلة الشـعب وهو يحـمل اللوح الـذى نُقـشت عليـه وصـايا الله حتـى تناهت إلى سـمعـه أصـوات احتفال فلمـا اقترب رأت عيناه بنى إسرائيل يلتفـون حول عـجلهم الذهبى ويعبدونه من دون الله وكان هذا أول ارتداد صريح لهم ، وبلغت ثورة موسى مداها فقبض على العجل فسحقه وأحرقـه بالنار ثم ذراه على وجه الماء وتوجه إلى الشـعب يسأله : «**من للـرب فإلى**» وهنا اجتمع إليه بنو لاوى ليخـبرهم موسى :

> **«هذا قال الرب إله إسرائيل . ضـعوا كل واحد سيفـه على فخـذه ومروا وارجعوا من باب إلى باب فى المحلة واقتلوا كل واحد أخيه وكل واحـد صاحبه وكل واحد قريبـه فـفعل بنو لاوى بحسب كلام مـوسى فوقع من الشعب فى ذلك اليـوم نحو ثلاثة آلاف رجل فقال موسى للشعب يعطيكم الرب بركة» .** (١)

وفى سفر العدد تقول التوراة إن الإله كرس بنى لاوى للخدمة الدينية عندما كلم موسى قائلاً :

> **«قدم سبط بنى لاوى وأوقـفهم قدام هارون الكاهن وليخـدموه فيحـفظون شعائره وشعائر كل الجماعة قدام خيمة الاجتماع ويخدمون خدمة المسكن فتعطى اللاويون لهارون وبنيه إنهم موهوبون له من عنـد بنى إسرائيل ها أنى قد أخذت اللاويين من بين بنى إسرائيل بدل كل بكر فاتح رحم من بنى إسرائيل» .** (٢)

على أننا نلاحظ هنا تناقضاً غريباً فى التشريع ، ففى النص السابق أخذ الإله بنى لاوى بدلاً عن

---

(١) القصة وردت فى سفر الخروج الإصحاح الثانى والثلاثون .
(٢) العدد ٣ : ٥ - ١٠ .

كل بكر من بنى إسرائيل ثم يأتى نص لاحق فى نفس السفر وبعد تعيين اللاويين للخدمة الدينية يقول الإله لهارون :

«كل فاتح رحم من كل جسد يقدمون للرب من الناس ومن البهائم يكون لك .. غير أنك تقبل فداء بكر الإنسان» !! (١)

فهل هذه مغالطة من الإله ؟! يفتدى أبكار إسرائيل بتعيين اللاويين للخدمة الدينية ثم يعود فيقبل عوضاً عن نفس الأبكار من البهائم !!

هل يملك أحد تفسير للمسألة فيدلنا عليه ؟!

***

ونعود للاويين فنقول إن سبطهم يتكون من ثلاثة فروع منسوبة إلى أبناء لاوى الثلاثة قهات وجرشون ومرارى، وكان لكل من نسل هؤلاء الثلاثة اختصاص وضحته التوراة فى إصحاحاتها؛ فمثلاً اختصت عشائر الجرشونيين بالنزول وراء مسكن الرب إلى الغرب وكلفتهم بحراسة الآتى فى خيمة الاجتماع : المسكن والخيمة وغطاؤها وسجف باب خيمة الاجتماع وأستار الدار وسجف باب الدار، أما بنو قهات فكانوا ينزلون على جانب المسكن من الجنوب وحراستهم التابوت والمائدة والمنارة والمذبحين وأمتعة القدس والحجاب وكل خدمته، وعشائر مرارى ينزلون على جانب المسكن من الشمال ويحرسون ألواح المسكن وعوارضه وأعمدته وفرضه وكل أمتعته . (٢)

وبعد الاستقرار فى أرض كنعان وإقامة الهيكل زادت اختصاصات اللاويين فأوكل لهم القيام بأعمال أكثر من تلك التى عينتها التوراة فى أسفارها الأولى وتم تقسيمهم إلى أربعة أقسام ؛ أولهم القضاة والكتبة ومن هؤلاء خرج مفسرو الشريعة فكان عزرا واحد منهم . والقسم الثانى مساعدو الكهنة فى خدمة الهيكل . أما القسم الثالث فكان يضم الموسيقيين الذين يقومون بالغناء والترتيل فى الهيكل . وأخيراً كان البوابون المنوط بهم حراسة الهيكل . (٣)

ولابد أن نشير إلى أن اللاويين كانوا يتميزون بهيئة معينة فيلتزمون بلباس معين أثناء خدمتهم الدينية ؛ كان هذا اللباس لابد أن يصنع من الكتان وهذا لابد يذكرنا مرة أخرى بالتنظيم الكهنوتى المصرى فى المعابد ، فهم بالإضافة للكهنة يقابلون كل الشكل التنظيمى

---

(١) العدد ١٨ : ١٥ .

(٢) السفر السابق الإصحاح الثالث .

(٣) زكى شنودة (المجتمع اليهودى ص ١٥٨) .

للكهنوت المصرى .

.. وبعد ، إذا عددنا مسألة دخول أعمال الكهانة إلى الديانة اليهودية صورة من صور انحرافها عن شريعة موسى فليس هناك تفسيراً لذلك إلا فى إطار بحث بنى إسرائيل الدائم عن شكل مادى (للدين) يعوضهم عن الفكرة المجردة للإله ، ومع غيبة الأنبياء الحقيقيين أو اضطهادهم إذا وُجدوا - ودعوا إلى العودة لصحيح الشريعة التى جاء بها موسى - فقد سيطر الكهنة واللاويون على العملية الدينية فصاروا هم المتحكمين فى تفسير الشريعة وتقرير المقدس وغير المقدس وغير ذلك من الأمور الدينية .

وهكذا أضاف الزمن - دائماً - للكهنة واللاويين مكاسب جديدة وسعت لهم مساحة للسيطرة على مقاليد الأمور وأتاحت لهم التكسب المادى على حساب رسالة السماء وشريعة موسى .

مفهوم النبوة فى إسرائيل ONEREEN

«فسأل الرب فلم يجبه لا بالأحلام ولا بالأوريم ولا بالأنبياء» .

الأحلام والأوريم والأنبياء كانت تلك هى الطرق الثلاثة التى يلجأ إليها بنو إسرائيل عند استبصار الرب فى إحدى المسائل الدنيوية (العويصة) .

وطريقتان من الثلاث (إذا استبعدنا الأوريم) تعطيانا إشارة إلى اعتقاد بنى إسرائيل فى أن الله يستعلن للبشر فيوصل إليهم رسالة أو إشارة ما ، ويكون ذلك أثناء نوم الإنسان فيأتى له الإله أو يرسل من يخبره بالرسالة أو يتم ذلك بتوظيف الأنبياء أى تكليفهم بسؤال الإله لمعرفة إرادته فى مسألة ما .

والصورة الأخيرة حقيقية وليست مجازية وهى تنقلنا إلى نقطة خطيرة ألا وهى نظرة بنى إسرائيل للنبوة وأعمالها .

لقد انحرفت هذه النظرة كثيراً مع انحراف العقيدة ولم يقدر بنو إسرائيل قيمة الاختيار والاصطفاء الإلهى للبشر الأنبياء بل كانوا يعتقدون أن النبوة من التنبؤ وعمل النبى أقرب لعمل المنجم والساحر بل كانت هناك مدارس مثل مدارس السحرة والحواة تخصص لإعداد الأنبياء وأشهر هذه المدارس كانت فى إريحا والجلجال .

ويخبرنا سفر صموئيل الأول أن صاحب السفر دعا واحداً من الشعب اسمه شاول لإجراء طقوس مقدسة وهو يمسحه نبياً قال له :

«بعد ذلك تأتى إلى جبعة الله حيث أنصاب الفلسطينين ويكون عند مجيئك إلى هناك إلى المدينة أنك تصادف زمرة من الأنبياء نازلين من المرتفعة وأمامهم رباب ودف وناى وعود يتنبأون فيحل عليك روح الرب فتتنبأ معهم وتتحول إلى رجل آخر». [1]

إذن فقد كانوا يظنون أن روح الرب تأتى بالاستجلاب ويساعد على استحضارها العزف (المقدس) الذى هو أيضاً ميراث طقسى موروث من المعابد المصرية القديمة، والمتتبع لبقية قصة شاول فى أسفار التوراة يفهم أن هذا الرجل كان بعيداً كل البعد عن المؤهلات النفسية للنبوة بمعناها الحقيقى حتى إن مسألة تنبؤ شاول (تحوله إلى نبى) صارت مثلاً يُضرب للسخرية بين معاصريه من بنى إسرائيل :

«ولما جاء إلى هناك إلى جبعة إذا بزمرة من الأنبياء لقيته فحل عليه روح الله فتنبأ فى وسطهم. ولما رآوه جميع الذين عرفوه منذ أمس وما قبله أنه يتنبأ مع الأنبياء قال الشعب الواحد لصاحبه ماذا صار لابن قيس أشاول أيضاً بين الأنبياء فأجاب رجل من هناك وقال ومن هو أبوهم ولذلك ذهب مثلاً . أشاول أيضاً بين الأنبياء» . [2]

وفى إصحاحات تالية تخبرنا التوراة أن شاول هذا صار يتصل بالإله ثم تغير عليه الإله فجأة فندم أن جعله ملكاً على إسرائيل :

«فذهب روح الرب من عند شاول وبغته روح ردى من قبل الرب» . [3]

وذهب عبيد شاول يفتشون عمن يحسن الضرب على العود حتى يمنع الروح الردى عن أن تباغته.

فى التوراة أيضاً يتواتر حديث عن (بنو الأنبياء) والمقصود بهم طلاب التنبؤ فنجد مثلاً فى سفر أخبار الأيام الثانى الإصحاح الثامن عشر أن آخاب ملك إسرائيل جمع زمرة من الأنبياء يبلغ عددهم أربعمائة (دفعة واحدة) وسألهم فى أمر ذهابه للقتال [4] ، وعن هؤلاء وأمثالهم يقول النبى أرميا فى سفره كاشفاً زيفهم وضلالهم :

---

(١) صموئيل الأول ١٠ : ١٠ - ١٢ .
(٢) صموئيل الأول ١٠ : ١٠ - ١٢ .
(٣) السفر السابق ١٦ : ١٤ .
(٤) القصة وردت فى أخبار الأيام الثانى ١٨ : ٥ .

«فقال الرب لى بالكذب تنبأ الأنبياء . باسمى لم أرسلهم ولا أمرتهم ولا كلمتهم . برؤيا كاذبة وعرافة وباطل ومكر قلوبهم هم يتنبأون لكم» . (١)

وهكذا اختلط فى عقيدة بنى إسرائيل النبوة الموهوبة من الإله بالتنبؤ الحرفة أو الصنعة التى هى من عمل الشيطان تستجلب عن طريق السحر والعرافة ، وعن بعض هؤلاء ورث بنو إسرائيل ميراثاً مكتوباً جعلوه مرجعاً يستهدون به فذكرت التوراة أن مصادرها أسفار جاد الرائى وصموئيل الرائى ورؤية عدو الرائى وناثان النبى ؛ بل وتقص خبرمن سيرتهم وهى تحكى عن نبيى الله داود وسليمان بل أنها قدست تلك السيرة ورفعتها درجات عن سيرتى داود وسليمان فجعلت صموئيل يعين ويعزل الملوك ويمسح الأنبياء فى إسرائيل ويرضى ويسخط ويمسك السيف بيده فيقطع به رقبة أسير أعزل وجعلت ناثان يحاكم النبى داود ، ولا نجد فى سيرتى صموئيل وناثان ما يؤهلهما لهذا التكريم والاصطفاء .

وعلى هذا الدرب كان سهلاً أن تقبل التوراة كل الأساطير التى تدعى أن الوثنيين يستطيعون الاتصال بالله ومن هؤلاء إبيمالك وما قصته مع نبى الله إبراهيم وولده إسحق ببعيدة كذا بلعام بن فغور وقصته الأسطورية فى الاتصال بالإله على الرغم من أن التوراة لم تورد أى خبر يثبت إيمانه بشريعة موسى وربه !

ومن المفاهيم المغلوطة التى تقررها التوراة أيضاً فى مسألة النبوة أن جعلتها للنساء ، وهناك ثلاث نسوة تذكرهن الإصحاحات بالاسم والصفة ، وحسب ترتيبهن التاريخى فالأولى كانت مريم أخت موسى وهارون :

«فأخذت مريم النبية أخت هارون الدف وخرجت جميع النساء وراءها بدفوف ورقص» . (٢)

ثم تليها (تاريخيا) دبورة :

«امرأة نبية زوجة لفيدوت هى قاضية إسرائيل فى ذلك الوقت». (٣)

ثم خلدة :

«فذهب حلقيا الكاهن وأخيقام وعكبور وشافان وعسايا إلى خلدة النبية امرأة شلوم». (٤)

---

(١) أرميا ١٤ : ١٤ .

(٢) خروج ١٥ : ٢٠ .

(٣) قضاة ٤ : ٤ .

(٤) الملوك الثانى ٢٢ : ١٤ .

ومع رفضنا التام أن تضطلع امرأة بأمر النبوة فإن المتتبع لسيرة (النبيات) الثلاث سوف يكتشف أن بنى إسرائيل ربما وصفوا الأولى (مريم) بهذه الصفة بحكم أنها أخت نبيين (موسى وهارون) أما دبورة فربما لكونها قاضية وحسب مفهوم بنى إسرائيل عن قضاتهم أنهم كانوا يعينون بمرسوم إلهى : «**وأقام الرب قضاة فخلصوهم**» .[1]

لكن يبدو أن التوراة كانت تأبى إلا أن تترك لنا من الثغرات ما يساعدنا على اكتشاف الزيف فها هى ذى على لسان دبورة (النبية) نفسها تقرر اعترافها بالنقص لكونها امرأة فتعفينا من هذا الحرج .

«فقال لها باراق إن ذهبت معى أذهب .... فقالت إنى أذهب معك غير انه لا يكون لك فخر فى الطريق التى أنت سائر فيها لأن الرب يتبع سيسراً بيد امرأة».[2]

أما خلدة فلم تكن إلا امرأة (متنبئة) تخبرنا التوراة أن أحد ملوك إسرائيل أرسل يسألها عن كلام وجدوه فى سفر تم اكتشافه فلم تجبه عن سؤاله ولكن أخبرته برؤيا تتعلق بالمستقبل فهى بذلك لم تناقش شريعة ولم تدعو لتقرير إيمان أو تدحض وثنية وشرك لكن كان كلامها تنبؤ عن أحداث مستقبلية كانت تلك الأحداث عند جمع التوراة قد وقعت بالفعل (مثل السبى البابلى وخراب أورشليم) وكان سهلاً أن يضع كتبة التوراة تلك الأقوال على فم خلدة لكن هل أتت خلدة من أعمال النبوة ما تستحق عليه وصف نبية ؟!

إن فى هذه النقطة بالذات يساورنى سؤال ليس بغريب مادام أنه لا حياء فى الدين :

كيف كان الوحى يتصل بالنبية خلدة وأخواتها فى حال طمثهن ؟!

مفهوم التبرير فى التوراة

فى محاولات الكتبة والكهان لضبط حوادث التوراة وإعطائها بعداً دينياً مقدساً لجأوا إلى ما نسميه (مفهوم التبرير) ، وحسب هذا المفهوم فقد حاول الكتبة - دائماً إعطاء سند إلهى تاريخى لأكثر الحوادث الوارد ذكرها فى التوراة .

وربما اعتقدوا أن هذا السند يضفى على تلك الأحداث صفة الشرعية ويدعم صدقها حتى لو كانت تجافى العقل والمنطق مادامت هى إرادة السماء .

---

(١) قضاة ٢ : ١٧ .

(٢) قضاة ٤ : ٨ - ٩ .

ومن الأسفار الأولى التى تحكى عن أجداد إسرائيل الأول الضاربين بجذورهم إلى عهد سام بن نوح كما تدعى التوراة وحتى آخر الأيام التى حكت عنها التوراة نجد هذا التبرير الدائم للأحداث حتى أننا نستطيع أن نكتشفه فى كل حادثة ملفقة فنجد وراءها يختفى هذا المفهوم التبريرى المختلق الذى تظهر فيه الصفة التأليفية واضحة ، وعلى سبيل المثال لا الحصر :

فقد بررت التوراة الموقف العدائى لبنى إسرائيل من الكنعانيين إلى سبب قديم جداً يعود إلى عهد نوح ، فتحكى رواية التوراة أن حام أحد أبناء نوح الثلاثة قد كشف عورة أبيه فلما عرف أبيه الخبر لعن ذرية حام فى كنعان أبنه ونسله وحكم عليه بأن يكون عبداً لأخويه (سام ويافث) .

وبذلك تنسى التوراة أنها تخالف مبدأ هاماً ووصية ترفض أن يحمل الأبناء وزر الآباء وجرم حام (إن كان قد حدث بالفعل) يستأهل أن يحمل حام وزره وحده وليس نسله إلى أبد الآبدين !!

أيضاً من الأمثلة التى تفضح هذا المنطق التبريرى لكهنة إسرائيل وشيوخها تلك القصة التى وردت فى سفر القضاة تحكى كيف كاد سبط بنيامين يفنى عن آخره لولا خلق مبرر لبقائه ، وملخص القصة أن رجل من سبط لاوى اتخذ سرية من بيت لحم يهوذا فهجرته تلك السرية إلى بيت أبيها فاصطحب الرجل فتاه وذهب يستردها فاستضافه أبيها أربعة أيام وفى اليوم الخامس انطلق الرجل وامرأته وفتاه يطلبون العودة من حيث أتوا فلما جن عليهم الليل فى طريق عودتهم مالت القافلة الصغيرة لتبيت ليلتها فى جبعة بنيامين التى فضلوها على مدن اليبوسين لأنه ليس بها أحد من بنى إسرائيل لكن أبى أهل بنيامين أن يضيفوهم . فاستضافهم شيخ غريب عن بنيامين حيث خاف عليهم أن يبيتوا ليلتهم فى الساحة ، وبينما هم فى بيت الشيخ جاء رجال من بنيامين يطلبون ضيفه ليفعلوا فيه مثلما أراد أهل سدوم أن يفعلوا فى ضيفى لوط ؛ فعرض عليهم الشيخ أبنته وسرية الرجل فلم يرد الرجال أن يسمعوا له ، وهنا أمسك الضيف سريته ودفعها للرجال فتعللوا بها طيلة الليل وعند الصباح وجدوها ميتة عند عتبة باب البيت فحملها الرجل على حماره وعاد بها إلى مكانه فقطعها أثنتى عشرة قطعة وأرسل كل واحدة منها إلى سبط من الأسباط .

واجتمع بنو إسرائيل من دان إلى بئر سبع يتشاورون فى أمر هذه الفعلة الشنعاء واستقر الرأى على أن يذهب وفد إلى بنيامين يطلب تسليم الجناة لكن بنى بنيامين رفضوا ذلك بل واجتمعوا على محاربة باقى الأسباط فكانت الحرب بين سبط بنيامين وباقى الأسباط وبعد كر وفر دارت

الدائرة على بنيامين فهلك منهم خمسة وعشرون ألف ومائة رجل ولم ينج إلا ٦٠٠ (دائماً التوراة تهوى الأرقام الضخمة المغلقة على المئات والآلاف) وهؤلاء الذين نجوا هربوا إلى البرية ، وحسب دستور إسرائيل الوحشى فى الحرب فقد أبادوا نساء بنيامين بالحرق حتى البهائم حرقوها مع أنه لم يأت أمر إلهى بذلك فى هذه المرة .

أما وقد انتهت المعركة بما يشبه الإبادة لسبط بنيامين فقد اجتمع شيوخ وآباء باقى الأسباط يبكون ويولولون ويعتبون على الرب :

«لماذا يا رب يا إله إسرائيل حدثت هذه فى إسرائيل حتى يفقد اليوم من إسرائيل سبط» !!

وعكف حكماء وشيوخ الأسباط يفكرون فى إيجاد مخرج من هذه الورطة وينمّوا رجال سبط بنيامين الذين بقوا على قيد الحياة لكن كيف السبيل إلى ذلك وقد أقسموا من قبل ألا يزوجوهم بناتهم ؟!

وهنا تفتق الذهن اليهودى عن فعلة لا تقل بشاعة عن فعلة الرجال البطالين من سبط بنيامين . فقد أبادوا مدينة كاملة برجالها وأطفالها ونسائها ليفوزوا ببناتها العذارى لرجال بنيامين .

«فأرسلت الجماعة إلى هناك أثنتى عشر ألف رجل من بنى البأس وأوصوهم قائلين أذهبوا وأضربوا سكان يابيش جلعاد بحد السيف مع النساء والأطفال وهذا ما تعملونه تحرمون كل ذكر وكل امرأة عرفت اضطجاع ذكر . فوجدوا من سكان يابيش جلعاد أربع مائة فتاة عذراء لم يعرفن رجلاً بالاضطجاع مع ذكر وجاءوا بهن إلى المحلة .... وأرسلت الجماعة كلها وكلمت بنى بنيامين الذين فى صخرة رموز واستدعتهم إلى الصلح . فرجع بنيامين فى ذلك الوقت فأعطوهم النساء اللواتى استبحوهن من نساء يابيش جلعاد ولم يكفوهم هكذا» . (١)

لقد وجدوا عجزاً يساوى مائتى فتاة لابد أن يوفرهم حكماء إسرائيل حتى يزوجوا كل من بقى حياً من سبط بنيامين ؛ فتفتق ذهنهم عن حيلة أخرى حيث أوصوا رجال بنيامين الباقين باختطاف فتيات شيلوه يوم احتفالهن بعيد الرب ومن يفعل يتخذها امرأة لنفسه فإذا ذهب آباؤهن للشكوى يطلب منهم شيوخ إسرائيل أن يتراءفوا على رجال بنيامين !!

***

---

(١) القصة كلها تجدها فى سفر الإصحاحات ١٩ ، ٢٠ ، ٢١ .

هل نستطيع أن نتخذ القصة السابقة نموذجاً ومثالاً يكشف ميكانيزم العقلية اليهودية ؟!

نحن لا نهوى تعميم النتـائج أو اختزال نتائج الحوادث الفردية أحكاماً عامة توسم شـعباً كاملاً بصفات مـعينة ، لكننا أيضاً لا نستطيع أن نغـفل إشارات يدعمها تكرار النـموذج على نسق معين من التفكير فـسيادة هذا المنطق التبريرى الـلاأخلاقى - فى الكثير من أساليـبه - من أجل الوصول إلى غايـات مادية يعنى أنه أحـد مكونات العقليـة الإسرائيليـة وهى التى ورثهـا أيضاً عزرا كـاتب التوراة وعلى أسـاس من الـلاوعـى قَبِـل أساطير التبـرير التوراتيـة على أنهـا من أعمـال الوحـى وقياساً على هذا:

فلقـد رمت التوراة مـبكراً طعم قصـة زنا أبنتى لوط بأبيـهما لـتبرر - فـيمـا بعد - حـرب بنى إسرائيل ضد نسل الزنا العمونيين والموآبيين وهى قصة مختلقة - كما قلت - واضح فيها التلفيق .

أوجـدت التوراة أيضـاً المبـررات لإخراج نسل عـيـسو أخـو يعـقوب (إسـرائيل) من الأرض الموعودة بأن جعلت البركة مقصورة على نـسل الأخير متوارثة من الأب (إسحق) حتى ولو كانت مسروقة ، وهى التى من قبل جعلت هذه البركة مقصورة على إسحق دون إسماعيل أخيه !

***

أيضاً أرجع بنو إسـرائيل اعتداءاتهم المتكررة ووحـشيتهم فى الحـرب ضد جيرانهم لتـبريرات دينية فى أغلب الأحـوال أو تنفيذاً لوصيـة مقدسـة (تقول التوراة إن موسى أوصى بإبادة عـماليق) فجاء شـاول بعد سنين طويلة لينفذ الوصية فـحرم بحد السيف عماليق لـكنه أخطأ خطأ شنيعاً بأن أبقى على حياة ملك عماليق وبضع ماشية وأغنام ليقـدمها قرباناً للرب فجعلت التوراة ذلك مبرراً لذهاب المُلك عن شاول إلى داود !!

وجعـلت التوراة سـبباً لإنقـسام مملكـة بنى إسرائيل بعـد سليمـان إلى مملكتين متناحـرتين بأن وصمت سليمـان بالشرك وأنه (لم يكن قلبه كاملاً مـع الرب إلهه كقلب داود أبيه) وتزعم التوراة أن الرب قال لسليمان :

> «من أجل أن ذلك عندك ولـم تحفظ عـهدى وفرائضى التى أوصيتك بهـا فإنى أمزق المملكة عنك تمزيقاً وأعطيـها لعبدك . إلا أنى لا أمـزق منك المملكة كلها بل أعطى سبطاً واحداً لإبنك لأجل داود عبدى ولأجل أورشليم التى اخترتها» .[1]

---

(١) الملوك الأول ١١ : ١١ - ١٣

وعندما شرع عزرا فى جمع بنى إسرائيل للعودة بهم إلى فلسطين إبان السبى البابلى برر كاتب التوراة طرده للعنصر غير اليهودى تبريراً دينياً بينما كانت أسبابه الحقيقية فى ذلك سياسية اجتماعية فى محاولة منه للحفاظ شكلياً على مظهر متماسك لجماعة إسرائيل والطنطنة بمسألة القومية اليهودية مقابل حكام الفرس ، وكان عزرا يبحث أيضاً عن مبرر قوى لإقناع أكثر اليهود بالعودة إلى فلسطين فلم يجد خيراً من الدين يؤثر به على الوجدان فيثير العاطفة نحو أرض الميعاد ويحيى فيهم وعود الرب التى قطعها لهم علامة ودليلاً على رضائه عن شعبه وابنه البكر إسرائيل.

الأعداد فى التوراة

القارئ للتوراة سيدهشه ولعها بالأعداد والمبالغة فى ذكرها أيما مبالغة ، وأول ملاحظة فى هذا الصدد تجدها فى الحديث عن تعداد الشعب الذى خرج من مصر ، ودخولهم كان فى سبعين نفساً (رجل وامرأة وطفل) بينما خروجهم (كما تقول التوراة) كان فى أكثر من مليون نفس !!

وعن هذا يقول سفر العدد **إن الرب طلب من موسى فى البرية فى أول الشهر الثانى السنة الثانية لخروجهم من مصر أن يحصى شعب إسرائيل ابن عشرين سنة فصاعداً فكان ناتج هذا الإحصاء ستمائة ألف وثلاثة وخمسمائة وخمسين ..** [1] فإذا قدرنا عدد النساء والصبية دون العشرين والأطفال وأضفناهم إلى هذا العدد سيكون الناتج أكثر من مليون !

يقول أيضاً سفر الخروج إن مدة إقامة بنى إسرائيل فى مصر كانت ٤٣٠ سنة **«وأما إقامة بنى إسرائيل التى أقاموها فى مصر فكانت أربعمائة وثلاثين سنة .... وكان عند نهاية أربعمائة وثلاثين سنة .....»** [2] إلى آخره .

وعن عدد الخارجين من مصر ومدة إقامة بنى إسرائيل فيها لنا ملاحظتان :

الأولى : إن مدة إقامة بنى إسرائيل فى مصر حتى لو بلغت ٤٣٠ عاماً كما تقول التوراة فمن المستحيل أن يبلغ تعدادهم فى هذه السنين أكثر من مليون نسمة لأن هذا معناه أنهم تضاعفوا ١٤٢٨٥ مرة !

---

(١) سفر الله الإصحاح الأول .

(٢) سفر الخروج ١٢ : ٤٠ .

والثانية : إن مدة إقامة بنى إسرائيل فى مصر لا يمكن أن تكون بأية حال من الأحوال ٤٣٠ عاماً والسبب نستطيع أن نكتشفه فى الإصحاح السادس من سفر الخروج ، فإذا تتبعنا أجيال بنى إسرائيل المولودة فى مصر وعلى سبيل المثال ذرية لاوى بن يعقوب التى وردت فى هذا الإصحاح من هذا السفر تقول :

«وهذه أسماء بنى لاوى بحسب مواليدهم جرشون وقهات ومرارى . وكان سنو حياة لاوى مئة وسبعة وثلاثين سنة ..... وبنو قهات عمرام ويصهار حبرون وعزيئيل ... وكانت سنو حياة قهات مئة وثلاثاً وثلاثين .... وأخذ عمرام يوكابد عمته زوجة له فولدت له هارون وموسى وكانت سنو حياة عمرام مئة وسبعاً وثلاثين سنة» . [١]

ومعنى ذلك أن موسى من الجيل الثانى المولود فى مصر

لاوى - قهات - عمرام - موسى

وميلاد جيلين فى مصر لا يمكن أن يستغرق كل هذه السنين بمعنى أنه لكى يعيش بنو إسرائيل تلك المدة فى مصر يكون قهات مولود عند موت أبيه لاوى ، وعمرام مولود عند موت أبيه قهات وموسى مولود عند موت أبيه عمرام أى تحسب الأعمار دون أى تداخل وهذا مستحيل ، والأقرب إلى الصحة بالنسبة للسنين التى عاشها بنو إسرائيل فى مصر هو النتيجة التى وصل إليها أحد الباحثين [٢] وتقدر تلك المدة بحوالى ٢٣٠ عاماً .

إذن فما هو التفسير المعقول للأعداد الكبيرة التى خرجت مع موسى ؟!

نحن نعتقد أن الذين خرجوا مع موسى لم يكونوا بنى إسرائيل فقط ولكن كان بينهم غرباء كثيرون بل كان فيهم أيضاً مصريون آمنوا بدعوة موسى التوحيدية وخرجوا معه خوفاً من بطش فرعون وهرباً بدينهم والدليل أن الشريعة الموسوية ذكرت دائماً فى نصوصها ذلك الغريب الذى ليس من نسل إسرائيل وساوته فى الحقوق مع الإسرائيلى على الرغم من أن التوراة وبالذات فى سفر تثنية الاشتراع قد لوت عنق تلك الشريعة وأوردت من النصوص ما ينفى الآخر ويسلبه حقوقه الإلهية لصالح الإسرائيلى .

---

(١) الخروج : ٦ .

(٢) الباحث هو محمد قاسم محمد وبحثه منشور فى كتاب بعنوان التوراة من آدم حتى سبى بابل .

«كل من أكل مختمراً تقطع تلك النفس من جماعة إسرائيل . الغريب مع مولود الأرض».[1]

«إذا نزل عندكم غريب أو كان أحد فى وسطكم فى أجيالكم وعمل وقود رائحة سرور للرب فكما تفعلون كذلك يفعل . أيتها الجماعة لكم وللغريب النازل عندكم فريضة واحدة دهرية فى أجيالكم . مثلكم مثل الغريب أمام الرب . شريعة واحدة حكم واحد يكون لكم وللغريب النازل عندكم» . [2]

«يصفح عن كل جماعة إسرائيل والغريب النازل بينهم» . [3]

«أما النفس التى تعمل بيد رفيعة من الوطنية أو من الغرباء فهى تزدرى بالرب فتقطع تلك النفس من بين شعبها» . [4]

«يكون لكم فريضة دهرية إنكم فى الشهر السابع من عاشر الشهر تذللون نفوسكم وكل عمل تعملون . الوطنى والغريب النازل فى وسطكم» . [5]

«كل إنسان من بيت إسرائيل ومن الغرباء الذين ينزلون فى وسطكم» . [6]

وفى معرض وصية موسى لبنى إسرائيل التى أوردها سفر التثنية أن موسى قال للشعب :

«أنتم واقفون اليوم جميعكم أمام الرب إلهكم . رؤساؤكم أسباطكم . شيوخكم . وعرفاؤكم وكل رجال إسرائيل وأطفالكم ونساؤكم وغريبكم الذى فى وسط محلتكم ممن يحتطب حطبكم ويستقى ماءكم» .

ودلالة النص واضحة لا تحتاج إلى شرح وما المقصود بالغريب هنا إلا الذى ليس من ذرية إسرائيل وكون الشريعة تنزل متضمنة هذا الغريب فهذا معناه أنها قبلت هذا الغريب وأدخلته ضمن شعب إسرائيل أو جماعة الرب كما تسميه التوراة ، وفى هذا فنحن نتحفظ على تحريف الكهنة لهذا التشريع الصريح - فيما بعد - ووضعهم شروط وعراقيل لدخول جماعة الرب أشار إليها سفر تثنية الاشتراع عندما قال :

---

(١) خروج ١٢- ١٩ .
(٢) عدد ١٥ : ١٤ - ١٦ .
(٣) عدد ١٥ : ٢٦ .
(٤) عدد ١٥ : ٣٠ .
(٥) عدد ١٦ - ٢٩ .
(٦) لاويين ١٧ : ٨ ويتكرر التشريع بذكر الغريب والوطن أكثر من مرة .

«لا تكره أدوميا (بنى عيسو) لأنه أخوك . ولا تكره مصرياً لأنك كنت نزيلاً فى أرضه . الأولاد الذين يولدون لهم فى الجيل الثالث يدخلون منهم فى جماعة الرب» .

وحيث لا يورد النص سبباً ظاهراً يتعلق بغلق باب الجنسية اليهودية أمام الآدوميين والمصريين حتى الجيل الثالث فنحن نستطيع أن نتشمم رائحة الكهنة فى هذا التشريع العنصرى الفج والذى كان قد سبقه مباشرة فى نفس الإصحاح تشريع آخر يمنع إنضمام العمونى والموآبى أو ابن الزنا لجماعة الرب وحتى الجيل العاشر وهذا حكم ينافى الحكمة الإلهية التى لا تفرق بين الأفراد بسبب الجنس أو اللون أو الأصل حتى ابن الزنا قد يكون مؤمناً موحداً وخيراً من ألف من جماعة الرب .

إن هذا الغريب نفسه قد صدّر مشكلة لإسرائيل وكهنتها عندما فضح تفكيرهم العنصرى ، وقد سبق وأوردنا تلك النصوص الكثيرة التى تدعو لمساواة الغريب بالوطنى ثم تفاجئنا نصوص أخرى كهنوتية فتصدمنا عندما تنص على :

«لا تأكلوا جثة ما تعطيها للغريب» . [(١)]

أو .. **«للأجنبى تقرض بربا ولكن لأخيك لا تقرض بربا»** . [(٢)]

أو .. **«وأما عبيدك واماؤك الذين يكونون لك فمن الشعوب الذين حولكم منهم تقتنون عبيداً وإماء ومن عشائرهم الذين عندكم الذين يلدونهم فى أرضكم فيكونون ملكاً لكم . وتستملكونهم لأبنائكم من بعدكم ميراث ملك . تستعبدونهم إلى الدهر»** . [(٣)]

وعلينا أن نلاحظ أن هذه التفرقة فى المعاملة والتشريع جاءت فى نصوص التثنية التى أعاد فيها الكهنة بلا مواربة ولا خجل صياغة الشريعة فنسخوا وغيروا وبدّلوا وقَبِل عزرا السفر على صورته تلك بينما رفضه السامريون .

***

وقبل أن نترك مسألة أعداد الخارجين مع موسى لابد أن نشير إلى رأى عالم النفس اليهودى الشهير فرويد الذى تساءل عن العناصر التى كونت الخارجين مع موسى من مصر وكانت إجابته أن أكثرهم كانوا من الطارئين على البلاد من غير المصريين فيهم الساميون البدو من عبريين

---

(١) تثنية ١٤ : ٢١ .

(٢) تثنية : ٢٠ .

(٣) لاويين ٢٥ : ٣٩ - ٤٦ .

وآدوميين وبابليين وكنعانيين وأيضاً من غير الساميين النازحين من جنوب وادى النيل ومن الصحراء الغربية ومن جزائر بحر إيجة والبحر الأبيض المتوسط ، ومن المحتمل أن تكون هذه الأخلاط من الناس مكونة من بعض الحرفيين والجنود المرتزقة والعبيد وأسرى الحروب ونحوهم ممن لا تربطهم بمصر صلة ولا يملكون فيها داراً ولا أرضاً مما هون عليهم أمر الرحيل وترك هذه البلاد . أما المصريون فهم فى رأى فرويد كانوا قلة قليلة أو بالتحديد هم التسعون رجلاً الذين اختارهم النبى موسى وجعل لهم القيادة فى مجتمعه الجديد . (١)

***

ونعود مرة أخرى لحديث الأرقام والإحصاءات فى التوراة ..

ونلاحظ تلك العناية الفائقة بذلك الحديث إلى الدرجة التى تذكر فيها التوراة بإفراط أعمار الأفراد وأزمنة الحوادث والوقت الذى استغرقته . وتنص بدقة على مقاييس ومواصفات الأبنية (خيمة الاجتماع والهيكل مثلاً) بل تفاصيل الفرش والمقاسات الداخلية للبناء مثل المائدة المقدسة ومذبح البخور والمحرقة وأستار الدار إلى أخر هذه الأشياء .

بل أن هناك سفراً كاملاً فى التوراة سمى سفر العدد ورد فيه إحصاء أسباط بنى إسرائيل حسب مواليدهم وعشائرهم وبيوت آبائهم ، وجنودهم وقرابين رؤساء العشائر لتدشين المذبح كذا الآنية المقدسة وزينتها وعدد المناضد والقرابين من البهائم ووصفها .. إلى أخره .

لكن بعض الأعداد التى وردت فى نصوص التوراة إعتراها التناقض أحياناً ؛ نجد ذلك واضحاً فى أعمار النبى إبراهيم وأجداده ، والأهم من رصد ذلك التناقض نسأل : لأى سبب يعتنى الإله هذه العناية الفائقة بالتواريخ والأعداد والمقاييس والتعددات حتى إنه يُنزل بها وحياً من السماء يمليها على الكتبة ؟!

وعلى العكس من ذلك فمع عناية النص التوراتى بذلك فى أسفاره الأولى نجد أن الزمن تحول فى الأسفار الأخيرة إلى زمن مطلق غير محدد ويبدو أن كاتبى التوراة وهم يعيدون ترتيبها وجمعها إبان السبى سيطرت على أحلامهم فكرة إيجاد رابطة أبدية بينهم وبين الإله آملين ألا يتخلى عنهم مرة أخرى وإلى الأبد وعليها فقد أسرفوا فى استخدام لفظ التأبيد وصار الزمن عندهم بلا نهاية :

«اجعل المُلك فى نسلك إلى الأبد» .

---

(١) الرأى السابق المنقول عن فرويد أورده د . حسن ظاظا فى كتابه الفكر الدينى الإسرائيلى ص ١٩ .

«أبارك نسلك إلى الأبد»

أيضاً لا يفوتنا هنا ملاحظة هامة ، فمع اعتناء التوراة بسرد تاريخ بنى إسرائيل فقد حدثت ندرة فى رواية تاريخ مملكة الشمال (إسرائيل) بعد انفصالها وذلك بسبب هروب الكهنة إلى مملكة الجنوب (يهوذا) وبالتالى فقد تم إلى حد كبير ضبط أخبار مملكة يهوذا على حساب أخبار مملكة إسرائيل التى انقطعت فى التوراة تقريباً وعلى من يريد الاستزادة فعليه أن يرجع إلى سفر أخبار الأيام الثانى .

ولا أعتقد أن الإله ينسى أو يفشل فى معرفة الأخبار والتواريخ فى مملكة الشمال لحساب مملكة الجنوب !

الأمراض المقدسة CRTEN

.. ويخبرنا سفر الأيام الثانى عن عزيا ملك يهوذا الذى خان الرب فدخل هيكله ليوقد له بنفسه مخالفاً طقوس الكهانة التى تقضى بأن يفعل ذلك الكهنة ؛ فلما منعه الآخرون حقد عليهم وعند ذلك خرج فجأة برَصٌ من جبهته ، وإذا هو أبرص فى جبهته فطردوه من هناك .

ويبدو أن هذا المرض بالتحديد (البرَص) قد استمد مكانته الأسطورية عند بنى إسرائيل منذ تلك الواقعة التى أظهر فيها الرب معجزته فى موسى وهو يحادثه فى الوادى المقدس فضرب يده بالبرص ثم شفاه منه بلحظة .

ويبدو أن تلك الحادثة أورثت فى عقلية بنى إسرائيل اعتقاداً مؤداه أن مرض البرص هو قمة انتقام الرب من العبد وهو دليل دائم على نجاسة المصاب به ، وجعل سفر اللاويين شريعة لهذا المرض قيل أنها منزلة من السماء .

> **«وكلم الرب موسى وهارون قائلاً إذا كان إنسان فى جلد جسده ناتئ أو قوباء أو لمعة تصير فى جلد جسده ضربة برص يؤتى به إلى هارون الكاهن أو أحد بنيه الكهنة فإن رأى الكاهن الضربة فى جلد الجسد وفى الضربة شعر أبيض ومنظر الضربة أعمق من جلد جسده فهى ضربة برص فمتى رآه الكاهن يحكم بنجاسته» .**

ويمضى الإصحاح يصف الفروق بين البرص والحزاز ، ويسرد الطقوس التى يجريها الكاهن على صاحب المرض الأخير ليطهر ، ويبين متى يكون المضروب بالبرص طاهراً ومتى يكون نجساً كل ذلك بتفصيلات كثيرة .

ومن برص الإنسان تنتقل الإصحاحات إلى برص الملابس والأقمشة التى تعرض أيضاً على الكاهن ليقرر إصابتها من عدمه وكذا برص المبانى (البيوت) ، ومثل البرص هناك شريعة للقرع والناتئ والقوباء واللمعة وذى السيل والعليلة فى طمثها .

وللطهارة من مرض البرص طقوس شكلية غريبة تنتهى بتقديم ذبيحتى خطية ومحرقة مع تقدمه.

«وكلم الرب موسى قائلاً هذه تكون شريعة الأبرص يوم طهره يؤتى به إلى الكاهن ويخرج الكاهن إلى خارج المحلة فإن رأى الكاهن وإذا ضربه البرص برئت من الأبرص يأمر الكاهن أن يؤخذ للمتطهر عصفوران طاهران وخشب أرز وقرمز وزوفا . ويأمر الكاهن أن يذبح العصفور الواحد فى إناء خزف على ماء حى . أما العصفور الحى فيأخذه مع خشب الأرز والقرمز والزوفا ويضمها مع العصفور الحى فى دم العصفور المذبوح على الماء الحى وينضح على المتطهر من البرص سبع مرات فيطهره ثم يطلق العصفور الحى على وجه الصحراء فيغسل المتطهر ثيابه ويحلق كل شعره ويستحم بماء فيطهر ثم يدخل المحلة لكى يقيم خارج خيمته سبعة أيام . وفى اليوم السابع يحلق كل شعر رأسه ولحيته وحواجب عينيه وجميع شعره يحلق ويغسل ثيابه بماء فيطهر» . [١]

وبعد ذلك يقدم البارئ من المرض التقدمات والمحرقات للكهنة .

وتخبرنا أيضاً قصص التوراة أن مريم أخت هارون وموسى أصابها البرص عندما تكلمت على موسى بسبب زواجه من المرأة الكوشية فلما طلب موسى من الرب شفائها أمره الرب أن تحجز سبعة أيام خارج المحلة ثم عادت وقد شفيت» . [٢]

أما تثنية الاشتراع فقد اشتملت على شريعة أخرى لبعض الأمراض :

«أنتم أولاد للرب إلهكم لا تخمشوا أجسامكم ولا تجعلوا قرعة بين أعينكم لأجل ميت لأنك شعب مقدس للرب إلهك» . [٣]

وعلى أساس أن الشعب اليهودى مقدس للرب فقد نصت أيضاً شريعة التثنية ألا يدخل محصبى بالرص أو مجبوب جماعة الرب . [٤]

---

(١) لاويين ١٤ : ١ - ٩ .

(٢) القصة وردت فى سفر العدد ١٢: ١ - ٦ .

(٣) تثنية ١٤ : ١ - ٢ .

(٤) تثنية ٢٣ .

وهكذا صدر الحكم ولم تخبرنا النصوص عن حيثياته !

وفى سفـر العدد نجـد شريعة نجـاسة المرأة بعـد الولادة ونلاحظ فيهـا أن التوراة تفـرق فى مدة النجاسة حسب نوع المولود فـإذا كان ذكراً فالمرأة تكون نجسة سبـعة أيام ثم تقيم ثلاثة وثلاثين يوماً فى دم تطهيرها أما إذا كان المولود أنثى فالمدة ترتفع إلى أربعة عـشر يوماً للنجاسة وستة وستين فى دم التطهير !!

وهكذا طالت الأسطورة حتى المرض الذى لا يكون للإنسان يد فيه !

الدراما التوراتية CRNEEY

نظرية الدرامـا التى أسس لها أرسطو تفـترض أن التراجـيديا بدأت بالقـصة الخرافـية البـسيطة (الأسطورة أو الأحدوثة) والقصـة البسيطة أو الحدث الدرامى البسـيط لا تكون المأساة فيها نتـيجة للإنقلاب أو الاستكشاف الذى يعنى تغير الأحداث إلى عكس مـا كان متوقعاً من ظروف الحدث شريطة أن ينبع هذا الإنقلاب بالتسلسل الحتمى أو المحتمل .

ولابد للتراجيديا أن تحتوى على ستة أجزاء أهمها القصة ثم الطباع أو سمات الشخصية المميزة أو العواطف وهذان العنصران يندرجـان تحت ما يسمى موضوع المحـاكاة ثم يأتى النظم فى المرتبة الثالثة وهو إما أن يكون نثراً وإما شعراً .

.. وبعد ، فالتراجـيديا ليست محاكاة للأشخـاص ولكن محاكاة للأفعال ، للسـعادة أو الشقاء على أننا يجب أن نضع فى الاعتبار أن الخير المطلق هو الهدف الحقيقى للحياة .

وبناء على مـا سـبق هل نسـتطيع أن نوصّف القـصص التـوارتيـة ؟! وتحت أى نوع من أنواع الدراما ندرجها ؟!

بمعنى هل هى دراما بسيطة أم دراما مركبة ؟!

وعفواً للذين لازالوا يعتقدون أن الكلام على هذه الصورة لا يصح على نص مقدس .

إن فحص قصـة وردت فى سفر العدد سـوف يثبت لهؤلاء - الذين أعنيهم بـالاعتذار - خطأ نظرتهم للنص التوراتى .

والقـصة تبدأ بـتمهـيد قـصيـر يوضح خشـية الموآبين من هجـمة بنى إسـرائيل الغزاة الفـاتحين لتخوفهم :

«وضجر موآب من قبل بنى إسرائيل فقال موآب لشيوخ مديان الآن يلحس الجمهور كل ما حولنا كما يلحس الثور خضرة الحقل» .

وبعد هذا التمهيد تبدأ الأحداث بتقديم إحدى الشخصيات الرئيسية فى الحدث :

«وكان بالاق بن صفور ملكاً لموآب فى ذلك الزمان» .

ثم تثنى القصة بالشخصية الثانية أو البطل الأول فتقدمه :

«فأرسل (ملك موآب) رسلاً إلى بلعام بن بعور إلى فتور التى على النهر فى أرض بنى شعبه ليدعوه قائلاً . هو ذا شعب قد خرج من مصر . هو ذا قد غشى وجه الأرض وهو مقيم مقابلى فالآن تعال والعن لى هذا الشعب لأنه أعظم منى . لعلنا يمكننا أن نكسره . فاطرده من الأرض . لأنى عرفت أن الذى تباركه مبارك والذى تلعنه ملعون» .

وهكذا ألقت لنا القصة مبكراً بخطاف أو كما يسميه الدراميون (الهوك) حتى لا تشتتنا وربطتنا بموضوعها حتى تضمن منا متابعة التفاصيل :

«فانطلق شيوخ موآب . وشيوخ مديان وحلوان العرافة فى أيديهم وأتوا إلى بلعام وكلموه بكلام بالاق . فقال لهم بيتوا هنا الليلة فأرد عليكم جواباً كما يكلمنى الرب . فمكث رؤساء موآب عند بلعام . فأتى الله إلى بلعام وقال من هم هؤلاء الرجال الذين عندك . فقال بلعام لله بالاق بن صفور ملك موآب قد أرسل إلىّ يقول هو ذا الشعب الخارج من مصر قد غشى وجه الأرض . تعال الآن العن لى إياه لعلى أقدر أن أحاربه وأطرده فقال الله لبلعام لا تذهب معهم ولا تلعن الشعب لأنه مبارك . فقام بلعام صباحاً وقال لرؤساء بالاق انطلقوا إلى أرضكم لأن الرب أبى أن يسمح لى بالذهاب معكم» .

وترتفع حرارة الأحداث قليلاً عندما يعود رسل موآب خائبين إلى ملكهم فيرسل لبلعام رؤساء أعظم منهم يغرونه بالعطايا التى سوف يحصل عليها إذا وافق بالذهاب معهم لكنه يرفض مرة أخرى ويعلنهم :

«حتى لو كانت تلك العطايا ملء بيت الملك ذهباً وفضة» .

لكن بلعام الرافض يبيت ضيوفه تلك الليلة أيضاً ليتنبأ أو يتصل بالرب يشاوره مرة أخرى فى

الأمر ... ويغير الأله موقفه فيأذن لبلعام فى الذهاب مع رسل ملك الموآبين على أن يتبع ما يأمره به فيما بعد ، وبالفعل ينهض بلعام صباحاً وينطلق مع رؤوساء موآب .

وفجأة بلا أية مقدمات أو تبريرات تتغير إرادة الرب مرة ثانية :

«فحمى غضب الله لأنه منطلق ووقف ملاك الرب فى الطريق ليقاومه»

الرب يغضب من ذهاب بلعام مع رسل موآب ويرسل له ملاك يقاومه على الرغم من أنه هو الذى أمره بالذهاب .. كيف ؟! أكان لزاماً على بلعام أن يرفض إرادة الرب لأجل خاطر بنى إسرائيل ؟!

.. ، فلننحى هذه السقطة (الدرامية) جانباً ونكمل فمازال فى قصة بلعام كثير من العجب .

«ووقف ملاك الرب فى الطريق ليقاومه وهو راكب على أتانه وغلامه معه فأبصرت الآتان ملاك الرب واقف فى الطريق وسيفه مسلول فى يده فمالت الآتان فى الطريق ومشت فى الحقل» .

يعنى أبصرت الدابة ملاك الرب ولم يبصره بلعام الذى لم تكشف التوراة ولن تكشف عن هويته ومعتقده ، هل هو نبى ؟! أم رجل صالح أم شيخ يستأجر للعن ومنح البركة على درجة المتنبئين الذين كثروا فى بنى إسرائيل ؟!

وتمضى مشاهد القصة تصف الصراع المتصاعد بين ملاك الرب والدابة التى يمتطيها بلعام فتهرب الدابة من الموت يميناً ويساراً حتى تدخل طريقاً مغلقاً لا مهرب منه وتتسمر مكانها لا تتحرك فتثير بذلك غضب بلعام الذى ينهال عليها ضرباً فتنفجر المعجزة وتتحدث الدابة بلسان بشرى فتقول لصاحبها :

«ماذا صنعت بك حتى ضربتنى الآن ثلاث دفعات .. فقال بلعام للآتان لأنك ازدريت بى . لو كان فى يدى سيف لكنت الآن قد قتلتك . فقالت الآتان لبلعام ألست أنا آتانك التى ركبت عليها منذ وجودك إلى هذا اليوم . هل تعودت أن أفعل بك هكذا . فقال لا . ثم كشف الرب عن عينى بلعام فأبصر ملاك الرب واقفاً فى الطريق وسيفه مسلول فى يده فخر ساجداً على وجهه» .

ويدور حوار بين بلعام وملاك الرب الذى يوضح له فضل الآتان حيث أنقذته من الموت بانتكابها عن طريقه فيرد بلعام معترفاً بالخطأ ثم يبدى استعداده للرجوع فى طريقه لكن ملاك

الرب يأمره باستكمال الطريق على أن يتكلم بالكلام الذى يضعه فى فمه (فقط) !!

ويصل بلعام إلى أرض موآب فيخرج الملك بنفسه لاستقباله ويعاتبه على التباطؤ فى تلبية الدعوة فلا يثنى هذا بلعام عن عزمه فيخبر الملك بأنه لن يتكلم إلا بالكلام الذى يضعه الله فى فمه.

وفى صباح اليوم التالى يبدأ بلعام فى عمله وهنا تدخلنا القصة فى تفاصيل طقسيه كهنوتية فمثلاً بعد أن يصعد الملك مع بلعام أحد المرتفعات ليريه الشعب (بنى إسرائيل) يطلب بلعام من الملك أن يبنى له سبعة مذابح ويهيئ له سبعة ثيران وسبعة كباش (ونذكر أن للرقم سبعة دلالة خاصة فى التوراة) فينفذ الملك ما يؤمر فيصعد بلعام ذبائحه على المحرقات ثم ينطلق بعيداً لعل الرب يوافى للقائه فلما يحدث ذلك يضع الرب فى فمه كلاماً ويأمره أن يخبر به بالاق :

«من آرام أتى بى بالاق ملك موآب من جبال المشرق تعال إلعن بى يعقوب وهلم اشتم إسرائيل كيف ألعن من لم يلعنه الله وكيف اشتم من لم يشتمه الرب . إنى من رأس الصخور أراه ومن الآكام أبصره هو ذا شعب يسكن وحده . وبين الشعوب لا يحسب . من أحصى تراب يعقوب وربع إسرائيل بعدد لتمت نفسى موت الأبرار . *ولتكن آخرتى كآخرتهم*» .

وأعتقد أن هذه هى النتيجة المحتومة التى كنا ننتظرها وتدلنا عليها سير الحوادث لكن ملك موآب لا يقتنع ويكرر المحاولة مع بلعام وما تكرار المحاولة والإصرار عليها إلا إصرار من واضع القصة ليضع فى فم بلعام مزيداً من البركة لإسرائيل على أنها من كلام الرب فترى بلعام ينقل للملك مرة أخرى كلاماً أرسله به الرب فيقول :

«هو ذا شعب يقوم كلبؤة ويرتفع كأسد . لا ينام حتى يأكل فريسة ويشرب دم قتلى» .

ومرة ثالثة تكون على بلعام روح الرب مباشرة فيوحى له :

«ما أحسن خيامك يا يعقوب . مساكنك يا إسرائيل كأودية ممتدة كجنات على نهر ، كشجرات عود غرسها الرب ، كأرزات على مياه يجرى ماء من دلائه ، ويكون زرعه على مياه غزيرة ، ويتسامى ملكه على أجاج ، وترتفع مملكته . الله أخرجه من مصر . له مثل سرعة الرئم . يأكل أمماً مضايقيه ويقضم عظامهم ويحطم سهامه ، جثم كأسد ، ربض كلبوة . من يقيمه مباركك مبارك ، ولاعنه ملعون» .

فيشتعل غضب بالاق ملك الموآبين ويطلب من بلعام أن يهرب الأخير لا يفعل قبل أن يتنبأ للملك الغاضب بما سيقع على مملكته من إسرائيل ليس هذا فقط لكنه يتنبأ أيضاً بهلاك عماليق وتمتد نبؤاته إلى زمن بعيد تدمر فيه قاين فتأسره آشور حتى تأتى سفن من ناحية كتيم (البحر الأسود) وتخضع آشور وتخضع عابر وتنتهى القصة بذهاب بلعام فى سلام إلى مكانه ورجوع بالاق إلى أرضه !! (١)

إن القصة السابقة نموذج لتلك القصص الخرافية البسيطة التى افترض أرسطو أنها مثلت بدايات التراجيديا . ونحن لا نستطيع أن نجزم بأن شخصية بلعام شخصية خرافية اخْتُرِعَت من العدم لكن نستطيع أن نكتشف تأثير الأسطورة على هذه الشخصية ، وبلعام لا يعدو عن أن يكون رجل عراف يتخذ من موهبته تلك مجالاً للتكسب والاسترزاق فى الوقت الذى كان فيه بنى إسرائيل يؤمنون بمثله ويسمونهم الأنبياء ، وتناقلت الأسطورة استعانة ملك موآب ببلعام للعن إسرائيل فغذتها الحكايات بكثير من المبالغة حتى أوقعتها فى بعض التناقضات الظاهرة وعلى الرغم من ذلك فقد قبلها العقل الجمعى اليهودى لأنه مستعد ومهيأ لقبولها .

ومثل هذه المبالغات تجدها فى شخصية بلعام واتصاله بالرب عن طريق الوحى أو الملاك أو بشكل مباشر كما حدث فى بدايات القصة "فأتى الله إلى بلعام وقال" ، فى الأحداث أيضاً نرصد تلك المبالغات فى وصف المطاردة بين الأتان وملاك الرب حتى إنها تحدث على ثلاث مراحل كان يكفى منها المرحلة الأخيرة .

نرى أيضاً من قبيل المبالغة أن الحيوان الأعجم يرى ملاك الرب بينما يعمى الرجل الخارق الواصل إلى الأدلة عن ذلك ثم ينطق الحيوان فى حوار طويل عاقل مع صاحبه يحاوره !!

ونأسف أشد الأسف حين نعرف فى سفر آخر خبراً سيئاً عن بلعام هذا صاحب كل هذا الفضل على بنى إسرائيل ، يقول الخبر بكل بساطة أن جيش إسرائيل قتل بلعام فى إحدى غزواته البربرية على أرض فلسطين (هكذا بكل بساطة) .

ونطوى صفحة بلعام التى استغرقت إصحاحات قليلة فى سفر كبير هو سفر العدد وننتقل إلى قصة أستير التى تستغرق بمفردها سفراً كاملاً تم قبول عشرة إصحاحات منه فقط فى الأسفار القانونية الأولى المعترف بها من اليهود وكل الطوائف المسيحية وبقى ستة عشرة سفراً أخرى

---

(١) القصة وردت فى سفر الدد الإصحاحات : ٢٢ إلى ٢٤ .

دخلت ضمن الأسفار القانونية الثانية .

فى قصة أستير يحرك الأحداث أربع شخصيات رئيسية على رأسهم أستير الفتاة اليهودية التى تم سبيها مع ابن عم لها اسمه مردوخاى ضمن المسبيين إلى مملكة بابل بأرض العراق .

وفى مدينة شوش عاصمة مملكة الفرس التى ورثت مملكة بابل عاشت أستير الجميلة حسنة المنظر [1] فلما طلب الملك الفارسى أحشو يروش أن يجمعوا له الفتيات العذارى ليختار من بينهن من تملك مكان زوجته الملكة السابقة ، كانت أستير ضمن المرشحات لذلك ، وبسبب جمالها نالت اليهودية حظوة كبيرة عند الملك حتى أنه وضع تاج الملك على رأسها وملكها مكان زوجته .

لم يكن فقط جمال أستير هو الذى أوصلها لتلك المنزلة لكن تدابير ابن العم أيضاً الذى عمل فى القصر الملكى ودفع بها فى طريق الملك دون أن يدرى الأخير شيئاً عن ديانتها أو هويتها اليهودية ولم ينسى مردوخاى أن يوصى أستير بتكتم هذه الأخبار .

وساعد الحظ مردوخاى وأستير مرة أخرى حين أكتشف الأول مؤامرة تستهدف حياة الملك فوشى بها لأستير التى أوصلتها للملك فنجا وعلى أثر ذلك ارتفعت مكانة مردوخاى لكن لم يكن له من السلطة ما يؤهله للعلو فوق سلطة الوزير هامان .

وبين مردوخاى وهامان بدأ صراع أعقبه صدام بسبب مقاومة مردوخاى الخضوع لهامان وآية ذلك رفض الأول السجود للأخير تنفيذا للأمر الملكى الذى قضى بذلك على كل شعب المملكة بل تجرأ مردوخاى فكشف عن هويته اليهودية لعبيد الملك فأمتلأ قلب هامان غيظاً عليه وطلب أن يهلكه وكل شعبه اليهودى الساكن فى المملكة .

إن القصة تعطينا إشارات عن تشتت وهوان اليهود المسبيين على أرض فارس فى ذلك الزمان ، وعن ذلك تخبرنا عبارة وردت فى الإصحاح الثالث للسفر على لسان الوزير هامان يخاطب فيها أحشويروش فيقول له :

> **«إنه موجود شعب ما متشتت ومتفرق بين الشعوب فى كل بلاد مملكتك وسننهم مغايرة لجميع الشعوب وهم لا يعملون سنن الملك فلا يليق بالملك تركهم . فإذا حسن عند الملك فليكتب أن يبادوا» .**

ويؤذن لهامان بأن يبيد اليهود المستوطنين أنحاء مملكة فارس كلهم وفى يوم واحد ، فيقيم

---

(١) هكذا يتم وصف استير فى مقدمة الأسفار القانونية الثانية (طبعة مكتبة المحبة) .

هامان قرعة التى تسمى بالفارسية (فـوراً) ويحدد يوماً لتنفيذ خطته ، فلما وصلت الأمور إلى هذا الحد كـانت مناحة عظيـمة عند اليهـود وصوم وبكاء ونحـيب وراحت الرسائل وجـاءت سراً بين مردوخـاى وأستير التـى لم تدع للدخول على الملك لأن شريعـة القصر تحـرم أن يدخل أحد على الملك إلا بدعوة وعلى هذا لم تتح لها فرصة الدفاع عن شعبها أمام الملك .

ومن ضمن ما قاله مردوخاى لاستير فى إحدى رسائله :

«ومن يعلم إن كنت لوقت مثل هذا وصلت إلى الملك"

ولم يتبع مردوخاى مع أستير أسلوب الترغيب فقط لكنه خوفها أيضاً :

"لا تفـتكرى فى نفـسك أنك تنجين فى بيت الملك دون جـمـيع اليهـود . لأنك إن سكت سكوتاً فى هذا الوقت يكون الفـرج والنجاة لليهود من مكان آخـر وأما أنت وبيت أبيك فتبيدون»!!

وتعتزم أستير أمراً وتطلب من أجل تمامه أن يصلى اليهود ويصوموا لأجلها ثلاثة أيام ، هذا فى الوقت الذى يبلغ فيه ضيق هامان على مردوخاى مداه فـيفكر بالتعجيل فى قتله لكن تطور ما يطرأ على مكانة مردوخـاى عند الملك عندما يقرأ الأخير (مـصادفة) فى السجل الذى تدون فـيه الأمور الملكية فـيصادف خبـراً عن صنيع مردوخاى لأجله عـندما كشف له محـاولة اغتيـاله ويسأل الملك أعوانه عن المكافأة التى نالها مردوخاى لأجل ذلك فيجاوب بأنه لا شئ فيستدعى هامان ويسأله أن يعين مكافأة لرجل يسر الملك أن يكافئه فيحسب هامـان أنه المقصود بالمكافأة فيجاوب بخبث طالباً لهـذا الرجل التكريم ويعين مظاهر هذا التكريم للـملك بأن يرتدى المكرم اللبـاس السلطانى الذى يلبسه الملك ويركب فرس الملك ويُزف على مرأى من الشعب .

وهنا يطلب الملك من هامان أن يفعل كل ذلك لمردوخاى !!

ومازالت للقـصة بقية فهـا هى ذى أستيـر الملكة تعـد وليمة تدعـو إليهـا الملك ووزيـره هامان فلمـا يبلغ الملك أثناء الدعـوة أفـاق النشـوة يسأل أسـتيـر أن تطلب ما تريد فـيلبه حـتى لو طلبت نصف ملكـه! لكن أستير لا تسأل الملك شيئاً مادياً ولكن تسأله نفـسها وشعبها لأنهما بيعا للهلاك والقتل والإبادة !

وتتحول نشوة الملك إلـى غضب فيسألها عمن يجـرؤ على هذا فتشير أسـتير نحو هامان الذى يشاركهم المأدبة وينصرف الملك غاضباً من المكان بينما يدرك هامان أنه هالك لا محالة فيجثو على

ركبتيه يتوسل العفو من أستير التى اتكأت على سريرها وبينما هما على هذا الحال يعود الملك مرة أخرى إلى القاعة ليفاجئه المشهد فيزداد إضطرام النيران فى نفسه ويشير إلى هامان إشارة الهلاك فيتشجع واحد من العبيد ويكشف للملك أمر الخشبة التى أعدها هامان فى بيته ليصلب عليها مردوخاى فيأمر الملك بأن يصلب هامان نفسه فيها !! .. ويسكن غضب الملك !! .. بينما للانتقام اليهودى مازالت هناك بقية .

وتبوأ مردوخاى مكان هامان واستلم خاتم الملك وواصلت أستير ما بدأته فتضرعت للملك أن يعمل على إنقاذ باقى شعبها (هكذا كان يبدو الأمر بينما الحقيقة شئ آخر) وأجاب الملك أستير فأذن لها ولمردوخاى أن يكتبا ما يحسن لهما ويختماه بخاتم الملك ليصبح أمراً نافذاً فى كل مملكة فارس ... وبدأت رحلة الانتقام ، يقول السفر :

«فضرب اليهود جميع أعدائهم ضربة سيف وقتل وهلاك وعملوا بمبغضيهم ما أرادوا وقتل اليهود فى شوش القصر وأهلكوا خمسمائة رجل»

وطلبت اسيتر من الملك أيضاً أن يصلب على الخشب أبناء هامان العشرة وأن يسمح لليهود فى المملكة أن يواصلوا رحلة إبادتهم لأعدائهم ، فأجابها الملك ، وانتقلت عدوى الانتقام اليهودى تحصد سكان مملكة فارس :

«وباقى اليهود الذين فى بلدان الملك اجتمعوا ووقفوا لأجل أنفسهم واستراحوا من أعدائهم وقتلوا من مبغضيهم خمسة وسبعين ألفاً فى اليوم الثالث عشر من شهر آذار .واستراحوا فى اليوم الرابع عشر منه وجعلوه يوم شرب وفرح» .

لقد تحول اليوم إلى يوم احتفال قومى ما لبث أن صار مع الأيام عيداً دينياً أهم مظاهره المبالغة فى الاحتفال وشرب الخمر وأكل الطعام والصخب واللعب حتى أن هذا العيد عرف بين يهود الشرق بأنه عيد (المسخرة) واسمه الرسمى عيد الفوريم من الفورة أى القرعة التى كان هامان قد أجراها لاختيار يوم يقتل فيه اليهود !

ويذكر الإصحاح العاشر فى سفر أستير أن خبر هذه الواقعة ثم تسجيله فى (سفر) أخبار الأيام لملوك مادى وفارس وربما نقلت القصة بأكملها وتم تدوينها كما جاءت فى التوراة من هذا السفر.

والتراچيديا فى قصة أستير أكثر تعقيداً من مثيلتها فى قصة بلعام بن بعور وربما يرجع هذا إلى الفرق فى الزمن بين تاريخ القصتين والذى يبلغ أكثر من ألف عام كان بالتأكيد قد حدث فيها تطور وخبرة فى طريقه تدوين الأحداث وتصفيتها من ميراث الأسطورة فالزمن الذى دونت

فيه قصة أستير كان قريباً جداً من زمن جمع التوراة على عهد عزرا ، ومتابعة زمنية لقصص التوراة سوف تكشف لنا هذا التطور الذى حدث بشكل مطرد مع زمن أحداث القصة وبالتالى تدوينها فى التوراة .

لكننا سنلاحظ أيضاً فى قصة أستير أن شخصياتها أحادية وهى لابد أن تكون كذلك لأنها كتبت من وجهة نظر غير محايدة (من وجهة نظر اليهود) فنجد هامان شريراً إلى الدرجة التى يفكر فيها بإبادة شعب بأكمله من أجل رجل لم يعظمه ، وفى المقابل فأستير ومردوخاى خيرآن لأنهما يهوديان !!لكن كاتب التوراة وقع فى سقطة (يهودية) لم يقصدها بالطبع لذاتها ولكنها عنصر أصيل من عناصر تكوينه النفسى ، إنه الانتقام على أبشع ما يكون إلى حد المجزرة .

ولم يكن كاتب السفر هذه المرة يملك من الذكاء ما يجعله يرجع أمر المجزرة إلى الإرادة الألهية حيث غاب الإله ولم يرد ذكره ولو لمرة واحدة فى السفر كله .

لقد ظل سفر أستير من الأسفار المهمة التى تحكى تاريخ اليهود المقدس ، تقرأ إصحاحاته فى مناسبة عيد الفوريم الذى تحول إلى عيد دينى تذكاراً للخلاص .

ومن ضمن طقوس الاحتفال بهذا العيد ، اجتماع اليهود فى المعبد ليلة الرابع عشر من آذار ليقرؤا سفر أستير بعد العبادة المسائية وعندما يصلون فى قراءتهم إلى ذكر اسم هامان يصرخ جمهور المصلين فى حمى مرددين مرتين : «**ليمحى اسم ذلك الشرير**» .

إن قصة أستير نموذج لتحول الأسطورة القومية إلى أسطورة دينية وهى أيضاً نموذج يوضح التأثر اليهودى بحضارة بابل العراقية إلى الدرجة التى نلاحظ معها أن أسماء أبطال القصة جميعهم ذات أصول بابلية أوعلامية فصاحبة السفر أستير مشتق اسمها من عشتار آلهة البابليين ومردوخاى من مردوخ الإله البابلى وهامان هو اسم الإله العيلامى همان ..

والسفر كله كان مرفوضاً من زعيم الإصلاح الدينى المسيحى مارتن لوثر وكانت حجته فى ذلك أن اسم الله لم يرد ذكره فى السفر (كما أسلفنا) وظل السفر موضع نقاش كثير إلى أن استقر البروتستانت على قبول الإصحاحات العشرة الأولى منه بينما قبل الكاثوليك والأرثوذكس السفر كله .

وكاتب سفر أستير مجهول غير أن البعض يرجح أنه عزرا الذى جمع التوراة أو مردوخاى نفسه بطل القصة ، واختلف أيضاً حول التاريخ الذى دون فيه لكن أياً من كان

كـاتب السـفـر أو وقت تدوينه فـغيـاب إله اليـهـود من على مـسـرح الأحـداث يثـيـر التـسـاؤل والاندهـاش لكن مـع معرفتنـا شيئاً عـن ابتعـاد اليهـود عن ديانتهـم فى بلاد منفاهـم سوف يقـل هذا الاندهـاش أو يتلاشى .

هناك سفر آخر من الأسفار القانونية الثانية معروفاً أيضاً باسم بطلته اليهودية الجميلة (يهوديت) والتى تشترك مع أستير فى صفات كثيرة وتشـترك معها أيضاً فى أنها سـاهمت فى نجاة اليهود من الإبادة والهلاك .

وتروى أحداث السفـر كيف اصطادت القديسة يهـوديت قائد العدو بشباك لحظهـا ، وما سبق ليس إفتتات على السفر الذى يقول :

«ودعت وصيفتها ونزلت إلى بيتـها وألقت عنها المسح ونزعت عنها ثياب إرمالها . واستـحمت وادهنـت بأطياب نفـيسة وفـرقت شعـرها وجعلت تـاجاً على رأسـها ولبست ثياب فرحها واحتذت بحذاء ولبست الدمالج والسواسن والقرطة والخواتم وتزينت بكل زينتـهـا وزادها الرب أيضاً بهـاء من أجل أن تزينهـا هذا لم يكن عن شهوة بل عن فضيلة ولذلك زاد الرب فى جمالهـا حتى ظهـرت فى عـيون الجميع بـهـاء لا يمثـل . وحملت وصـيفـتهـا زق خمر وإنـاء زيت ودقيـقـاً وتينـا يابسـاً وخبـزا وجبنـاً وانطلقـتا فلمـا بلغتـا باب المدينـة وجدتـا عـزيـا وشيـوخ المدينـة منتظرين . فلما رأوها اندهشوا وتعـجبوا جداً من جمالها غـير أنهم لم يسألوها عن شئ بل تركـوها تجوز قائلـين إله آبائنـا يمنحـك نعـمـة ويؤيـد كل مـشـورة قلبك بقـوتـه حتى تفـتـخر بك أورشليـم ويكون اسمك مـحصـى فى عداد القـديسين والأبـرار ...» . [1]

«فلما دخلـت عليـه أصطيـد أليفانا (القائـد الأشـورى) لـساعته بعينيـهـا فقـال له أشـراطـة (قـائـد جنـده) من يزدرى بشـعـب العـبـرانيـين ولهـم نسـوة مـثل هذه جميلات ألسن أهلاً لأن نقاتلهم لأجلهن» . [2]

لقد أسكرت يهوديت القـائد الأشـورى وذبحتـه من الرقبة وهى تشاركه مـخدعه وأتت برأسه تقطر دما إلى قومها فتحولت إلى قديسة وافتخـرت التـوراة بنصر اليهود بسبـب الفاتنة يهوديت .

---

(١) يهوديت ١٠ : ٢ – ٨ .

(٢) نفس السفر السابق ١٠ : ١٧ ، ١٨ .

«إن جبارهم لم يسقط بأيدى الشبان . ولم يبطش به بنو طيطان ولا جبابرة طوال تعرضوا له بل يهوديت ابنة فرارى بجمال وجهها أهلكته . نزعت ثياب إرمالها وتردت بثياب فرحها لإبتهاج بنى إسرائيل . دهنت وجهها بالطيب وضمت ضفائرها بالتاج ولبست حللها الفاخرة لتفتنه ... بهاء حذائها خطف أبصاره وجمالها أسر نفسه فقطعت بالخنجر عنقه» . [1]

ولا يخجل الكتاب المقدس أن يعلن أن فتنة المرأة وجمالها وسيلة مشروعة لكسب المغانم وقتل الأعداء بل يضفى على ذلك الفعل هالة من التبجيل تنقل الفاتنات اليهوديات إلى مصاف القديسات !

ويا حبذا لو تلون فعل الإغواء بلون الأحمر القانى يسيل فيستجلب سرور إله إسرائيل ويكسبه البهجة لأنه إله بطش وانتقام وسفك دماء !

ومرة أخرى نكتشف أن تراجيديا التوراة تغلب عليها روح الأسطورة الشعبية فى بداياتها الأولى ثم الأسطورة القومية فى قصصها الأخيرة ، وفى الحالتين يتنازعها خواطر كاتبيها الذين أسقطوا أفكارهم الشخصية فنزعوا القداسة عن شخصيات الأنبياء والرسل فى حين منحوها للبعض الذين لا يستحقونها ، وعلى الإجمال فهناك روح شريرة تسيطر على النص وتحركه تلك هى الروح التى لبست الريشة الأخيرة التى دونت النص فى صورته المتواترة ، أو تلك التى راحت من قبل تسدد الثغرات بالتلفيق أو التبرير فوقعت فى ذلك التناقض المعيب ليس فقط فى التسلسل المنطقى للأحداث لكن أيضاً فى بناء الشخصيات وكل ذلك من أجل الوصول إلى بذر توجهات محددة للشعب الإسرائيلى كانت أغلبها توجهات سياسية فى حقيقتها .

على أننا لا نستطيع أن نفهم حقيقة تلك التوجهات دون الرجوع إلى تحليل أزمة بنى إسرائيل فى أسرهم البابلى وهو ما سوف نتناوله بالتفصيل فى فصل تال وإلى أن نفعل نوضح باختصار أن عزرا كاتب التوراة وأعوانه فى تعاملهم مع سيرة أبطالهم التوراتيين كانت تسيطر عليهم بعض الأفكار الأساسية أهمها :

- انتزاع ما يعتقدون أنه حق لشعب إسرائيل بكل الطرق والوسائل المشروعة وغير المشروعة وإضفاء صفة القداسة على هذه المكتسبات بتأيدها من قبل الإله ثم الانتقام المبالغ فيه من أصحاب

---

(١) نفس السفر ١٦ : ٨ - ١١

الحقوق الأصليين إذا سنحت فرصة الانتقام .

- خلق سيرة أبطال غير عاديين مدعومين كثيراً من السماء يتصفون بالحكمة الفائقة - (الحكمة تعنى هنا المكر والخبث والخديعة) - والشجاعة ، سيرة هؤلاء الأبطال سيرة درامية تمر بمنحنيات صعود وهبوط كثيرة وتتعرض الشخوص فيها لامتحانات عسيرة متكررة يجتازونها بنجاح إذا كانوا مؤمنين فى أفعالهم بالفكر اليهودى الذى يستقى أصوليته من التوراة نفسها .

وعلى طول صفحات التوراة وعرضها تستطيع أن تنتخب شخصيات توراتية تمثل علامات فى تاريخ إسرائيل منذ عهد نوح ومروراً بسام وإبراهيم وإسحق ويعقوب والأسباط وموسى وهارون ويشوع بن نون وشمشون وصموئيل وشاول وداود وسليمان وأستير ونحيما وعزرا وهوشع وحتى آخر فرد فى أسرة المكابيين ونستطيع أيضاً أن نقسم هؤلاء الأبطال إلى قسمين قسم يغلب على أفعاله الحالة المقدسة فيدعمه دائماً فى حركته بشكل أساسى الإله وأكثر هؤلاء الأبطال ينحصرون تاريخياً فى الزمن الذى يبدأ من عهد نوح إلى وقت دخول الشعب الأرض المقدسة فى عهد يشوع بن نون ، ثم تندر هذه الشخصيات وتنحصر فى أفراد معدودين فى عهد القضاة وعهد الملكية وتكاد تختفى بعد انقسام المملكة لتظهر مرة أخرى مع ظهور الأنبياء الأخر .

وعلى الرغم من أن النص التوراتى كان يصرح دائماً بأن روح الله تشمل هذه الشخصيات فإن نفس النص سلبهم العصمة التى يسبغها الإله على الأنبياء والمصطفين من عباده فلا يسقطون فى الزلل أو الخطأ الذى يزيل عنهم الحالة المقدسة ويخرجهم من دائرة القدوة والمثال التى أرادها الله لعباده . بل نلاحظ أيضاً أن التوراة كانت تتعامل مع أكثر هؤلاء على أنهم بشر عاديون ما استحقوا هذه الأهمية التاريخية إلا باعتبارهم قادة وحكام وملوك على إسرائيل وأبرز مثالين على ذلك هما داود وسليمان اللذان أثقلت التوراة سيرتيهما بالخطايا والرزايا وجعلت شهوتهم فى البطش والانتقام وملذات الحياة .

إن صفات التأليف البشرى وهناته تسيطر على الحكايات الدرامية التوراتية فنجدها فى أحسن حالاتها قابلة للنقد ، كذا يمكن بسهولة اكتشاف مواقع الحشو والمبالغة وتكرار المواقف ، ونستطيع أن ننتخب ونختار أو نترك هذا الاختيار للمصادفة وفى الحالتين سوف نكتشف الحقيقة السابقة .

والغرض الدائم فى التراچيديا التوراتية هو إظهار التدخل الألهى لصالح الشعب المختار فى أكثر المواقف تأزماً ومن أجل هذا الغرض فقد تم لىّ عنق النص ليستوعب الأضافات التى هى عبارة عن تراكم الأسطورة ، والتى لا يمكن أن تصنف حقيقة على أنها معجزات إلهية لأنها

مواقف متعسفة بدلا من أن تظهر قدرة الإله تظهر فى أحيان كثيرة عجزه وتردده (حاشا لله أن يكون كذلك) وفى هذا نستطيع أن نرجع إلى قصة بلعام التى ذكرناه سابقاً وقصة قتل أبكار المصريين التى وردت فى سفر الخروج ... لقد أراد كاتب التوراة فى صورتها الأخيرة أن يطمئن الشعب بأن الأله يجدد معه العهد والميعاد بل يسانده ويعضده إلى أبعد الحدود شريطة أن يعترف الشعب بخطئه ويندم على ما اقترفه بالبعد عن طريقه والزنا وراء آلهة وثنية ، وعلى ذلك تم قبول ميراث الأسطورة التى تحقق هذا الغرض إلى حد تسفيه ميراث الأسطورة التى تحقق هذا الغرض إلى حد تسفيه الأنبياء والافتراء عليهم ، وكرد فعل مضاد تم أيضاً قبول أسطورة دعم الإله لليهود فى مواقف كثيرة إلى حد تصوير الإله بمظهر النادم الناسخ لقراراته وأحكامه مادامت تتعرض لمختاره شعبه وحدقة عينه إسرائيل .

إن كاتبى أسفار الأسطورة التى قُبلت - فيما بعد - على أنها نصوص مقدسة استحضروا الإله فى مشاهد عديدة يحاسبونه ويعنفونه إلى حد التعيير وهنا تستوقفنا لغة الخطاب فى بعض النصوص عندما نجد فيها كثيراً من المجادلة واللجاجة وسوء الأدب مع الذات العليا :

«فقال موسى للرب استمع أيها السيد .. أرسل بيد من ترسل» . [1]

«وقال داود لله ألست أنا هو الذى أمر بإحصاء الشعب . وأنا هو الذى أخطأ وأما هؤلاء الخراف فماذا عملوا» .

وهناك من مثل هذا العبارات الكثير منسوبة للأنبياء والرسل والأشخاص العاديين العارين من القداسة ، فإذا كانت تلك هى نظرة كاتبى التوراة للإله يحاسبونه بتلك الجرأة أفنستكثر ، عليهم الافتراء على الأنبياء ؟!

إننا نستطيع أن نفسر أيضاً لغة السرد المباشرة التى تتصف بالفجاجة عندما تحكى عن أفعال الخيانات والغدر أو تروى قصصاً جنسية موظفة أحياناً لخدمة العنصرية القومية لليهود أو تصم اليهودى نفسه بتلك النقائص بلا سبب أخلاقى واضح أو خفى ، وللعجب يأتى مفسرو هذه الأيام فيدعون أن هذا دليل على صدق النص وألوهيته ! وحجتهم أن الإله لا يخفى خطايا الآباء ولو كان من عند غير الله لحجبت هذه الخطايا !!

إننا نستطيع أن نقبل تلك الحجة لو كانت تدعم أو تخدم إيمان من آمن لكنها بالحقيقة تزيد من ضل ضلالاً ، وعلى سبيل التذكير فقصتى مضاجعة راؤبين لبلهة زوجة أبيه (النبى يعقوب) وزنا

---

(١) الخروج : ٤ .

يهوذا بكنتة (زوج ابنه) لو حذفتا من التوراة أترى كانـا يسقطان عنها القداسة ؟! أم تراهما يشيران إلى دروس عظيمة فى الحكمة ويؤسسان بناءً أخلاقياً تستعصى عقولنا على فهمه ؟!

***

.. وبعـد فدراما التـوراة دراما متعسفـة غيـر مبـررة الأحداث فى كثير من الأحـيان ، وتتدخل الصدفة غير المنطقية فى تغييـر دفة الأحداث تلك التى لا يستطيع المؤلـف إيجاد حلول لها (تعتـبر هـذه علامـة من علامـات رداءة الدرامـا المؤلفـة حتى الآن) ويلجـأ النـص التوراتـى إلـى التدخل الإلهى وعند استنفـاذ مرّاتـه بالتكرار يلجأ لتلـك الصدفـة التى أشرنا إليها ، نجـد ذلك واضحاً فى قصـة النبى إبراهيم عندمـا تدخـل الإلـه فى الوقت المناسب لإنقـاذ زوجته من براثـن فرعـون وإن كانـت التـوراة لم تعـطنـا أيـة إشـارة تفيد بـأن الإلـه سـوف يـعمل على تخليصـها وإنقـاذها فى الوقـت المناسب !! ونفـس المشـابهة الدراميـة تتكـرر مع نفـس النـبى وزوجتـه عند إبيـمالك ثـم يعـاد المشهد للمـرة الثالثة بنفس تفاصيله مع إسـحق وزوجته عنـد الملك الأخير أيضـاً (إبيمالك) وعلينا أن نلاحـظ أن القصص الثلاث تدخـل ضمن الأسـفار التى تصنف تحـت مصدر واحد من مصادر كتابة التـوراة ، والروايات الثـلاث لأنها من تأليف البشر فقـد أسقطت أساساً أخلاقياً هاماً معـه سقط بناء شخصية نبيين من أنبياء الله (إبراهـيم وإسحق) عندما صورتهما بصـورة المتاجرين بزوجتيـهما وهو فعـل لا يصـدر عن نفس أُهلت لحمل كلمة الله وهدايـة البشـر وجعلت صـورة المثال الذى يحتذى مشروخة الإطار فكيف يعطى من لا يملك ؟! وكيف يدعو لمكارم الأخلاق من لا يتصف بها ؟!

وانظر لقد اهتدى إبيمالك الوثنى لخطأ إسحق النبى حتى أنه وجه له اللوم فقال :

«لقد فعلت بى ما لا يصح أن يفعله أحد» . (١)

***

بقـى أيضاً أن نشـير إلى نصوص أخرى قُبلت فى الكتاب المقدس من بعض الطوائف اليهودية والطوائف المسيحية الثلاث الكبـرى (الكاثوليك والبروتستانت والأرثوذكس) وصنـفت أسفارهـا على أنها من كلمات الحكمة ونسبت لأنبياء الحكمة داود وسليمان .

ومن هذه النصوص نرى سـفرى نشيد الأنشاء والأمـثال ونسبا للنبى سليـمان وسفر الجـامعة وبعض المزامير من سفر المزامير ونسبا للنبى داود .

---

(١) تكوين ٢٠ : ٨ .

«نشيد الإنشاد الذى لسليمان» هكذا حرص هذا السفر فى عبـارته الأولى أن ينتسب لسليمان فهل - حقاً - ينتسب لسليمان ؟! لنفحصه أولاً ثم نرى . [١]

فى العدد الثانى من الإصحاح الأول يقول نشيد الإنشاد :

«ليقبلنى بقبلات فمه لأن حبك أطيب من الخمر» .

وهكذا يبدأ النص المقـدس ليستمر بعـد ذلك ديالوج متواصل يناجى فيـه حبيب حبيـبه يتخلل ذلك ذكر صريح لأوصاف حسية لا يمكن أن نتجاوز فندرجها تحت تصنيف أغانى المتصوفة اليهود أو أنصار حـركة «الكابالا» ولا يصح أن نحتج بأن النص يـقرأ مترجـماً وليس فى لغتـه الأصلية ، فعبارات من مثل :

«ها أنت جميلة يا حبيبتى .. عيناك حمامتان .. شعرك كقطيع معز رابض .. شفتاك كـسلكة من القرمـز وفـمك حلو .. خدك كـفلقة رمـانة .. عنقـك كـبـرج داود .. ثدياك كخشفتى ظبـية .. إلى آخره» .

أو جمل من مثل :

«فى الليل على فراشى طلبت من تحبه نفسى طلبـته فما وجدته ... حتى وجدت من تحبه نفسى فأمسكته ولم أرخه حتى أدخلته بيت أمى وحجرة من حبلت بى » ..

هذه العبارات والجمل هل يصح أن نقول أنها تعبر عن الحب الألهى ؟!

إن الإجـابة عن السـؤال السـابق تكمن فـى إدراكنا لهـذه الشـعـرة التى تفـرق بين الحب وبين الشهـوة ، بين السعادة وبين اللذة ، بين الأدب وسؤ الأدب فى مخاطبة الذات العليا .

ويبدو أن النص ذاع على عهد سليمان وتلقفته الأجـيال فوجدته مجهول النسب حتى جاء من نسبه لسليمان حيث ورد ذكره فى الإصحاح الثالث للنشيد الذى يقول :

«هو ذا تخت سليمان حوله ستون جباراً من جبابرة إسرائيل» وفى العدد الذى يليه نجد :

«الملك سليمان عمل لنفسه تختا من خشب لبنان» .

وفى نفس الإصحاح أيضاً نجد :

---

(١) يقول علماء الغرب أن السفر أصله مسرحية غنائية من الفلكلور اليهودى الخاص بحفلات الزواج .

«اخرجن يا بنات صهيون وانظرن الملك سليمان بالتاج الذى توجته به أمه فى يوم عرسه وفى يوم فرح قلبه» .

.. و«كان لسليمان كرم فى بعل هامون .. إلى آخره» .

والأرجح أن النشيد تم تأليفه فى مناسبة زواج سليمان وارتبط بالمناسبة وتم التأويل - فيما بعد - على أن سليمان هو قائله .. مع ملاحظة أنه لو كان سليمان القائل ما ذكرته لغة السرد على هذا النحو السابق ذكره .

سفر الأمثال

سفر الأمثال بالإضافة لسفر المزامير يثيران كثيراً من الجدل بين علماء الكتاب المقدس ، فأسفار الحكمة التى نسبتها التوراة لسليمان يعتبرها نقاد الكتاب المقدس المحدثين ، مجموعة من الأقوال مروية عن أكثر من مصدر .

وسفر الأمثال يلى فى الترتيب سفر المزامير ويبدأ بعنوان طويل يستغرق سبعة أعداد فى إصحاحه الأول ، بعدها تبدأ أقوال الحكمة المنسوبة لسليمان ، على أن القارئ لهذا السفر سيقع بالتأكيد - فى بلبلة مع بداية الإصحاح العاشر عندما يفاجئه النص ببداية جديدة للسرد تقول : "أمثال سليمان -" ويمضى النص يسرد من جديد أمثال أخرى ويعود السفر مرة ثالثة فى إصحاحه الثانى والعشرين يقول من جديد ! "**أمِل أذنك واسمع كلام الحكماء ووجه قلبك إلى معرفتى**" فهل تغيرت شخصية المتحدث وصار الكلام التالى لهذه العبارة صادر عن حكماء آخرين غير سليمان؟! أم هى نصيحة من سليمان نفسه للإنصات لأقوال الحكماء ؟!

ويزيد الأمر غموضاً على غموضه مع بداية الإصحاح الخامس والعشرون وبالتحديد مع العبارة الآتية :

«هذه أيضاً أمثال سليمان التى نقلها رجال حزقيا ملك يهوذا» .

ولو حسبنا الزمن ما بين انتهاء ملك سليمان وبداية ملك حزقيا تبعاً لتواريخ التوراة سوف نجد أن هناك أكثر من قرنين قد انقضوا ولم تخبرنا التوراة كيف حفظت أقوال سليمان كل هذا الزمن حتى وصلت إلى رجال حزقيا فسجلوها كما خرجت من فم صاحبها لتصير نصاً مقدساً ؟!

وعلى هذا الأساس السابق نستطيع أن نفسر ذلك الاضطراب الذى يعترى نص الأمثال بداية من الإصحاح الخامس والعشرين ، ومع هذا الاضطراب نلاحظ أيضاً صعوبة تراكيب الجمل ومعانى اللغة .

ويأتى الإصحاح الثلاثون منسوباً لشخص اسمه أجور بن متقيا أوحى به لشخصين آخرين يليه الإصحاح الأخير من السفر وينسب إلى ملك مجهول فى التاريخ اليهودى اسمه "لموئيل" ملك مسا ، وربما كان ذا بالكامل هو اسم الشخص الذى لم يعتل أبداً سدة الحكم لكن ما يقلل رجحان هذا الافتراض أن أم لموئيل هذا تتعامل معه (فى السرد) على أنه ملك حقيقى تلقنه تربية الملوك فتقول له على سبيل المثال : «**ليس للملوك يا لموئيل . ليس للملوك أن يشربوا خمراً** » . [1]

ولابد أن نندهش أن التوراة التى سردت علينا تاريخ اليهود ونسبهم من بدء الخليقة وحتى ما قبل ميلاد المسيح بسنوات قليلة لم يأت فيها ذكر لهذا الملك المجهول ونعود للإصحاح قبل الأخير من هذا السفر ، هذا الإصحاح المنسوب لآجور بن يافة ولسوف نجد أن كلام أجور هذا أميل إلى الأسلوب الشعبى عندما يقول :

«إنى أبلد الناس وليس لى ذكاء البشر . ولم أتعلم الحكمة ولاعرفت علم القديسين ... إلى آخره» .

وعلى الاجمال فسفر الأمثال يدحض دعوة اليهود للتحريم والقتل التى جرت وتواترت فى أسفار سابقة وفى السفر فيوضات من الحكمة صافية المنبع يكفى أن نذكر منها ملخص الحكمة الذى يقول :

«بدء الحكمة مخافة الرب ومعرفة القدوس فهم» . [2]

المزامير

ومع سفر المزامير يزيد الاستثناء الحادث فى سفر الأمثال وتتسع رقعته ، والاستثناء الذى نقصده هو قبول نصوص مجهولة المصدر وضمها إلى السفر وصاحبه أو مختلفة المصدر ومتشابهة إلى حد ما ولعل هذا يفسر لنا بجلاء الطريقة التى جمع بها عزرا ورفاقه بعض الأسفار المقدسة ، فقد اشتبه الأمر فى بعض الأحوال ولم يتوصلوا لمصادر بعض النصوص فتركوها مجهولة

---

(١) الفكر الدينى الإسرائيلى د . حسن ظاظا ص ٦٠ .
(٢) أمثال ٩ : ١٠ .

الصاحب أو جمعوا المتشابه من الكلام وصنفوه تحت عنوان واحد ، وهذا ما لاحظناه بوضوح فى سفر المزامير الذى يجمع صلاة لموسى (المزمور التسعون) ومزامير لداود وأخرى لسليمان وثالثة لإيتان ورابعة لبعض المغنين أمثال بنو قورح وهيمان وآساف ويبقى خمسين مزموراً من أصل مائة وخمسين يضمهم السفر مجهولة المصدر !!

وسفر المزامير يتضمن أشعاراً وعظية وصلوات وتسابيح وقصائد تمجد أورشليم وأشعار قيلت فى مناسبات تاريخية ونصوصاً تبشر بالمسيح المخلص وهى فى هذا تتسق مع الفكر اليهودى إبان السبى البابلى ، وهذا مما يؤكد رجحان رأينا السابق فى الطريقة التى جمعت بها أسفار الحكمة تلك .

وعلى سبيل المثال فالمزمور الرابع عشر (المنسوب لداود) يتحدث عن السبى وعن أحوال اليهود وفسادهم !!

ولأن داود لم يعاصر هذه الأحداث فالمزمور إما مدسوساً على داود وإما رؤيا مستقبلية صادقة له !

نفس الكلام أيضاً يصدق على المزمور الثالث والخمسين ، بينما نلاحظ فى المزمور الثالث والثلاثين دعوة عنصرية فجة تتفق مع الفكر الكهنوتى :

«طوبى للأمة التى الرب إلهها . الشعب الذى اختاره ميراثاً لنفسه» .

ولا نندهش عندما نعرف أن المزمور مجهول المصدر .

كذلك نلاحظ اختلاف المزمور الخمسين بالنسبة لقضية الألوهية فنجده يحمل معنى للتعددية عندما يقول : **«إله الآلهة الرب تكلم ...»** كذلك لا يخلو من معانى العنصرية : **«اسمع يا شعب فاتكلم . يا إسرائيل فاشهد عليك . الله إلهك أنا»** أما باقى مزامير آساف فتتسق مع الفكر الدينى اليهودى إبان زمن السبى فنجد مثلاً المزمور الثمانين المنسوب لآساف هذا عبارة عن ترنيمة للخلاص وتعذيباً للذات واعترافاً بالذنب وصراخاً بالشكوى وهو ما يجعلنا نتأكد أن كاتب المزمور عاصر الاجتياح البابلى لأورشليم وتأثر به إلى حد كبير .

«اللهم إن الأمم قد دخلوا ميراثك . نجسوا هيكل قدسك . جعلوا أورشليم أكواما . دفعوا جثث عبيدك طعاماً لطيور السماء ... إلى آخره» .

ولكن مما يثير الأسف والأسى أن تساوى التوراة بين آساف هذا المغنى وداود النبى ، ولعلها

تعتبر نبى الله أيضاً من طائفة المغنين !!

وبعيداً عن هذه الملاحظة فنحن نفتح قوسين ونضع فيها ملاحظة أخرى نقول فيها : "إن سفر أخبار الأيام يخبرنا عن أساف المغنى هذا فيقول إنه عاصر زمن حكم الملك داود وكان من المتنبئين بين يدى الملك والمغنين فى المعبد فكيف أدرك هذا الشخص ذاته زمن السبى وبينهما من السنين الكثير ؟! فهل تنبأ هذا المغنى بأحداث السبى إلى هذه الدرجة من الدقة أم لصق كتّاب العهد القديم توقيعه على تلك المزامير ؟!

إن نص المزامير المنسوب لآساف لا يمكن إلا أن يكون ترنيمة للخلاص لرجل عاش الأحداث وأكتوى بنارها حتى يقول :

«يا إله الجنود أرجعن اطلع من السماء وانظر وتعهد هذه الكرمة (بنى إسرائيل) والغرس الذى غرسته يمينك والابن الذى اخترته لنفسك فلا نرتد عنك . احينا فندعو باسمك . يا رب إله الجنود أرجعنا أنر بوجهك فنخلص» !! (١)

ولعل إصحاحات المزامير أوضح مثال على خلط التوراة أحياناً" للأزمنة ، فهى تجمع بين ثلاثة منها :

الأول : زمن داود .

الثانى : زمن السبى وفيه تعود الصورة القديمة للرب المحارب عن أمة اليهود (رب الجنود) هذه الصورة التى تتسق مع طلب العون المادى من الإله الجبار ، وبعد أن كانت مزامير داود (الشعرية) بها تسبيحات وطلب للغفران فمزامير آساف وقورح يسيطر عليها الشر وتصدر عن قلبين يشتهيان الانتقام ويصدّران الحقد ، فتستدعى هذه المزامير صورة يهوه الجبار ليعود فينتقم من أعداء إسرائيل.

أما الزمن **الثالث** فهو زمن العودة من السبى ونكتشفه فى المزمور الخامس والتسعين وبعض المزامير التى تليه وتحمل ترانيم الفرحة بالخلاص :

«هلم نرنم للرب نهتف لصخرة خلاصنا» ونلاحظ وحتى هذا الوقت أن التوحيد كان لا يزال يشوبه بعض الشوائب فنقرأ فى المزمور السابع والتسعين العدد ٨ : **"اسجدوا له يا جميع الآلهة"** .

وفى المزمور السادس والتسعين العدد ٤ :

---

(١) المزامير : ٨٠ .

«لأن الرب عظيم وحميد جداً مهوب هو على كل الآلهة» .

ويبقى من الحديث عن المزامير ملحوظتان :

الأولى أنها كشفت الافتراء على سيرة داود ، وإذا عدنا للمزمور الثانى والستين المنسوب لداود نجده يقول على لسان داود :

«إلى متى تهجمون على الإنسان . تهدمـونه كلكم كحائط منقضى ، كجدار واقع . إنما يتآمـرون ليدفعوه عن شـرفه . يرضون بالكذب . بأفواههم يبـاركون وبقلوبهم يلعنون» ونجد فى المزمور السابع والثلاثين لداود :

«حد عن الشـر وافعل الخير واسكن إلـى الأبد لأن الرب يحب الحق ولا يتخل عن اتقيائه .. الصديقون يرثون الأرض ويسكنونها إلى الأبد» .

فإذا كـان ما سبق هو كـلام داود فهل نصـدق أنه نفس الإنسان الذى يزنى ويحـرض على قتل زوج المرأة التى زنا بها ؟!

الملحوظة الثانـية أن المزاميـر الثلاثة من الرابع إلى السـادس بعد المائة ، وهى مـجهـولة المصدر تلخص بعض الأحداث التى وردت فى سفرى التكوين والخروج بل وتستعير بعض التعبيرات من هذين السفرين مثل :

«الصانع ملائـكته رياحاً وخدامه ناراً مـلتهبة .. المؤسس الأرض على قـواعدها فلا تتزعزع إلى الدهر والأبد . كسوتها الغمـر كثوب ... من بين الأغصان تسمع صوتاً ... تجعل ظلمة فيصير ليل فيه يدب كل حيوان الوعر» . (١)

«فجاء إسرائيل إلى مصر ويعقوب تغرب فى أرض حـام ... جعل شعبه مثمراً جداً وأعزه على أعدائه . جـعلوا قلوبهم ليبغضوا شـعبه ليحتالوا على عـبيده ... أرسل موسى عبده وهارون الذى اختاره ... بسط سحاباً سجفاً وناراً لتضئ الليل». (٢)

«صنعوا عجـلاً فى حوريب وسجدوا لتمـثال مسبوك وتعلقـوا بـبعل فغـور وأكلوا ذبائـح الموتـى ... فـوقـف فينحـاس ودان فامـتنع الوبـاء ... واسـخطوه على مـاء مريبة حتى تـأذى موسـى بسببهم » . (٣)

---

(١) المزكور ١٠٤ .

(٢) المزمور ١٠٥ .

(٣) المزمور ١٠٦ .

ومثل هذه الإصحاحات المجهولة المصدر تثير كثيراً من الشك والريبة ولابد أن تخلق استفسارات : فعلى أى أساس ضمت هذه الإصحاحات إلى سفر المزامير ؟! أمجرد التشابه فى مقطع افتتاحى لمزمور قاله داود يبدأ بطلب البركة يمنح هذه الإصحاحات الحق المقدس فى أن تضم إلى سفر المزامير ؟! وما هو مصدر هذه الأنشودات ؟! من قائلها ؟! فإذا كانت مجهولة المصدر فمن يضمن لها أن تكون وحيا من السماء ؟!

لقد سبق أن قلنا ونعيد : إن ثلثى المزامير منسوبة لغير داود المبتهل الأعظم صاحب الزابور ولأن داود هو الأصل فقد لصقت كل المزامير باسمه فما من قائل إلا ويقول : مزامير داود .

أيوب ليس عبرانياً !

ويفاجئنا بنيامين جرين فى تلخيصه التاريخى للعهد القديم برأيه فى سفر أيوب فيقول إن السفر أقدم من النبى موسى نفسه وبالتالى فهو أقدم من التوراة [١] وكان قد سبق جرين فى رأى مشابه الفيلسوف الفرنسى «فولتير» حيث قال إن السفر كان من تراث العرب ونقله العبريون إلى لغتهم ، ويستدل جرين وفولتير على صحة رأيهما ببعض الملاحظات منها أن الشيطان الذى يشغل مكاناً رئيسياً فى السفر ويشارك فى تحريك الأحداث ، لم يعرف العبريون اسمه وأصل الكلمة كلدانية ، وأن أيوب ينتسب إلى أرض عوص التى تقع فى شمال شبه جزيرة العرب ، أما أصدقاء أيوب الذين ورد ذكرهم فى السفر فينتمون إلى أسماء ومناطق عربية ، كذلك لاحظ بعض الباحثين ذكر الجمال ضمن ثروة أيوب وهى لحوم محرّمة على اليهود ولم تُذكر بين ثرواتهم حتى عند ذكر دواب الحمل ، ثم إن الحادثة الرئيسية التى تبدأ بها القصة وهى المنافسة بين الرب والشيطان على أيوب تردنا إلى عقائد الفرس التثنوية وكانوا فيها يساون فى المنزلة بين إله الشر أو الظلمة وإله الخير أو النور وهو ما يتعارض مع شريعة التوحيد التى جاء بها موسى .

على أن السفر لم يخل من بصمة الكتبة والكهان ، ففى إصحاحته نجد ظلاً لسفر التكوين :

> **«يصر المياه فى سحبه فلا يتمزق الغيم تحتها ... رسم وجه المياه عند اتصال النور بالظلمة ... أنه مادامت نسمتى فىّ ونفخة الله فى أنفى ... عندما ترنمت كواكب الصبح معاً وهتف جميع بنى الله»** . [٢]

---

(١) الفكر الدينى اليهودى د . حسن ظاظا ص ٥٥ .
(٢) أيوي إصحاحات ٢٦ ، ٢٧ ، ٣٨ .

وربما وقعت هذه الإضافات على السفر قبل أن يضم فى صورته الأخيرة إلى التوراة العبرانية على يد عزرا .

وعلى عكس ما عرفناه من سيرة أيوب الصابر على البلاء الشاكر ربه فإصحاحات السفر تصوره أحياناً ينوح ويهذى بكلمات الشكوى المرة التى لا تشى إلا بفراغ الصبر :

«وأما الآن فقد ضحك علىّ أصاغرى أياماً .. الذين كنت استنكف من أن أجعل اباءهم مع كلاب غنمى ... أما الآن فصرت أغنيتهم وأصبحت لهم مثلاً .. إليك أصرخ فلا تستجيب لى .. أقوم فما تنتبه إلى.. تحولت إلى جاف نحوى بقدرة يدك تضطهدنى» [1].

إلى آخر مثل هذه العبارات التى لا يمكن أن تصدر عن نبى ■

---

(١) أيوب : ٣٠

الفصل الرابع

التوراة السياسية

- الخروج الثانى

من هنا كان يجب أن نبدأ الحديث ، ولكن حتى لا يبدو الكلام غامضاً فقد آثرنا أن نقدم النص أولاً ونؤخر شرح الظروف النفسية والتاريخية والاجتماعية التى جُمع فيها النص ورُتب ثم تأثير العوامل الخارجية على تلك الظروف .

إن تاريخ بنى إسرائيل فى فلسطين كما ورد فى التوراة يغطى مدة زمنية طويلة تزيد على الألف سنة وهذا التاريخ مقسم إلى جزئين .

يقول لوسيان جوتيه شارحاً ذلك فى مقدمته عن العهد القديم المجلد الأول :

«إن هذا التقسيم لا يتبع خطة تاريخية فشطره الأول يجنح نحو التاريخ السياسى والعسكرى والإدارى البحت ولا تبدو فيه النبوة إلا من خلال الأحداث ، بينما الجزء الثانى نبوات صرفة تبدو الأحداث من خلالها فى المقام الثانى» . (1)

ولعل الربط بين الأحداث سوف يخرج لنا نتيجة بديهية وهى أن عهد النبوات مرتبط ارتباطاً وثيقاً بما جرى على دولة اليهود السياسية إبان احتضارها بدءاً من مناوشات الامبراطور الآشورى تغلات فالصر لمملكة الشمال (إسرائيل) على عهد حاكمها فاقح بن رملياهو ثم مهاجمة هذا الامبراطور لتلك المملكة وتدميرها فسبى أبناءها إلى آشور عام ٧٢١ ق . م ، إلى أن يجرى على مملكة يهوذا ما جرى على مملكة إسرائيل ، وسقوطها على يد بختنصر الامبراطور البابلى عام ٥٨٨ ق . م .

ولابد أن يندهش قارئ سيرة بنى إسرائيل فى هذه السنين عندما يعرف خبراً عن هذه الكثرة من الأنبياء الذين بعثوا لهم يحاولون أن يردوهم عن آثامهم وشرورهم المتصاعدة .

ومن هؤلاء الأنبياء نرصد : عاموس وهوشع وإشعيا وميخا وناحوم وآرميا وصنفيا وحبقوق وحزقيال وعويديا وحجاى وزكريا وملاخى ويوئيل ويونس . (2)

---

(1) ورد هذا الرأى أيضاً فى كتاب د . حسن ظاظا - الفكر الدينى الإسرائيلى - وعنه نقلناه .
(2) الترتيب ترتيب تاريخى قام به لوسيان جوتيه .

ونظـرة سريعة إلى مـادة اللغـة فى أسفار هـؤلاء الأنبياء سوف تـكشف لنا عن تغيير جـذرى فى منهـج النص التـوراتى اللغـوى والموضوعى ، فـالعاطفـة تغلب على الخطاب مـقابل انحـسار السرد التاريخى وتتحول الجمل الخبريـة إلى جمل إنشائيـة مع انشغال النـص بقضيـة أساسيـة هى التنبـؤ بما سـوف يجـرى على أمــة اليهود بسـبـب خروجـهم على عهدهم مع الإلــه (المواعـيد) وتستطيع أن تضـع عنواناً كبيـراً لمدونـات تلك الأسفار تتلخـص فى أن أمة اليهـود تحاكم نفسهـا وتجلـد ذاتها وتحـاول أن تقطـع عهـداً جديداً دائماً مع الإله تجـدد به العهود السابقة .

وعلينا هنا أن نذكر أن ملوك اليهود (ملوك العهد القديم) كانوا يتخذون لأنفسهم كتبة ونساخاً من طائفة الكهنة وأثـناء السبى البابلى زادت الاخـتصاصات الدينـية لهؤلاء الكتبـة فأضيف إليـها تعليم الشريعة للشعب ، فتفرغوا لتدوين الشريعة وتعليمها وتفسيرها، وكان الشعب - فى منفاه - قد نسى الـلغة العبـرية المدونة بها تلك الشـريعة وهذا مـا زاد الشعب فى بعـده عن كتـابه المقدس وارتفاع مكانة هؤلاء الكتبة أصحاب الأسرار المقدسة .. ومن بين صفوف هؤلاء الكتبة خرج عزرا الذى اشتهر بأنه كاتب ماهر فى شريعة موسى واشتهر فيما بعد بجمعه للتوراة العبرانية وضم إليها سفراً سماه على اسمه .

ونلاحظ فى الترتيب الأخيـر لأسفار التوراة العبـرانية أن سفر عزرا متـقدم فى الترتيب - رغم تأخره فى الزمن المدون به - على كثير من الأسفار التى جاءت بعده !

نلاحظ أيضاً أن عزرا - فى سفره - أصبغ على دعوة الهـجرة من بابل إلى فلسطين صبغة دينية حتى أنه جـعلها إرادة إلهـية ، وربط المسألة كلهـا بوصيـة من الوصايا العشـر (وصيـة السبت) فى تخريجة عجيبة تفتق عنها ذهنه :

«حتى اسـتوفت الأرض سبـوتها لأنها سـبتت فى كل أيام خرابهـا لإكمال سـبعين سنة» . (١)

فقـد اعتبر عـزرا أن مكوث اليهود فى السبى بعـيداً عن فلسطين حوالى سـبعين عاماً هى فـترة زمنية جـعلها الإله لتستـوفى أرض فلسطين سبوتهـا وفى هذا يتحدث عزرا عن يهـود مملكة يهوذا ويغفل يهود مملكة إسرائيل الذين كانوا قد تم سبيهم قبل ذلك بحوالى ١٣٣ سنة !! .

ويمضى عـزرا فى سفـره يسـتكمل شكل الإرادة الإلهـيـة فى قرار العـودة إلـى فلسطـين على النحـو التالى :

---

(١) أخبار الأيام الثانى ٢٦ : ٣٢.

«وفى السنة الأولى لكورش ملك فارس عند تمام كلام الرب بفم أرميا نبه الرب روح كورش ملك فارس فأطلق نداء فى كل مملكته .. من منكم من كل شعبه ليكن إلهه معه ويصعد إلى أورشليم التى فى يهوذا فيبنى بيت الرب إله إسرائيل» . [1]

ويبدو أن عزرا كانت له وجهة نظر بالنسبة لملوك آشور وبابل مؤداها أنهم مجرد أدوات منفذة لإرادة الإله وعلى ذلك لم يكونوا أشراراً بالمرة عندما هجموا بجيوشهم على مملكتى إسرائيل ويهوذا وحطموا المدن وخربوها وسبوا الشعب إلى بلادهم لقد اعتبر عزرا أن ما حدث تأديباً من الرب للشعب الذى نقض العهد واعتبر ملوك آشور وفارس السيف الذى نفذ الإرادة الإلهية !

ولم تعتن التوراة بتسجيل أمور اليهود أثناء السبى إلا بقصص أفراد متفرقة (للعبرة والعظة) مثل قصة سوسنة وقصة أستير وشذرات أخرى وردت فى سفرى عزرا ونحميا ومن هذه الأخبار والشذرات نفهم أن اليهود كانوا معزولين عن الشعوب التى عاشوا بين ظهرانيها فى مملكة أشور التى ورثتها مملكة بابل فورثتها مملكة فارس، ونفهم أيضاً أن المسبيين كانوا دائماً يحاولون التقرب من مراكز السلطة عن طريق المكر والخديعة أو عن طريق دفعهم ببعض الرجال وبعض النساء إلى بلاط الحكام للخدمة فيها ونيل الحظوة والتفضيل (نحميا - أستير) وحتى يأمنوا أيضاً شر تقلبات الحكام ، وكأن دأب الشخصية اليهودية فى ذلك التملق والمكر والخديعة التى هى مفردات أخلاق الضعفاء والأقليات والتى نجحوا فيها - نسبياً - على مر العصور بل ضمنوها شريعتهم فقبلتها الأجيال المتعاقبة على أنها تعاليم مقدسة !!

ولعل سفر أستير ويهوديت هما أبرز مثالين على ما نقول .

ولم يكن حال الضعفاء الذين نجوا من السبى وتُركوا فى فلسطين بأحسن حالاً من الذين تم سبيهم إلى العراق فى مملكتى أشور وبابل ، ونصوص سفر نحميا تنقل لنا جانباً من شكاوى هؤلاء الذين بقوا فى شر عظيم وعارٍ يعاينون سور أورشليم المنهدم وأبوابها المحروقة بالنار ومتسلطاً عليهم شعوب الحورنيين والعمونيين والعرب .

على أن الموجودين فى السبى كانوا يتمتعون بشيء من الحرية فى ممارسة عقيدتهم حتى إنه سُمح لهم بتنظيم أكاديميتين فى سورة وفومبادتيا فى شنعار (العراق) ومن هاتين الأكاديميتين خرج التلمود البابلى ، واهتم رهط آخر من الكهان والكتّاب بجمع التراث المقدس للشعب اليهودى وأشهر هذا الرهط عزرا **«الكاهن الكاتب . كاتب كلام وصايا الرب وفرائضه على إسرائيل»** إلى

---

(١) عزرا ١ : ١- ٥ .

آخر تلك الصفات التى قدم بها نفسه فى سفره .

وعلى الرغم من أن العودة من بابل إلى فلسطين ارتبطت بشخصيات أخرى - غير عزرا - مثل نحميا وزر بابل ويشوع بن يوصاداق وغيرهم من قادة العودة فإن عزرا نال هذه الشهرة والتميز لأنه كان بمثابة المُنَظِر الأيدلوجى أو المفكر الكهنوتى الأعظم لليهود العبرانيين (تمييزاً لهم عن السامريين) .

وكان عزرا عندما تصدى لهذا المشروع المزدوج (جمع التوراة وحث اليهود على العودة لأرض الميعاد) محملاً بإرث دينى ضللته معتقدات أسطورية خادعة وبعثت فيها الحياة وأذكتها روح البحث الدينى الكهنوتى أثناء السبى .

كانت المعتقدات الأسطورية قوامها العنصرية وتفضيل بنى إسرائيل على العالمين والميراث الأبدى للأرض المقدسة أو العهد الدائم مع الإله الذى يعاقب ابنه «مصطفاه» (أمة اليهود) ليؤدبه عند عصيانه لكنه لا ينساه أبداً لأنه ابنه البكر وحدقة عينيه (عين الإله) .

ومع ازدهار البحث اللاهوتى لكهنة إسرائيل أثناء السبى تبنى عزرا مشروع جمع التوراة (رسالة الله لشعبه المختار) ، وعزرا نفسه يُرجع نسبه فى التوراة إلى هارون أخى موسى :

> **«عزرا بن سرايا بن حلقيا بن شلوم بن صادوق بن أخيطوب بن أويا بن عزريا بن مرايوث بن زرحيا بن عزى بن ابيشوع بن فينحاس بن العازار بن هرون الكاهن الرأس» . (١)**

ويقدم عزرا نفسه فى سفره - على أنه كاتب ماهر فى شريعة موسى هيأ قلبه لطلب شريعة الرب والعمل بها ليعلم إسرائيل فريضة وقضاء ، وبذلك تسلط عزرا على الشعب اليهودى بينما كان هو نفسه تسيطر عليه فكرة العودة إلى فلسطين بشكل كبير ويكشف عن ذلك فى سفره فيقول:

> **«والآن كلحيظة كانت رأفة من لدن الرب إلهنا ليبقى لنا نجاة ويعطينا وتدا فى مكان قدسه لينير إلهنا أعيننا ويعطينا حيوة قليلة فى عبوديتنا لأننا عبيد نحن وفى عبوديتنا لم يتركنا إلهنا بل بسط علينا رحمة أمام ملوك فارس ليعطينا حيواة لنرفع بيت إلهنا ونقيم خرائبه وليعطينا حائط فى يهوذا وأورشليم» . (٢)**

واختلطت الفكرة السياسية (العودة لتكوين دولة فى فلسطين) بالفكرة الدينية (العهد مع الإله)

---

(١) عزرا ٧ : ١ .
(٢) عزرا ٩ : ٨ - ٩ .

فى عقل عـزرا حتى صـارا فكرة واحدة وهنا وجـد عزرا أنه لابد أن يجـمع تراث اليهـود المقدس ويجعله دستوراً يربط أمة اليهود بأول الزمـان وآخره فلم يكن لليهود حق تاريخى أو طبيعى يكفل لهم المطالبة باسـترداد فلسطين التى تفـرقت مرة أخرى بين شـعوبها الأصليين وبين الشـعوب التى أسكنهـا ملك بابل مكان اليهـود الذين سبـاهم إلى العراق ولم يكن لـليهود إلا المـطالبة باسـترداد المدينة المقدسـة أورشليم وإعادة بناء ما تهدم من الـهيكل . وبالتالى لم يكن أمام عـزرا إلا اللجوء للحق الدينى لإيهام حكام الفرس بحق أمة اليهود فى سكنى أورشليم كذلك لإحياء النعرة القومية الدينية عند اليـهود وحثهم على ترك فارس التى اسـتقروا بها والعودة إلى فـلسطين وفى ذلك فقد ربطت أدبيات التوراة بين رضا الإله والعودة إلى أورشليم .

وبدأ عزرا بجمـع ما وصل إلى يديه من أوراق وأسفار يعـتقد فى قدسيـتها ، بعضـها منسوب لكهنة وبعضهـا الآخر منسوب لأنبياء بنى إسرائيل سواء أكـانوا أنبياء حقيقـيين أو كانوا خاضعين لمفهوم النبـوة اليهودى (متنبـئين) وعلى الإجمال فقـد جمع عزرا كل ما اعتـقد فى قدسيـته وأعاد ترتيبه وتنقـيحه من وجهة نظره الشخـصية بحيث استخلص من تـاريخ الخلق تاريخاً لبنى إسرائيل منذ نوح عليه السلام وحتى السبى البابلى ، وقبل أن نتطرق لأبرز سمات هذا التاريخ نذكر أن هذا التـاريخ تم ربطه بحـبل الوعـد الإلهى لبنى إسـرائيل فى الأرض المقـدسـة ؛ هذا الوعـد الذى تم تدعيـمه بالأسطـورة الدينية والتكرار (تكرار الوعـد من الإله كل حقـبة من الزمن) أمـا الأسطورة فكان قوامها عنصرين أو فكرتين أساسيتين هما :

العنصرية : بمعنى تفضيل الإله للشعب الإسرائيلى دونما سبب واضح فى كثير من الأحوال فهو حب حسب الهوى (حاشا لله أن يتبع هوى البشر) وبالتـالى فالعنصر الإسرائيلى له التفضيل على كافة أجناس البشر ! ! وظهر ذلك واضحاً فى التـشريع التوراتى الذى يعطى ميزات مادية لليهودى ويحرم منها الغريب وأيضاً يقبل لهذا الغريب الدنية التى لا يقبلها لليهودى !

ويدخل ضمن العنصـرية النقـاء السلالى الذى إدّعاه اليهـود دوماً فقالوا إنهم «خـالصون» من نسل إسرائيـل وإسرائيل خالص من نسل سـام بن نوح ولعل هذا يتسق مع فـكر عزرا الذى وضع شـروط قاسـية لاختـيار العائدين من السبى وكأن سلالـة اليهـود حقيقة خالصـة لم تختلط بسلالة المصريـين أثناء فـترة وجود بنى إسرائيل فى مصر ولم يدخل بينهـم غرباء عند خروجهم من مصر ولم يختلطوا بالشعوب التى كانت تسكن فلسطـين مثل المؤابين والعمونيين والفلسطينيين إلى آخر هذه الشعوب . إن عزرا كـان كمن يخفى عورته بورقة توت فحـقيقة دعوته للقوميـة اليهودية إنها

دعـوة سياسية فلقد أراد القائد أن تقـتصر العودة إلى فلسطين على اليهود دون غيرهم فاختلق هذا الشرط العنصرى على أساس دينى وفـضحته التوراة نفسها عندما لم تخف دعـوة النبى إيليا بقبول من يدخل اليهودية فى شعب الله !

جلد الذات : وقد سيطرت هذه الفكرة على عقل عزرا واستغـرقته تماماً فراح يبحث عن سبب الهوان والمذلة والاضطهـاد التى يعيشها اليـهود فى منفاهم ببابل أو فى فلسطـين حيث بقت شراذم منهم بعد أن وجد هذا يخالف الأساطير الدينية التى ورثها عن أجداده الذين أبرم الإله معهم وعداً دائماً بالأرض والقداسة **(تكونون لى أمة كهنة وأكون لكم إلهاً)** واكتشف عزرا أن الشعب لابد أن يكون قد أخطأ خطأ مـا يستوجب هذا العـقاب وتكفيراً عن ذنب الشـعب فقد جلد عزرا الجـميع بكرباج الآثام ، الكل أخطأ ، حـتى الأنبياء والرسل فـى بنى إسرائيل لم يسلمـوا من ذلك فألصق بهم الكبائر ، عزرا نفسه يعترف بذلك ولا يخفى ، فيقول فى سفره :

«وعند تقدمة المسـاء قمت من تذللى وفى ثيابى وردائى الممزقة جثـوت على ركبتى وبسطت يدى إلـى الرب إلهى وقلت . اللهم إنى أخـجل وأخـزى من أن أرفع يا إلهى وجهى نحوك لأن ذنوبنا قد كثرت فوق رؤوسنا وآثامنا تعاظمت إلى السماء . منذ أيام آبائـنا نحن فى إثم عظيـم إلى هذا اليـوم ولأجل ذنوبـنا قـد دفـعـتـنا نحن وملوكنا وكهنتنا ليد ملوك الأراضى للسيف والسـبى والنهب وخزى الوجوه كهذا اليوم» . (١)

وعلى هذا الأساس السـابق قبل عزرا أسفـار ومدونات ورقع مليئة بالرزايا والافـتراء على آباء إسرائيل **(منذ أيام آبائنا ونحن فى إثم عظيم)** .

ويلفت نظرنا أيضـاً هذا المفـهوم السـيـاسى الذى ربط بين الشعـب اليهـودى وأرض فلسطين وتجلى ذلك فى التسمية التوراتية (شعب الأرض) : **«وقتل شعب الأرض جميع الفاتنين على الملك آمون وملك شعب الأرض يوشيا ابنه عوضاً عنه»** . (٢)

وكانت تسمية شعب الأرض تظهر وتختـفى دونما سبب واضح لكن كثر ظهورها فى الأسفار التى تروى أحداثاً قريبة من زمن السبى وكأنها ترسخ أحقية بنى إسرائيل فى أرض فلسطين قبل أن يطردوا أو ينفوا منها .

***

(١) عزرا ٩ : ٥ - ٧ .

(٢) أخبار الأيام الثانى ٣٣ : ٢٥ .

وسيطر اليأس على المسبيين حتى جعل بعضهم يجحد الرب أو يكفر به وجعل آخرين يدّعون أن الإله قد هجر الأرض أو لم يعد يُرى مثلما ورد فى سفر حزقيال ٩ : ٩ .

«لأنهم يقولون الرب قد ترك الأرض والرب لا يرى»

ومن قلب هذا اليأس ولدت فكرة الخلاص :

«أما إسرائيل فيخلّص بالرب خلاصاً أبدياً» .[١]

وظهرت فى نصوص التوراة إمارات الخلاص العنيف بتمجيد القوة والبطل الأسطورى وقبول أساطير المبالغة فى الانتقام كإسقاط مضاد للذل والهوان ، وراحت الأسفار تمجد فكرة ظهور البطل المخلص الذى يجئ من نسل داود حيث ارتبط المجد فى إسرائيل باسم داود وبرز أيضاً اسم رب الجنود الباطش الجبار يدعم هذا البطل الأسطورى أو المسيح المخلص (المسيا) ، ولما يئس اليهود من بعث هذا المسيا بين ظهرانيهم جعلوا قورش الملك الوثنى هو نفسه المسيح !! وجعلوه يتصل بالرب مثل الأنبياء والرسل !!

«هكذا يقول الرب لمسيحه قورش الذى أمسكت بيمينه لأدوس أمامه أمما وأحقاء ملوك . أحل لأفتح أمامه المصراعين والأبواب لا تغلق» .[٢]

هذا ما اعتقده عزرا فى كورش وليس النبى أشعياء فالأخير عاش قبل أن يظهر قورش بزمن طويل ويقول مؤرخو الكتاب المقدس انه وضع سفره حوالى سنة ٧٤٠ ق . م ويؤكد ذلك بداية سفره .

«رؤيا أشعياء بن آموصى التى رآها على يهوذا وأورشليم فى أيام عزيا ويوثام وآحاز وحزقيا ملوك يهوذا» .

أما الزمن الذى عاش فيه قورش وسمح للمسبيين بالعودة إلى فلسطين فيجىء بعد هذا الزمن بحوالى مائتى وعشرين عاماً !!

ونعود لفكرة المسيح المخلص فنقول إن هذه الفكرة تطورت وتلونت حسب الظروف السياسية والدينية لليهود وصارت عقيدة أصيلة فى الفكر اليهودى الدينى حتى يومنا هذا .

أما تضرعات الخلاص فنجدها متناثرة فى التوراة مثلاً يقول أحد المزامير :

---

(١) أشعياء ٤٥ : ١٥ .

(٢) أشعياء ٤٥ : ١ .

«أنظر إلى ذلى وأنقذنى لأنى لم أنس شريعتك . أحسن دعواى وفكنى حسب كلمتك أحينى . الخلاص بعيد عن الأشرار لأنهم لم يلتمسوا فرائضك» .

وباسم أشعياء وضع عزرا دعوة صريحة للخروج من بابل :

«أخرجوا من بابل . أهربوا من أرض الكلدانيين» . [1]

***

لقد بحث عزرا عن العناصر المكونة لتجربة الخروج الأول لليهود (من مصر) وأسقطها بحذافيرها على لسان الأنبياء أشعياء وأرميا بالذات لتصبح عناصر أصيلة فى الخروج الثانى أو العودة من بابل إلى فلسطين .

فى سفر أشعياء الإصحاح التاسع والأربعين يقول عزرا فى كلام منسوب للنبى أرميا :

«هكذا قال الرب فى وقت القبول استجبتك . وفى يوم الخلاص أعنتك فاحفظك واجعلك عهداً للشعب لإقامة الأرض لتمليك البرارى . قائلاً للأسرى اخرجوا للذين فى الظلام اظهروا على الطرق يرعون وفى كل الهضاب مرعاهم . لا يجوعون ولا يعطشون ولا يضربهم حر ولا شمس لأن الذى يرحمهم يهديهم وإلى ينابيع المياه يوردهم» .

والملاحظ أيضاً أن مصر لما كانت عنصراً أصيلاً فى تجربة الخروج الأول فقد سيطرت على عزرا ، فراح يبحث عنها فى المدونات بإلحاح لأنها رمز التغرب والعبودية ، وعلى هذا الأساس أيضاً نستطيع أن نفسر هذا الذكر المطرد لمصر على طول التوراة واستدعاء تجربتها كل حين وبدون مناسبة حتى وصل عدد المرات التى جاء فيها ذكر مصر فى أسفار العهد القديم إلى ١٥٦ مرة ، واقترن ذلك فى أحيان كثيرة بحوادث الخلاص الثانى أو الخروج من بابل والعودة إلى فلسطين ، ونجد ذلك فى إصحاحات سفر أشعياء :

«لأنه هكذا قال السيد الرب إلى مصر نزل شعبى أولاً ليتغرب هناك ثم ظلمه أشور بلا سبب».

وعلى الأساس السابق أيضاً نستطيع أن نفسر أسباب تلك الكراهية لمصر رمز العبودية ، وبينما وجد عزرا سبباً إلهياً لمذلة بنى إسرائيل فى بابل فإنه لم يجد هذا السبب فى تجربة بنى إسرائيل

---

(١) أشعياء ٤٨ : ٢٠ .

فى مصر ولذلك قبلت المبالغة الأسطورية فى الضربات التى حلت بشعب مصر حتى جُعل الإله يتدخل كثيراً فيزيد قلب فرعون قساوة على بنى إسرائيل ليزيد هو ضرباته على مصر !

وعلى الرغم من ذلك فقد تسربت شذرات من ضابط التوراة تشى بأن بنى إسرائيل لم يلاقوا من مصر كل هذا العنت والعذاب المذكور فى توراتهم ، هذا العذاب الذى استهواهم فبثوه لعنات على المصريين وما هو فى الحقيقة إلا عقدة السبى البابلى ولا يتناسب إطلاقاً مع كرم الضيافة المصرية لبنى إسرائيل تلك التى تجلت فى استضافتهم فى منطقة جاسان أجود وأخصب أراضى وادى النيل . أما المعركة الحقيقية فكانت بينهم وبين فرعون وليس شعب مصر ذلك الشعب الذى قبل أن يسلمهم ذهبه عند خروجهم ، واعترافهم - أثناء الخروج - بألسنتهم فى معرض تذمرهم على موسى أنهم كانوا يجلسون عند قدور اللحم فى مصر .

وقبل أن نغلق ملف بنى إسرائيل فى مصر لابد أن نشير إلى نص ورد فى سفر يشوع يعطى أبعاداً أخرى لعلاقة بنى إسرائيل بمصر والمصريين ويوضح السبب الحقيقى لبعث موسى فيهم .

يقول النص على لسان يشوع وهو يوصى بنى إسرائيل بإخلاص العبادة للإله :

«وانزعوا الآلهة الذين عبدهم آباؤكم فى عبر النهر وفى مصر واعبدوا الرب» . [1]

ومن النص نفهم أن بنى إسرائيل زاغوا فى مصر وعبدوا آلهة المصريين وآلهة أخرى جاءت معهم عبر النهر وبسبب هذا بعث الله فيهم موسى يدعوهم إلى التوحيد والعودة لعبادة إله إبراهيم وإسحق ويعقوب ويوسف ، بل ودعاهم إلى الخروج هرباً من فرعون ورجاله ليثبّت الرسالة فى المقام الأول وليس للهرب من الاضطهاد كما تحاول التوراة أن توهمنا .

فإذا كان عزرا قد وضع بصمته على الأسفار الخمسة الأولى للتوراة فإنه أعاد صياغة باقى الأسفار تقريباً . ومنذ سفرى أخبار الأيام الأول والثانى اللذين دونا بلا ريب إبان السبى .

إن هذه الأسفار تعترف فى متنها أنها منقولة عن مدونات وصلت للكاتب فأمور حزقيا منقولة عن سفر ملوك يهوذا وإسرائيل ؛ وأخبار يهو شافاط مكتوبة فى كتاب أخبار ياهو بن حنانى الرائى المذكور فى سفر ملوك إسرائيل ؛ وأخبار سليمان منقولة عن كتب أخبار ناثان النبى ونبوة أخيا الشلونى ورؤى يعدو الرائى على يربعام بن نباط .

---

(١) يشوع ٢٤ : ١٤ .

ومثلاً صيغة الرواى فى سفرى أخبار الأيام الأول والثانى تشير بانفصال زمن الرواى عن زمن الحدث المروى عنه بوقت طويل حتى إن الكاتب دائماً ما يحاول أن يستشهد على صدق كلامه بوجود شيء باق من أثر الحدث على حاله إلى وقت الكتابة فيقول مثلاً :

«فبرئت المياه إلى هذا اليوم حسب قول اليشع» .

فماذا أراد عزرا من هذين السفرين ؟! على الرغم من إنهما زائدان يعيدان رواية أحداث وردت من قبل فى سفرى الملوك الأول والثانى وفى أحيان كثيرة سبب هذا تناقض بالنسبة للحادث الواحد أو لشخوص تكررت سيرتهم بأوجه مختلفة .

لقد فعل ذلك ليضّمن هذين السفرين (أخبار الأيام الأول والثانى) أنساب رؤساء (أسباط بنى إسرائيل تمهيداً لتنظيم العائدين من السبى ، وقد فعل ذلك فأحصى أنساب بنى إسرائيل منذ بداية الخليقة إلى السبى البابلى (طبعاً من وجهة نظره هو) واستغرق هذا كل الإصحاحات التسعة الأولى من سفر أخبار الأيام ثم أعداداً أخرى داخل باقى الإصحاحات ، ونظم عزرا فى هذه الإصحاحات الموكلين بأعمال الكهانة (الكهنة) وخدمة المعبد وبيت الرب ورؤساء الجيش وحراس الخزائن حتى الذين اختصوا بوظائف الطبخ وتركيب الأطياب فى بيت الله .

وتبقى ملحوظة على سفرى أخبار الأيام اللذين تعاملا مع نبيين من أنبياء الله هما داود وسليمان على أنهما ملكان أرضيان وقيل فى ذلك أن هناك علاقة بين ذلك وبين تحويل الكهانة من بيت هارون على يد سليمان فقد طرد سليمان الكاهن أبياثار لإتمام كلام الرب على بيت عال ، لكننا نوضح أن هذا خطأ فصادوق الكاهن الذى عينه سليمان بدلاً عن أبياثار رغم عدم انتمائه المباشر لبيت عال إلا أنه ينتمى لبيت هارون ، وعزرا كاتب التوراة تعود سلالته إلى صادوق هذا.

***

وفى السنة الثانية من حكم داريوس الإمبراطور الفارسى نشطت الدعوة بين يهود السبى فى العراق إلى إعادة بناء بيت الرب فى أورشليم ، وكالعادة جعلوها دعوة إلهية مدعمة بنبؤات اثنين من الأنبياء حجى وزكريا فيقول مثلاً الأخير فى رؤياه :

«فقال لىّ الملاك الذى كلمنى نادى قائلاً . هكذا قال رب الجنود غرت على أورشليم وعلى صهيون غيرة عظيمة . وأنا مغضب بغضب عظيم على الأمم

المطمئنين . لأنى غضبت قليلاً وهم أعانوا الشر . لذلك هكذا قال الرب قد رجعت إلى أورشليم بالمراحم . فبيتى يبنى فيها يقول رب الجنود ويمد المطمار على أورشليم» .[1]

وتوضع على لسان النبى حزقيال نبوءة يحدد فيها (سنة البيت) من قياسات المذبح وفرائضه وقياسات المكايل والأوزان والعملة وبيان للتقدمات من المحرقات والذبائح وبروتوكول مقدس للدخول إلى البيت (بيت الرب) والخروج منه وطقوساً جديدة للكهانة وبعض أحكام إرث رئيس الكهنة كذلك إعادة تقسيم الأرض المقدسة ونصيب الكهنة واللاويين فيها وحتى تقسيم أبواب المدينة على الأسباط الأثنى عشر ، وكأن اليهودية تؤسس من جديد فتعيد طقوس بناء خيمة الاجتماع ثم بناء هيكل سليمان وللمرة الثالثة تعيد بناء الطقوس الكهنوتية وكأنها تعيد تمثيل مشاهد الخروج الأول من مصر .

***

ولما كان بنو إسرائيل لا يملكون من القوة ما يسمح لهم بفرض الأمر أو المقاتلة من أجله فقد لجأوا للرب يرهبون ويرغبون به أعداءهم من الفرس ويصبغون على عودتهم إلى فلسطين الصبغة المقدسة كما قلنا سلفاً :

«يا يا إهربوا من أرض الشمال يقول الرب . فإنى قد مزقتكم كرياح السماء الأربعة يقول الرب . تنجى يا صهيون الساكنة فى بنت بابل . لأنه هكذا قال رب الجنود . بعد المجد أرسلنى إلى الأمم الذين سلبوكم لأنه من يمسكم يمس حدقة عينه لأنى هأنذا أحرك يدى عليهم . فيكونون سلباً لعبيدهم . فتعلمون أن رب الجنود قد أرسلنى» .[2]

ويمضى سفر زكريا يطلب من الكاهن الأعظم ومن الشعب الحفاظ على عهدهم مع الإله كذلك نفهم من إصحاحات السفر أنه قد أوكل إلى زر بابل والعائدين من السبى فى نوبته الكبيرة بناء بيت الرب فى أورشليم والتأكيد على قيام يهوشع الكاهن العظيم بالعمل على تقديس هذا البيت .

***

---

(١) زكريا ١٤١ : ١٦ .

(٢) زكريا ٢ : ٦ - ٩ .

لكن أخطر ما فى سفر زكريا هو مفهوم يـوم الـرب الذى يشرحه السفر بإفاضـــة ذلك المفهوم الذى ورثـه إلى يومنا هذا الأصوليون اليهود وربطـوه بنهاية الـعالم فى صورته الحالية وصعود نجـم الأمـة اليهوديـة لتسـود على العالـم فى مملكتـه الأخـيرة ذلك المفهوم الذى ربطوه بنبـوءات دانيال وتبشر به جماعة صهيونيـة واضحة التوجهات تسمـى نفسها شهود يهـوه .. يقول سفر زكريا :

«هو ذا يوم للرب يأتى فـينقـسم سَلَبُك فى وسطك وأجـمع كل الأمم فى أورشليم للمحاربة فـتؤخذ المدينة وتنهب البيوت وتفضـح النساء ويخرج نصف المدينـة إلى السبى وبقيـة الشعـب لا تـقطـع من المدينـة . فيخـرج الـرب ويحـارب تلك الأمم كما فى يوم حربه يوم القتال . وتقف قـدماه فى ذلك اليوم على جبل الزيتون الذى قدام أورشليم .... وهذه تكون الضربة التى يضـرب بها الرب كل الشعـوب الذين تجندوا على أورشليم . لحمهم يذوب وهم واقفـون على أقدامهـم وعيونهـم تـذوب فى أوقابـها ولسانهم يذوب فى فمهم ...» .[1] إلى آخره .

إن يـوم الرب ما هـو إلا تطـويـراً لفكـرة الخلاص الإلهـى وحلم بنهـاية سعيـدة لشـعب عانى من الذل والاضطهـاد وهو يعـتقـد أنه الأجـدر والأولى والأحسن وهـو صـاحب الإله وخـاصتـه وحدقـة عيـنه !

واستكمالاً لهذه النهاية السعيدة يتم إيراد بقية مفهوم يوم الرب فى السفر الذى يلى سفر زكريا (سفر ملاخى) وهو السفر الأخير فى العهد القديم :

«وحى كلمـة الرب لإسرائيل عن يد مـلاخى . أحبـبتكم قـال الرب . وقلتم بما أحببتنا . أليـس عيسو أخاً ليعقـوب يقول الرب وأحببت يعقوب وأبغـضت عيسو وجعلت جباله خراباً وميراثه لذئاب البرية ...» .[2]

وتنتهى التوراة بالإصحاح الرابع من سفر ملاخى أحد الأنبياء الآخر ولابد لنا أن نعرف ونفهم تلك النهاية التى تمثل أمانى اليهود ملخصة فى شخص عزرا ورفاقه ، يقول السفر :

«فهـو ذا يأتى اليوم المتقد كـالتنور وكل المستكبـرين وكل فاعلى الشر يكونون قـشاً ويحرقـهم اليوم الآتـى قال رب الجنود فلا يـبقى لهم أصـلاً ولا فرعاً . ولكـم أيها المتقون اسمى تشرق شمس البر والشفاء فى أجنحتـها فتخرجون وتنشأون كعجول

---

(١) زكريا الإصحاح ١٤ .

(٢) ملاخى الإصحاح الأول .

الصيرة وتدسون الأشرار لأنهم يكونون رماداً تحت بطون أقدامكم يوم أفعل هذا قال رب الجنود . اذكروا شريعة موسى عبدى التى أمرته بها فى حوريب على كل إسرائيل الفرائض والأحكام ها أنذا أرسل إليكم إيليا النبى قبل مجئ يوم الرب اليوم العظيم والمخوف . فيرد قلب الآباء على الأبناء وقلب الأبناء على آبائهم لئلا أتى وأضرب الأرض بلعن».

وحتى لا يحدث خلط فيوم الرب بهذا المفهوم ليس هو يوم الدينونة حسب المفهوم المسيحى ولا يوم القيامة حسب المفهوم الإسلامى ولا حتى يتوافق مع نبوءة دانيال التى تشبه إلى حد ما مفهوم يوم الدينونة فى المسيحية (١) ويكاد النبى عاموس يفضح أمانى اليهود التى بثوها فى سفر النبى زكريا فيقول لهم النبى عاموس :

«ويل للذين يشتهون يوم الرب . لماذا لكم يوم الرب هو ظلام لا نور ... أليس يوم الرب ظلاماً لا نوراً وقتاماً لا نور له» . (٢)

ويوضح العالم الفرنسى شارل جنيبر (٣) مسألة يوم الرب فيقول :

«يبدو أن اليهود على عهد عاموس كانوا قد خلطوا ما بين قضيتهم وقضية الإله لذلك فهم ينتظرون يوم الرب لينتصر فيه شعب الله المختار على كل الأمم التى تكون قد خضعت لهم» .

ومما يثير الريبة والغموض بالنسبة ليوم الرب أن هذا المفهوم لم يأت تصريحاً ولا تلميحاً على عهد موسى أو الأنبياء الأول إبراهيم وإسحق ويعقوب .

ولابد للقارئ أن يندهش ويتساءل : لماذا هذا التناقض أو على الأقل لماذا عدم الإتساق ولو كان عزرا يزّور أو يلفق لكان حريصاً على أن يضبط تزويره أو تلفيقه ، ونحن نحيل الإجابة عن هذا السؤال لما ورد فى متن كتابنا ونؤكد بشكل صريح على نقطتين هامتين من باب التكرار .

الأولى : أن عزرا كان مقتنعاً بما يفعله اقتناع بشر وليس عن وحى من السماء .

والثانية : إن عزرا جمع كل (ما اعتقد) أنه مقدس وأنه تراث دينى للشعب اليهودى وأن هذا

---

(١) نبوءة دانيال تجدها فى : دانيال الإصحاح السابع .

(٢) عاموس ٥ : ١٨ - ١٢ .

(٣) Charl Guignebrt: Le monde Juifvars Tenps de Jesus.

الباب لم يغلق خلف عزرا ولكـنه ظل مفتوحاً إلى ما بعـد حياة عزرا بمئات السنين تم فـيها تأليف أسفـار كثيرة جـداً وضُم منها مـا ضُم للكتـاب المقدس واعـترفت به بعض الطوائف المسـيحـيـة ورفضـه البعض .

الأبوكريفا أو الأسفار المخفية

.. وكما أسلفنا ، فبعد غياب عزرا عن مسرح الحياة لم ينقطع الإلهام التوراتى وربما استمر هذا الحال إلى ما بعد ميلاد المسيح .

وكان نتـاج تلك الحقبـة ما سُمى بالأبوكـريفا وهى كلمة مـعناها المخفيـة وأول من استعـملها بمغزاها الذى وصل لنا الآن أسـقف مدينة سادرس فى القرن الثـانى الميلادى (١) وكان قد أطلـقها على تلك النصوص أو الأسفار التى كـتبت بعد عهد الأنبياء وأمر آباء الدين الأقـدمين بعزلها فى أدراج لا تخرج للجمهور وبذلك فهى مخفية أو مخزونة .

وهذه الأسـفار تـنقسم هى الأخـرى إلى قـسـمين القسـم الأول وهو الذى يعنينا بالبـحث هو الأسفار القانونية الثانية وهى أسفار مقبولة كما قلنا فى البداية من الطوائف المسيحية ومرفوضة من البروتستانت فقط بينما هناك أسفار أخرى مرفوضة من الجميع تقريباً يعترف المسيحيون بأن اليهود والهراطقة لفقوها بينما رفضوها هم (المسيحيون) . (٢)

والواقع أن أول من حـذف هذه الأسفـار من الكتـاب المقدس هم الـيهـود أنفسـهم (٣) وعلى نهـجهم سـار البروتسـتانت فطبـعوا الكتـاب المقدس بدون تلك الأسـفار بينمـا تمسك بصـحتـها الكاثوليك والأرثوذكس .

وقـد رأى الرافضـون لتلك الأسـفار أنهـا لا تحـمل روح الكلام الموحى به من الله لذلك فـهى تناقض التوراة أو كتب الأنبـياء أو أنها كتبت بعـد انتهاء عهد الأنبـياء فتسمى الكتـابات المتأخرة . ونظر إليهـا أيضاً على أنها تحمـل نصوصاً أسطورية خيـالية أو أدبية حكمـية لا تمت للدين بصلة . وأخيراً فقد اعتبروها نصوصاً انفردت برواياتها طوائف منشقة على اليهودية .

وهذه الأسفـار إما تنقسم إلى أسـفار تاريخية مـثل سفرى المكابيين الأول والـثانى وتتمة سـفر أستير ، وإما نصوص عـقائدية ضد عبادة الأصنام وبيان قدرة الله ومعجزاته مـثل تتمه سفر دانيال

(١) الأسفار القانونية الثانية طبعة مكتبة المحبة .
(٢) المصدر السابق ص ٧ .
(٣) د . حسن ظاظا (الفكر الدينى الإسرائيلى) ص ٧٢ الهامش .

وسفر طوبيا ويهوديت ، وإما أسفار للحكمة مثل سفر الحكمة المنسوب إلى سليمان أو حكمة يشوع بن شيراخ الذى ينقسم إلى جزءين أحدهما تاريخى والآخر حكمى .

وأما الطوائف المسيحية التى تقبل هذه الأسفار فحجتها فى الدفاع أنه ربما تعذر العثور على هذه الأسفار أيام عزرا بسبب تشتت اليهود بين الممالك ، وأن يوسيفوس (جوزيفوس) المؤرخ اليهودى شهد بمكانة هذه الأسفار عند اليهود (غير أنها لم تكن عندهم مؤيدة بالنص تأييد الأسفار القانونية الأولى) بينما ترى طائفة البروتستانت أنها لا ترقى إلى المستوى الروحى لباقى أسفار التوراة ولذا فلا يمكن القول بأنه موحى بها . (١)

والأمر لا يحتاج إلي كل هذا الجدل لأنه واضح بيّنْ إذا رجعنا إلى الأسفار نفسها حيث يقول مثلاً كاتب سفر المكابيين الثانى فى نهاية سفره :

«وههنا أنا أيضاً أجعل ختام الكلام فإذا كنت أحسنت التأليف وأصبت الغرض فذلك ما كنت أتمنى وإن كان لحقنى الوهن والتقصير فإنى قد بذلت وسعى . ثم كما أن شرب الخمر وحدها أو شرب الماء وحده مضر وإنما تطيب الخمر ممزوجة بالماء وتعقب لذة وطرباً كذلك تنميق الكلام على هذا الأسلوب يطرب مسامع مطالعى التأليف» . (٢)

إن الكاتب يصرح بتأليفه للكلام ولم يشر من قريب أو بعيد للوحى وهو يعترف أيضاً بتصرفه وتجميله للكلام طلباً لإقناع القارئ . كذا يعترف كاتب هذا السفر فى متونه ولأكثر من مرة أنه نقل من سجلات مؤرخين عاديين :

«وقد جاء فى السجلات أن أرميا ..... إلى آخره» . (٣)

وفى موضع آخر يقول :

«وقد شرح ذلك فى السجلات والتذاكر التى لنحميا وكيف أنشأ مكتبة جمع فيها أخبار الملوك والأنبياء وكتابات داود ورسائل الملوك فى التقادم» . (٤)

ولا يخفى هذا السفر أيضاً أنه ينقل ويختصر عن كاتب آخر اسمه ياسون القيروانى حيث يقول:

---

(١) الكتاب المقدس الأسفار القانونية الثانية ؛ مكتبة المحبة .

(٢) المكابيين الثانى ١٥ : ٣٨ - ٤٠ .

(٣) المكابيين الثانى ٢ : ١ .

(٤) المكابيين الثانى ٢ : ١٣ .

«تلك الأمور التى شـرحها ياسـون القيروانى فى خمـسة كتب قـد أقبلنا نحن على اختصارها فى درج واحد» . [1]

ويسترسل الكاتب فيشرح :

«ولما رأينا تكاثر الحوادث والصعـوبة التى تعتـرض من أراد الخوض فى أخبـار التأريخ لكثـرة المواد كان من همنا أن نجعل فيمـا كتبناه فكاهة للمطالعة وسـهولة للحـافظ وفائدة للـجميع . فلم يكن تكلفنـا لهـذا الاخـتصار أمـراً سهـلاً إنما تم بالعرق والسهر» .

ولا أعتقد – أو غيرى يفعل – أن الكلام السابق موحى به أيضاً من السماء .

إن الأسفار المخفية يجوز عليها كثير مما قيل فى الأسفار القانونيـة وهى تحمل نفس السقطات لأنها لا شك من تأليف بشـر وليس من عند الله فمثلاً أسفـار المكابيين كانت خمسـة رفضت منها ثلاثة رفضـاً فيه شبـه إجماع وقُبِـل أثنان . وهذان السفران المقبـولان نستطيع أن نسميهما سـفرى المراسلات والمكاتبات وأخبار التحريم بحد السيف ومبالغات العنف وأساطير بأس الأمة اليهودية، أما حجة الكنيستين الكاثوليكية والإرثوذكيـة فى قبـول هذين السفـرين وغيـرهما من الأسـفار القانونية الثانية فهى : الاقتباس منها فى العهد الجديد !

وعلى سبيل المثـال فإن أحد أعياد اليهود (عـيد التجديد) لم يرد ذكر عنه فى الأسفـار القانونية الأولى بينما جـاء فى سفر المكابيين الأول أن يهـوذا المكابى هو أول من رسم مع إخوته أن يحـتفل اليهود بهذا العيد .. وجاء فى إنجيل يوحنا عبارة تقول :

«وكان عيد التجديد فى أورشليم وكان شتاءً وكان يسوع يتمشى فى الهيكل» إلى آخره.

وعلى هذا فقد اعتبرت العبارة السابقة استـشهاداً من يوحنا أو اقتباساً مـن هذا السفر وبالتالى دليلاً على وحيه من السماء !!

وبهذا المنطق ذاتـه نقول كان لابد أن ترفض الأسـفار القانونيـة الأولى التى لم تذكر هذا العـيد مادمام ذكره دليلاً على صحة السفر وإقراراً بنزوله من السماء !

إننا لو طالعنا الأعداد الأولى من الفصل الخامس عشر من سفر المكابيين لقرأنا :

«وأنفذ أنطيـوكس بن ديمتريوس الملك كتـباً من جزائر البـحر إلى سمـعان الكاهن

---

(١) المكابيين الثانى ٢ : ٢٤ .

رئيس أمة اليهود وإلى الشعب أجمع وهذه فحواها : من أنطيوكس الملك إلى سمعان ..» .

وتمضى الأعداد تسرد النص الرسمى للمكاتبة الملكية ومعها لا نملك إلا أن نسأل أنفسنا مندهشين من عمل الوحى هذا الذى هبط من السماء يملى على كاتب السفر مكاتبة رسمية بكل تفاصيلها !! أترى لم يكن للموحى والموُحى إليه عملاً إيمانياً أجدى وأنفع للناس من مكاتبات الملوك والكهنة ؟!

إن تتمة سفر دانيال أيضاً تثير كثيراً من الاندهاش فهى تحمل تسبيحة الفتية الثلاثة القديسيين بالإضافة إلى قصة سوسنة العفيفة وقصتى الصنم بال والتنين ، وتتمة سفر دانيال هذه جزء منها عثر عليه بلغة غير المكتوب بها باقى السفر (كتب بالعبرانية وتكملته بالكلدانية !!) وضم كل ذلك تحت عنوان واحد ونص المفروض أن يربطه رابط لكن فجأة ينقطع الحكى ليبدأ حكاية جديدة بلا رابط ظاهر ؛ وعلى سبيل المثال فقصة سوسنة مدخلة على النص وهى تحكى عن إبنة الكاهن حليقاً (الجميلة جداً) وكيف راودها رجلان من رجال الدين اليهودى عن نفسها لكنها أبت فاتهموها بتهمة شنعاء وأظهر الله براءتها .

والقصة تعطى إشارات لفساد رجال الدين اليهودى أكثر مما تعطى مثالاً للتقوى وفى كل الأحوال فنحن نعيد السؤال : ما علاقة القصة كلها بنبوءات دانيال ؟!

لكننا نستطيع أن نفسر الأمر فى إطار جلد الذات وإظهار خطايا الشعب بما يستوجب معه عقاب الإله له بالسبى والهوان :

«وكان قد أقيم شيخان من الشعب للقضاء فى تلك السنة وهما من الذين قال الرب فيهم .. إن الإثم قد صدر من بابل من شيوخ قضاة يحسبون مدبرى الشعب».[1]

أما نبوءة باروخ ففيها دعوة صريحة للتعبد لملك بابل ، وحتى لو تم تأويل مسألة التعبد على أنها دعوة للصلاة أو الدعاء لأجل هذا الملك فهو فى كل الأحوال ملك وثنى لكن يبدو أن أمر السياسة قد اختلط برؤية باروخ أو من دس هذا النص ولم ينتبه للأمر :

«وصّلوا من أجل حياة نبوكد نصر ملك بابل [2] وحياة بلشصر ابنه لكى تكون

---

(١) نبوءة دانيال ١٣ : ٥ .

(٢) نبوكد نصر هو الذى قام بتدمير أورشليم وسبى أهلها والقضاء على مملكة يهوذا .

أيامهما كأيام السماء فيؤتينا الرب قوة وينير عيوننا ونحيا تحت ظل نبوكد نصر ملك بابل وظل بلشصر ابنه ونتعبد لهما أياماً كثيرة ونحن نائلون لديهما حظوة» . (١)

وفى موضع آخر يقول نفس السفر :

«هكذا قال الرب أحنو مناكبكم وتعبدوا للملك بابل فتسكنوا فى الأرض التى أعطيتها لآبائكم . وإن لم تسمعوا لصوت الرب بأن تتعبدوا لملك بابل فإننى أبطل من مدن يهوذا ومن شوارع أورشليم صوت الطرب ... إلى آخره» .

وهكذا يأمر رب إسرائيل بنو إسرائيل بأن يتعبدوا لمستعبديهم ومذليهم ويجعل مكافأة ذلك رضاؤه عليهم !!

وما سفر باروخ إلا مرآه تعكس أفكار ومعتقدات عزرا عن الإرادة الإلهية لسبى اليهود إلى بابل أو كأن باروخ أوحى لعزرا بهذه الأفكار (اللاهوسياسية) فتبناها عزرا فيما بعد وطورها، وباروخ هذا الذى نتحدث عنه كان يعمل كاتباً لأرميا وهو كاتب من كتّاب التوراة مثله مثل عزرا ، وقيل إن الإصحاح الأخير من سفره (نبوءة باروخ) ما هو إلا رسالة كتبها أرميا إلى المسبيين فى بابل يحذرهم من عبادة رجاسات الأمم وتماثيلهم المنحوتة .

أما سفر يشوع بن سيراخ فهو سفر يحمل منهجاً غريباً فى الدعوة للكراهية ، وهو معنى أكثر من اللازم بالمرأة . وحكمته تدعو للتعامل السلبى مع الحياة ، كذلك يتبنى منهجاً غريباً لتربية الأبناء . يقول مثلاً (الحكيم) يشوع بن سيراخ :

«إن دللت ابنك روعك وإن لاعبته حزنك ..... أحن رقبته فى صبائه وارضض أضلاعه مادام صغيراً» .

ولا نملك إلا أن ننصح بعدم اتباع طريقة ابن سيراخ فى تربية الأبناء .

***

ولا يبقى من الأسفار المخفية أو الأسفار القانونية الثانية إلا سفر أثار دهشتنا واهتمامنا إلى حد كبير ؛ والسفر هو سفر الحكمة ومنسوب للنبى سليمان وتم إدراجه فى قائمة الأسفار القانونية الثانية (الأبوكريفا) يعنى مرفوضاً إلا قليلاً وحجة الذين رفضوه أنه لو كان سليمان كاتبه فلماذا لم يتسن لعزرا - الذى جمع شتات الأسفار - العثور عليه ، وعلى الرغم من هذا فقد أقرت

---

(١) نبوءة باروخ ١ : ١١ - ١٢ .

مجامع مسيحية عديدة بقانونية السفر الذى ورد ضمن الترجمة السبعينية للتوراة وكذا ورد ضمن قوانين الرسل . (١)

على أن الأراء حول شخصية كاتب السفر لم تتفق فقال بعضها إن كاتب السفر يونانى وقال آخرون بل يهودى مصرى لم يكن يعرف غير اللغة اليونانية التى دون بها السفر ، وقال غير هؤلاء وأولئك : كتب السفر بالعبرية وتمت ترجمته ضمن باقى أسفار التوراة ؛ أما الذين نسبوا السفر لسليمان الحكيم فقد كانت حجتهم فى ذلك تتلخص فى الاسلوب البلاغى والاتجاه الحكمى الشعرى فى السفر ثم ما ورد على لسان كاتبه ووجدوه أنه ينطبق على شخصية النبى سليمان مثل:

«إنك قد أخترتنى لشعبك ملكاً ولبنيك وبناتك قاضياً وأمرتنى أن أبنى هيكلاً فى جبل قدسك ومذبحاً فى مدينة سكناك» . ويستمر هذا النص يستغرق خمسة أعداد من الإصحاح التاسع فى السفر وينتهى بـ :

«وأحكم شعبك بالعدل وأكون أهلاً لعرش أبى» .

على أننا نرجح أن السفر مكتوب إبان العهد المسيحى الأول وربما كان كاتبه قديساً عاصر المسيح نفسه حياً ؛ والأعداد من الثانى عشر إلي الخامس والعشرين من الفصل الثالث (الإصحاح الثالث) فى السفر تنقل لنا حديث الصابئة عن المسيح عيسى عليه السلام :

«ولنكمن للصّديق فإنه ثقيل علينا يقاوم أعمالنا ويقرعنا على مخالفتنا للناموس ويفضح ذنوب سيرتنا . يزعم أن عنده علم الله ويسمى نفسه ابن الرب . وقد صار لنا عذولاً حتى عن أفكارنا . بل منظره ثقيل علينا لأن سيرته تخالف سيرة الناس وسبله تباين سبلهم . قد حسبنا كزيوف فهو يجانب طرقنا مجانبة الرجس ويغبط موت الصديقين ويتباهى بأن الله أبوه . فلننتظر هل أقواله حق ولنختبر كيف تكون عاقبته . فإنه إن كان الصديق ابن الله فهو ينصره وينقذه من أيدى مقاوميه . فلنمتحنه بالشتم والعذاب حتى نعلم حلمه ونختبر صبره . ولنقض عليه بأقبح ميتة فإنه سيُفتقد كما يزعم . هذا ما ارتأوه فضلوا لأن شرهم أعماهم فلم يدركوا أسرار الله ولم يرجوا جزاء القداسة ولم يعتبروا ثواب النفوس الطاهرة . فإن الله خلق الإنسان خالداً وصنعه على صورة ذاته . لكن بحسد إبليس دخل الموت إلى العالم. فيذوقه الذين هم من حزبه» .

ثم حديث السفر عن الملكوت الذى دعا إليه المسيح :

---

(١) الأسفار القانونية الثانية طبعة دار المحبة .

«فابتغاء الحكمة يبلغ إلى الملكوت» .[1]

وكذلك الحديث عن البنوة الروحية لله ، بل إن بداية الفصل الخامس كلها من السفر تنطبق على سيرة المسيح عيسى بن مريم :

«حينئذ يقوم الصديق بجرأة عظيمة فى وجوه الذين ضايقوه وجعلوا اتعابه باطلة . فإذا رأوه يضطربون من شدة الجذع وينذهلون من خلاص لم يكونوا يظنونه ، ويقولون فى أنفسهم نادمين وهم ينوحون من ضيق صدورهم هذا الذى كنا حينا نتخذه سخرة ومثلاً للعار ، وكنا نحن الجهال نحسب حياته جنوناً وموته هواناً . فكيف أصبح معدوداً فى بنى الله وحظه بين القديسين». [2]

وهذا الذكر المتواتر للبتول مريم العذراء سلام الله عليها :

«إن البتولية مع الفضيلة أجمل فإن معها ذكراً خالداً لأنها تبقى معلومة عند الله والناس».[3]

فهل هناك شك بعد ذلك فى أن السفر مكتوب إبان عصر المسيح وبعد عصر سليمان بسنين كثيرة ؟!

وعلينا بعد ذلك أن ننظر فى هذه الإشارات التى وردت فى السفر تحتمل تفسيرات تتفق مع السيرة الحقيقية للمسيح عليه السلام خاصة فى حادثتى ولادته وموته ، فيخبرنا السفر فى أحد أعداده بإشارة لحديث المسيح فى المهد عندما يقول :

«والمولودون من المضجع الأثيم يشهدون بفاحشة والديهم عند استنطاق حالهم».[4]

«إن المسيح عيسى بن مريم سلام الله عليه لم يولد من مضجع أثيم وعند استنطاق حاله – فى المهد – شهر بالحقيقة فكان باراً بوالدته ولم يكن جباراً شقياً» .

أنظروا أيضاً فى الأوصاف الآتية وفكروا على من تنطبق الحوادث :

«خطفه لكى لا يغير الشر عقله ولا يطفئ الغش نفسه ... قد بلغ الكمال فى أيام قليلة فكان مستوفياً سنين كثيرة . وإذا كانت نفسه مرضية للرب فقد أخرج سريعاً من بين الشرور. أما الشعوب فأبصروا ولم يفقهوا ولم يجعلوا هذا فى قلوبهم».

فإذا كان هذا المسيح عيس بن مريم فإن الله خطفه وأخرجه من بين الشرور وأما الشعوب

---

(١) حكمة ٦ : ٢١ .
(٢) حكمة ٥ : ١ – ٥ .
(٣) حكمة ٤ : ١ .
(٤) حكمة ٤ : ٦ .

فأبصروا ولم يفقهوا ولم يجعلوا هذا فى قلوبهم الغلف التى ران عليها الكفر .

والسفر يذكر أيضاً قبساً من سيرة كثير من الأنبياء والرسل من عهد آدم عليه السلام وتقترن الحوادث العظيمة فى سيرة هؤلاء بالحكمة والمقصود بها الحكمة [1] الإلهية التى أرشدتهم إلى صواب الفعل .

وربما تركيز السفر على الحكمة بهذا الشكل هو الذى جعل كاتب السفر عند حديثه عن سليمان عليه السلام يتخذ دور الراوى ويتحدث بلسانه .

وفى حديث السفر استقامة وصدق لا نعهدها فى كثير من أحاديث الكهنة بل أحياناً ما يخالف هذا الحديث بعض الأحكام المعوجة والشرائع اليهودية التى ما أنزل الله بها من سلطان :

«لكنك تحب جميع الأكوان ولا تمقت شيئاً مما صنعت فإنك لو أبغضت شيئاً لم تكنه» . [2]

فهذه الآية السابقة مثلاً تخالف ما دعت إليه التوراة من قبل بفرز بنى إسرائيل دون باقى البشر وادعاء بأن الله فضلهم - دون فضل منهم - على العالمين .

قراءة أيضاً فى الفصل الثانى عشر للسفر نجد ما يخالف كثيراً من الأفكار التوراتية ونجد فهماً حقيقياً لقضاء الله وقدره وقبوله التوبة والعفو ومساواته فى ذلك بين جميع الأمم والشعوب دون تفضيل:

«لكن بعقابهم شيئاً فشيئاً منحتهم مهلة للتوبة .... لأنهم كانوا ذرية ملعونة منذ البدء . ولم يكن عفوك عن خطاياهم خوفاً من أحد . فإنه من يقول ماذا صنعت أو يعترض قضاءك ومن يشكوك بهلاك الأمم التى خلقتها أو يقف بين يديك مخاصماً عن إناس مجرمين إذ ليس إله إلا أنت المعتنى بالجميع» .

وأعتقد أيضاً أن النص السابق يحمل معنى التوحيد الخالص ذلك المعنى الذى شابته الشوائب فى الأسفار القانونية الأولى فرأينا فيها **«رب الأرباب ... ومن مثلك بين الإلهه»** إلى آخر هذه التعبيرات التى تحمل معنى الشرك فى الربوبية .

وتمضى إصحاحات السفر فى جلال وكمال وجمال تدعو إلى الحكمة ومعرفة الله وتشرح كيف زاغ الزائغون عندما تأملوا ملكوت الله فبهرتهم الصنعة فعبدوها وضلوا عن الصانع . إنه سفر كان لابد للرافضين أن يرفضوه لأنه يفضح مزاعمهم وكثيراً من لجاجتهم وحججهم ■

---

(١) حكمة ٤: ١١، ١٣ - ١٤ .

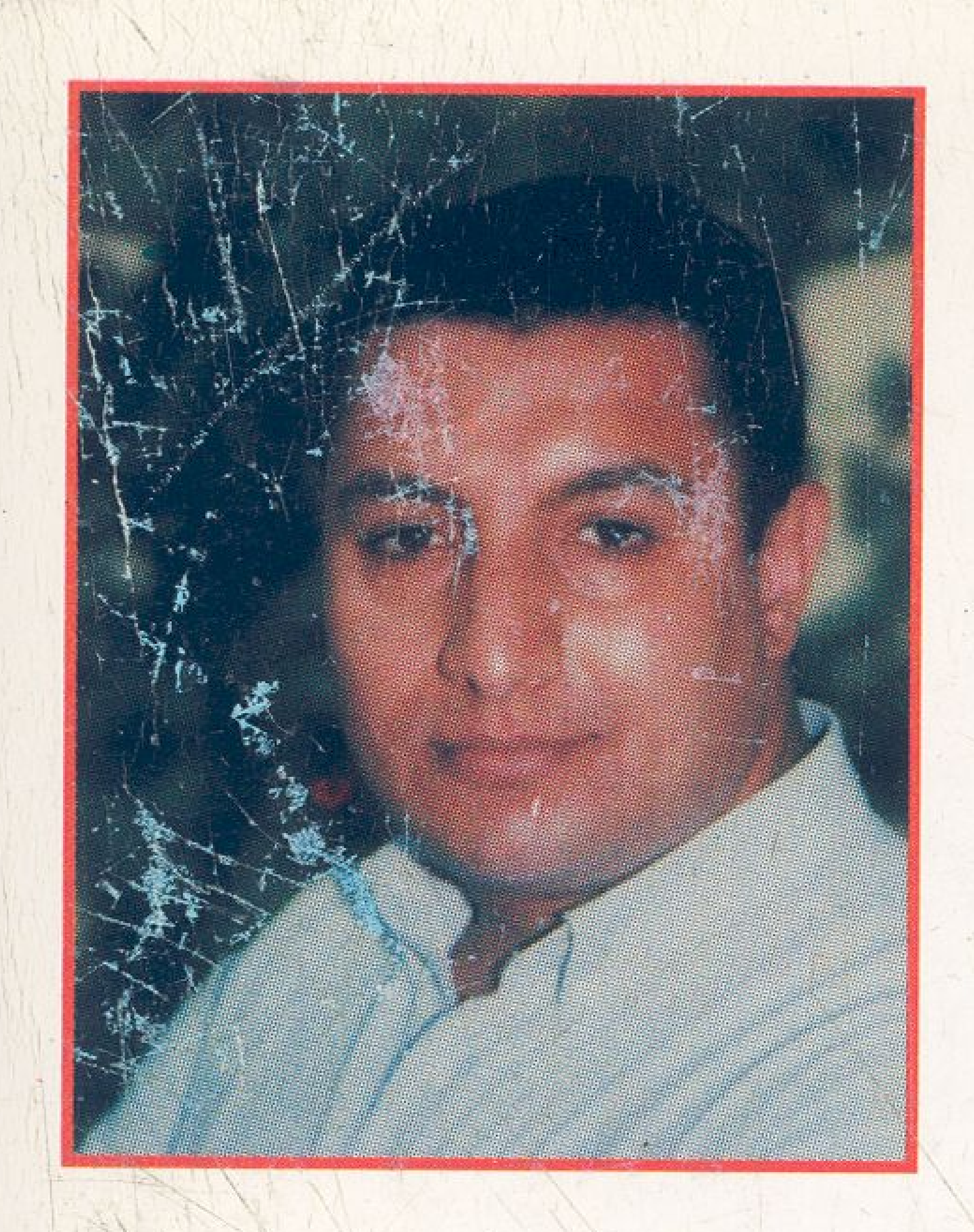
(٢) حكمة ١١ : ١٥ .

الفهرس

قائمة الإصدارات

العنوان	المؤلف
موسوعة تاريخ حضارات العالم	سميث . ترجمة : زينات الصباغ
أعلام النهضة العربية الإسلامية في العصر الحديث	صلاح زكي
رسالة إلى العقل العربي	د. عبد الحكيم بدران
تاريخ العلم	د. عبد الحكيم بدران
العلوم للجماهير	باربارا كاستيل . ترجمة د. عبد الحكيم بدران
خيانة المثقفين	د. عبد الحكيم بدران
صراع الحضارات (إثبات الأنا ونفي الآخر)	شعيب عبد الفتاح
الحات والتبعية الثقافية	د. مصطفى عبد الغنى
حقيقة الغرب	د. مصطفى عبد الغنى
صورة العرب في الغرب	د. عزة على عزت
خفايا المستقبل إلى أين تمضي البشرية وأين موقعنا	محمد الحديدى
المياه العربية بين خطر العجز ومخاطر التبعية	عبد الله العقالى
العرب وإسرائيل . ميزان القوى ومستقبل المواجهة	د. محمد عبد الشفيع عيسى
السلام الإسرائيلي (قراءة في المشروعات الاسرائيلية)	حسين معلوم
السلام المفتاك	محمد خليفة
أوهام السلام	عبد الخالق فاروق
السوق الشرق أوسطية (من هرتزل إلى باراك)	إكرام عبد الرحيم
البديل الإسرائيلي للعروبة	سيد زهران
مشروع للانتحار القومي !	مصباح قطب
في حتارة المقاطعة العربية لإسرائيل	شفيق أحمد على
الملف السري للسادات والتطبيع	شفيق أحمد على
مخابرات ومخدرات	شفيق أحمد على
عبادة الشيطان على ضفاف النيل	حسين عبد الواحد
الماسونية	خليل إبراهيم حسونة
الحركات الهدامة	خليل إبراهيم حسونة
الصهيونية السياسية	خليل إبراهيم حسونة
العنصرية والإرهاب في الأدب الصهيوني	خليل إبراهيم حسونة
الاستيطان الصهيوني	خليل إبراهيم حسونة
الإرهاب الأمريكي	خليل إبراهيم حسونة
القدس	خليل إبراهيم حسونة
حماس . حركة المقاومة الإسلامية	خالد أبو العمرين
يهود ضد إسرائيل	ياسر حسين
حلف الضحية والجلاد	ترجمة : زينات الصباغ
التواطؤ الصهيوني النازي	بن هخت ترجمة : حمدى متولى
غزة أريحا – المأزق والخلاص	عبد القادر ياسين
غزة أريحا – التسوية المستحيلة	جورج المصرى
صفقة التسوية الأردنية الإسرائيلية	د. السيد عوض
أساطير التوراة	عاطف عبد الغنى
التناقض في تواريخ وأحداث التوراة	محمد قاسم
بروتوكولات حكماء صهيون	
التلمود	
الحرب العالمية الرابعة	ياسر حسين
القوة العسكرية الإسرائيلية	جمال الدين حسين
سقوط نجم مخابرات إسرائيل	جمال الدين حسين
عملية السرب الأحمر	جمال الدين حسين
الاختراق الإسرائيلي للزراعة في مصر	صلاح بديوى
اختراق الأمن الوطني المصري	عبد الخالق فاروق
أسرار الجاسوسية ولعبة المخابرات	يوسف هلال
الجماعات السياسية الإسلامية والمجتمع المدني المصرى	د. أحمد حسين حسن
جماعات المصالح المصرية والسلطة السياسية	د. أحمد فارس
أزمة الانتماء في مصر	عبد الخالق فاروق
التطرف الديني ومستقبل التغيير في مصر	عبد الخالق فاروق
كارثة المعونة الأمريكية	جما ل قيطاس
قضية لوكيربي وأحكام القانون الدولى	د. ميلود المهذبي
أزمة لوكيربي والخروج من بيت الطاعة الأمريكى	د. السيد عوض
العلاقات الليبية – الأمريكية	د. السيد عوض
بان أمريكان ١٠٣ (اتهام ليبيا أم اتهام أمريكا)	مجموعة باحثين
حلايب . نزاع الحدود بين مصر والسودان	أحمد محجوب
الإخوان والعسكر	حيدر طه
القوى الخارجية والاتجاهات الإقليمية في السودان	د. السيد فليفل
نظم الحكم العنصرية في جنوب أفريقيا	د. السيد فليفل
أيام الفزع في الجزائر	خالد عمر بن ققه
الإسلام والعرش	سيد زهران
من يحمي عروش الخليج (النفط والتبعية)	د. أحمد ثابت
إعدام صحفي	سعيد حبيب
الكرامة الضائعة	حمادة إمام
عبد الناصر واليمن	د. عبد العزيز المقالح
عبد الناصر . هذا المواطن	سليمان الحكيم
حوارات عن عبد الناصر	سليمان الحكيم
عبد الناصر . والإخوان (أسرار العلاقة الخاصة)	سليمان الحكيم
المرأة التي أحبها عبد الناصر	شفيق أحمد على
عبد الناصر وعبد الحليم والزمن الجميل	حسن صابر
البديل الناصري (قراءة في أوراق التنظيم الناصرى)	سيد زهران
أسرار وخفايا ثوار يوليو	محمد متولى
عن الناصرية والناصريين (حوار مع د. الأتاسي)	مجدى رياض
الأقليات التاريخية في الوطن العربى	د. أحمد الصاوي
الناصرية والتاريخ	سيد حسان
الناصرية . الأيديولوجيا والمنهج	سيد زهران
التنمية المستقلة في النموذج الناصرى	جورج المصري
فلسطين الانتفاضة . جدل الوطن والأمة	د. أحمد ثابت
كاريزما الزعامة الناصرية	د. السيد الزيات
الناصرية والتجديد	مجدي رياض
ناصرية جمال عبد الناصر	جورج المصرى
ناصرية الناصرية الغائبة	جورج المصري
الحركة الإسلامية في مصر	صالح الورداني
الكلمة والسيف	صالح الورداني
عبود الزمر . حوارات ووثائق	أحمد رجب
الله واحد في الإنجيل	ترجمة : عادل حامد
المسيحية والإسلام	حسين السيد
الحكومة والسياسة في الإسلام	ترجمة : سيد حسان
رسالة التوحيد للإمام محمد عبده	تحقيق د. محمد عمارة
الإسلام والعروبة	مجدي رياض

العنوان	المؤلف
الوطن وحقوق غير المسلمين	محمد محمود عبد الله
كيف تقرأ القرآن	محمد محمود عبد الله
كيف تجود القرآن	محمد محمود عبد الله
كيف تحفظ القرآن	محمد محمود عبد الله
القرآن : حل مشاكل الأمة	محمد محمود عبد الله
الأحرف السبعة وأصول القراءات	محمد محمود عبد الله
الأيام المباركة في القرآن والسنة	محمد محمود عبد الله
حروب المشايخ	أحمد الدسوقي
أمن وحماية البيئة	خالد القاسمي / وجيه البعيني
ما هي السينما	صالح أبو سيف
الأعشاب الطبية	د. موسي الخطيب
الإبر الصينية في العلاج والتخدير	د. لطفي سليمان
المساجد الألفية في الإسلام	د. أحمد الصاوي
معالم في تاريخ حضارة آسيا الوسطى	د. أحمد الصاوي
النقود الإسلامية في مصر	د. رأفت النبراوي
كشف المستور من قبائح ولاة الأمور (تراث)	د. أحمد الصاوي
برلنتي والمشير (القصة الحقيقية)	سيد زهران
الجنس والشباب الذكى	كولن ولسون ترجمة أحمد عمر شاهين
تجارة الجنس	جاري جوردون ترجمة زينات الصباغ
صناعة النجوم	سكوت أونيل ترجمة زينات الصباغ
أشهر فضائح القرن العشرين	حسن صابر
نجوم في الوحل	حسن صابر
الأميرة العارية وعرش سيئ السمعة	حسن صابر
رؤساء أمريكا في الوحل	حسن صابر
أميرة علي قائمة الاغتيال	محمد رجب / حسن عبد الواحد
أمريكا - الانهيار السياسي والأخلاقي	حسين عبد الواحد
بنات إبليس (نساء في مملكة الشر)	حسين عبد الواحد
حسناء البنوك ومعالي الوزير	أسامة الكرم
ليلة العشق والدم	إبراهيم عبد المجيد
حمدان طليقًا	أحمد عمر شاهين
تباريح الوقائع والجنون	إدوار الخراط
رقرقة الأحلام الملحية	إدوار الخراط
مخلوقات الأشواق الطائرة	إدوار الخراط
دنا فتدلي (من دفاتر التدوين ٢)	جمال الغيطاني
مطربة الغروب	جمال الغيطاني
الحب والتتار	خالد عمر بن ققه
يومية هروب	خيرى عبد الجواد
مسالك الأحبة	خيري عبد الجواد
العاشق والمعشوق	خيري عبد الجواد
أنا كنده	كيروجا ترجمة : رزق أحمد
أنا ونورا وماعت	رفقي بدوي
أيام الغربة الأخيرة	صالح سعد
الدميرة	د.عبد الرحيم صديق
ليس هناك ما يبهج	عبده خال
لا أحد	عبده خال
صَعيدي صَح	د. عزة عزت
سراديب	عفاف السيد
إينارو	د. على فهمى خشيم
تحولات الجحش الذهبي	لوكيوس أبوليوس ترجمة د.على فهمى خشيم
يوميات عابر سبيل	فيصل سليم التلاوى
خبرات أنثوية	قاسم مسعد عليوة
بعد صلاة الجمعة	محمد عبد السلام العمرى
الخروج إلي النبع	محمد قطب
الحبيب المجنون	د. محمود دهموش
فندق بدون نجوم	د. محمود دهموش
الهروب مع الوطن	ممدوح القديرى
دم الأبنوس	ناجي الشكري
حافة الفردوس	نبيل عبد الحميد
الحضور في غياب قرط اللؤلؤ	نهلة السوسو
خلف النهاية بقليل	وحيد الطويلة
رويدًا باتجاه الأرض	إبراهيم زولى
قصائد حب من العراق (البياتي وآخرون)	إعداد : بثينة الناصري
بدلاً من الصمت	درويش الأسيوطى
كأنها نهاية الأرض	رفعت سلام
تصبح علي خير	سعدني السلاموني
الألوان ترتعد بشراهة	شريف الشافعي
تلف ، البحر . النجوم . العشب في كفٍ واحدة	ظبية خميس
كتاب الأمكنة والتواريخ	عبد العزيز موافى
سيرة الماء	د . علاء عبد الهادى
راتب الألفة	علوان مهدى الجيلانى
إضاءة في خيمة الليل	على فريد
نصف حلم فقط	عماد عبد المحسن
سراب القمر	فاروق خلف
إشارات ضبط المكان	فاروق خلف
بيت يمر بالمرايا	فاروق خلف
أوراق مسافر	فيصل سليم التلاوى
وَنَس	محمد الحسينى
هذه الليلة الطويلة	د.أحمدصدقى الدجانى
هاجس الكتابة	د . أحمد إبراهيم الفقيه
تحديات عصر جديد	د . أحمد إبراهيم الفقيه
أثر الثقافة العربية في الأدب الأسبانى	د. أحمد أبو حمد
نظريات التلقى وتحليل الخطاب وما بعد الحداثة	د. أحمد أبو حمد
عبد الله البَرَدُّونى - حياته وشعره	د. أحمد عبد الحميد
صد هدم التاريخ وموت الكتابة	أحمد عزت سليم
مغامر حتي النهاية	إدوار الخراط
المثقفون العرب والتراث	جورج طرابيشى
أباطيل الفرعونية	سليمان الحكيم
البواكير فى القصة القصيرة	شوقى عبد الحميد
الثقافة الشعبية وأوهام الصفوة الرثة	د. صلاح الراوى
رحلة الكلمات	د . على فهمى خشيم
بحثًا عن فرعون العربى	د . على فهمى خشيم
أعلام في الأدب العالمى	على عبد الفتاح
أبو رحل مسلوخة	محمد مستجاب
الرواية العربية : رسوم وقراءات	نبيل سليمان



عاطف عبد الغنى

- صحفى وروائى .
- حصل على جائزة من صندوق التنمية الثقافية فى المسابقة الكبرى للأدباء الشبان عن روايته « أسباب للحياة » .
- حصل أيضاً على جائزة فى كتابة السيناريو التليفزيونى من محطة راديو وتليفزيون العرب A . R . T .
- له دراسة منشورة فى كتاب عن جامعة شهود يهوه بعنوان « شهود يهوه مملكة إسرائيل على الأرض » .
- يعمل حالياً سكرتيراً لتحرير مجلة أكتوبر وله العديد من الموضوعات الصحفية والدراسات منشورة فى دوريات مختلفة

أساطير التوراة

لو أن الله فوق طاقة العقل فشريعته التى طلب أن تسود بين الناس توافق المنطق السليم والفهم الصحيح ، وهذا الفهم الصحيح لشريعة الله لابد أن يقود العالم إلى الغاية الحقة للحياة عبر سبيل صحيح ..

هى إذن معادلة مثل معادلات الكيمياء ..

فإذا جاءت شريعة بشيء من الفساد فلابد أن تقود العالم إلى الفساد والضلال ، وهذه الشريعة لا يُجبر أحد على قبولها أمراً من السماء ، لكن كيف اكتشف ذلك الفساد فى الشريعة ؟! أن أنحى نفسى عن الهوى والأحكام المسبقة وأعرض الأمر على عقلى أفحصه من كل الوجوه فإذا قبله العقل فلابد أن يستقر فى القلب وإلا فهو باطل ، وهذا ليس اختراعاً منا ، أليس المسيح هو القائل : «امتحنوا كل شئ وتمسكوا بالحسن»

